بحر أبيض

مكتبة

رُوي ياكوبسن

ترجمة: محمد حبيب

رواية

لن ننسى تشرين ٢٠٢٣

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

إهداء لـ..

من نرى ومن يرى حتى لو خفيت في نون

بحر أبيض

بحر أبيض - رواية
تأليف: روي ياكوبسن
ترجمها عن النرويجية: محمد حبيب

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
ISBN: 978 - 9933 - 641 - 96 - 2
الطبعة الأولى: 2023

Hvitt hav
Roy Jacobsen

مكتبة
t.me/soramnqraa
23 11 23

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: 9838
الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، مدينة الشارقة للنشر - المنطقة الحرة، مركز الأعمال.
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر

جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing

© CAPPELEN DAMM AS 2015

روي ياكوبسن

مكتبة | سُر مَن قرأ

بحر أبيض

رواية

ترجمها عن النرويجية:
محمد حبيب

This translation has been published with the financial support of NORLA.

I

- 1 -

مكتبة
t.me/soramnqraa

في البدء كان السمكُ. ثم جاء الإنسان ضيفاً دائماً على شاطئ البحر. في هذه اللحظة، دخل رئيس العمّال وسأل ما إن كان بين الفتيات من تُجيد تشفيةَ السمك، فقد وصلت شحنة غير متوقّعة من سمك القُدّ. رفعت إنغريد رأسها وحوّلت بصرها عن برميل سمك الرنجة باتجاه رصيف الميناء حيث تختفي ندف الثلج المتراقصة في أرضيّته الخشبية السوداء، جفّفت يديها بمئزرها ولحقت برئيسها إلى غرفة التمليح، ووقفت بجانب دكّةٍ مبقّعة بالدماء وبرميل سمكٍ مُنظَّفٍ. تبادلا النظر. أومأ برأسه إلى سكّينٍ فوق الطاولة، كانت السكّين أشبه بفأس صغيرٍ.

تناولت إنغريد من حوض الغسيل سمكة قُدٍّ بطول الساعد، مدّدتها على الدكّة، قطعت الذقن، رفعت عظمة الغلاصم، غرزت نصل السكّين تحتها، وسحبته إلى الأسفل قاطعةً الأضلاع من عند الرقبة إلى أسفل البطن، ثم سحبت السكّين إلى أسفل فتحة البطن، قطعت أيضاً كلّ الأضلاع على الجانب الأيمن، أمسكت الذيل ورفعته فاصلةً العمود الفقري عن اللحم كأنها تفتح سحّاباً صدئاً، ثم وقفت ثابتةً وهي ترفعه في يدها اليسرى. بدت شريحة السمك مثل جَناحٍ أبيضَ فوق لوحٍ مُدمّى، جاهزة لكي تُشطَفَ

وتوضع في الحوض، تُمَلَّح وتجفّف وتُغسَل، ثم تُغلّف وتُباع مثل قطعة ذهب أبيض عاجيٍّ حَفِظَ الحياة على هذا الساحل القاحل على مدى ثمانمئة عام، كما تقول المخطوطات الأولى.

«أرِني العمود الفقري!».

نقلت إنغريد العمود الفقري إلى يدها اليمنى، لتُخفي الجرح الذي تسبّبت به بين سبابة يدها اليُسرى وإبهامها.

«لا بقايا لحمٍ عليه».

ثم أضاف إنها يمكن أن تبقى في هذا القسم ما دام الموسم جيّداً، فلا أحد يحزر، أبداً، على فصل الخريف...

«لكن يمكنك أن ترتدي قفّازاً».

نظرت إنغريد إلى الدم النازف من جرحها، وقد امتزج مع دم السمكة وشكّل قطرة سقطت في اللحظة التي أدار فيها ظهره لها ومشى إلى المكتب، بنعليه المطاطيّين ذوي الصريف الحادّ.

كانت إنغريد تكابد الشوق إلى بارأوي، لكن ما من أحد بوسعه العيش على جزيرة بمفرده، وقد كانت بارأوي فارغة ومقفرة تماماً هذا الخريف، لا بشر ولا حيوانات هناك؛ حتى إنها ما عادت مرئيّة منذ تشرين الأول الماضي، وهي لم تكن قادرة أيضاً على البقاء هنا في الجزيرة الرئيسة.

عملت في تَشْفِيَةِ السمك عشر ساعاتٍ في اليوم، وبقيت بعيدة عن عملية التمليح، وبعد أسبوع جفاها النوم في العِلّيّة الباردة، حيث تنام مع نيللي وفتاتين صغيرتين جاءتا من وسط البلاد للعمل هنا بسبب الحرب. تظاهرتا أنهما لا تبكيان كلّ ليلة في استجداء النوم، وأمضتا الليالي تتذوّقان

سمك الرنجة، المُقَطّع والمملّح في البراميل، وتشربان محلول السكّر والملح(*) كبديلٍ عن القهوة، مَلّحتا السمك واغتَسَلتا كلّ ثاني مساء بالماء البارد، وغسلتا شعريهما مرّة واحدة في الأسبوع بالماء البارد أيضاً، شعورٌ حمراء بلون الصدأ تحت سماء مرصّعة بحراشف الرنجة البرّاقة، وإنغريد تُشَفّي سمك القُدّ مثل رجلٍ.

في منتصف الأسبوع الثاني توقّف العمل في إحدى غرف التمليح، فأُرسِلتْ نيللي للعمل مع إنغريد. في اليوم التالي هبّت عاصفة اضطرّت معها قوارب الصيد أن تلجأ إلى الجُزر. لم يُرَ لها أثرٌ في اليوم التالي. في اليوم الثالث استطاعت القوارب الخروج من الثلج، لم يكن على متنها ولا حتى سمكة كارب صغيرة.

كان في استقبال القوارب كثيرٌ من البشر، بل إنّ أهل القرية جميعاً كانوا في انتظارها، خرجوا لاستقبال الرجال العائدين إلى بيوتهم أحياء، مرّةً أخرى. وتسبّبت العواصف المستمرة بحبس البحّارة والصيّادين في الميناء، حتى الأسماك التي لم تكن تنفع إلا لتحويلها إلى علفٍ أو سمادٍ فحسب، حلّق سعرُها عالياً، وهذا بسبب ارتفاع أسعار السلع في أسواق أخرى في عالم آخر غير هذا العالم. وهكذا جُمِعَتْ الأسماك التالفة، وعُلِّقت وجُفِّفت، وانتهت حكايا الخريف الغريبة.

كانت إنغريد ونيللي تقلّبان السمك المُملّح، وترميان السمك الذي فسد، ثم ترفعان السمك من الطبقة السفلى إلى الطبقة العليا من جديد. وبعد انتهاء موسم سمك الرنجة، طُرِدت الفتاتان الصغيرتان الأجنبيّتان

(*) محلول السكّر والملح لحفظ الطعام، وبعض أنواع السمك. [المترجم]

بعد أن أُعطيتا أجرهن الزهيد. نظّفت كلٌّ منهما وجه الأخرى من حراشف السمك العالقة عليه، وغسلت كلٌّ منهما شعر الأخرى بالماء البارد، ثم جفّفتاه ومشطّتاه، وثبّتتا دبابيس الشعر حيث يُفترض أن تكون، قبل أن تغادرا المكان ضاحكتين، على متن باخرة، بملابس لم يرَهما أحدٌ بها من قبل.

مع تلك الباخرة وصلت رسالة من عمّة إنغريد، باربرو، التي ترقد في المستشفى الآن؛ لقد طلبت باربرو من إحدى الممرّضات أن تكتب لها تلك الرسالة، فكتبتها بخطٍّ يشبه خطّ الأطباء. استطاعت إنغريد قراءة الرسالة، لكنها لم تستطع أن تفهمها جيّداً. لن تعود عمّة إنغريد إلى بارأوي حالياً لأن الكَسْر في عنق الفخذ لديها لم يتعافَ بعد، ولذلك لا تستطيع ركوب الباخرة... لكنها ستعود قبل عيد الميلاد، وقد كرّرت هذه العبارة مرّتين. كانت باربرو في التاسعة والخمسين وإنغريد في الخامسة والثلاثين. في تلك الليلة نامت إنغريد باكراً ودونما أحلام. استيقظت باكراً أيضاً، وبقيت مستلقية في فراشها وهي تُصغي إلى الريح التي تخرمش قرميد السطح، وإلى اعتلاج البحر وصخبه بين أعمدة رصيف الميناء تحت أصوات أنفاس نيللي. كانت نيللي تنام مثل كل البشر، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يشبه ما كان ينبغي وجوده هنا؛ غير أنه، ليلةً بعد أخرى، ما عادت أصوات نومها مُحتملة.

نهضت إنغريد، اغتسلت في جردل من الزنك، ثم حزمت حقيبتها، لم تأكل ولم تُعدّ القهوة، حملت ثياب عملها كريهة الرائحة ونزلت إلى الباحة الخلفية لمصنع تعليب الأسماك، حيث يحرق الألمان القمامة، رمتها في برميل، ووقفت تحدّق في ألسنة اللهب حتى بدأ الناس يتوافدون إلى الرصيف، وبدأ الثلج يتساقط بخفّة.

صعدت إلى العلّيّة ثانيةً وأعدّت القهوة، ملأت فنجاناً ووضعته على كرسي بالقرب من رأس نيللي، الذي ما زال يبدو مثل موتٍ سعيدٍ، وانتظرت حتى أخبرها الانعكاس على جدار الرصيف أنّ رئيسها في العمل قد وصل، وأنّ النهار قد بدأ الآن، في الظلام. عندئذٍ نهضت، حملت حقيبتها ثم نزلت إلى رئيسها، وقالت له إنها تريد أن تُصَفّي حسابها وترحل.

وضع من يده قلم الرصاص الرفيع وتظاهر أنه قد فوجئ، ثم قال إنها قد باغتته وهو لا يستطيع الاستغناء عنها، وإنهم بانتظار شحنةِ صيدٍ جديدةٍ مساء اليوم، وإنهم في أمسّ الحاجة إليها رغم أنه يمكن الاستغناء عنها، العمل المأجور المُعتاد، آلية الاحتيال المعقّدة ذاتها، وإنغريد من جزيرةٍ سقفُها وجدرانها السماء، فأعادت على مسامعه إنها تريد أجرها في الحال. وانتظرت، بصبرٍ، الأدراج التي ستُفتح وتُغلق، والأوراق التي سيقلّبها ويخشخش بها، وتنهيداته الغامضة فوق جداول ساعات العمل، وكذلك العَدَّ الدقيق للأوراق النقدية المُجعّدة، كما لو أنّ طلب الأجر إهانة لصاحب العمل، كما لو أنّ الربّ هو المذنب يوم الحساب لا العبد.

مشت إنغريد الطريق المتجلّد إلى المتجر، وانتظرت مارغوت حتى فتحت أبوابه، جمعت مشترياتها، وأضافت إليها القهوة والزُّبد، دفعت ثمن بعضها من قسائم التموين وبعضها الآخر بالنقود. استعارت عربة مارغوت ونقلت بها مشترياتها إلى قاربها الراسي بجوار الرصيف منذ بداية فصل الخريف.

أفرغت القارب من الثلج بالمجرفة، وضعت مشترياتها وحقيبتها على متنه، وعادت تجرّ العربة إلى المتجر. مرّت في طريق العودة بجنديّين

ألمانيّين يدخّنان في ظلّ غرفة تمليح سمك، لا بدّ أنهما كانا جالسين هناك ويراقبانها طيلة الوقت.

عادت أدراجها إلى الرصيف، ركبت القارب، حلّت حبل الربط وجلست بين المجدافين. تقدّم أحد الجنديّين من الرصيف وصرخ عليها ببعض الكلمات، ولوّحَ بيده وسيجارته، عينٌ حمراء في الشتاء. ثم أعاد كلاماً لم تسمعه، ازدادت غزارة ندف الثلج، انزلق القارب فوق الماء واختفى الجندي.

جدّفت إنغريد نحو أوترهولمن الممتدّة طويلاً وسط الماء، أبحرت مقابل الصخور محافظةً على مسافة أمان بطول مجاديف القارب حتى اختفت هناك، لم يعد في مرمى النظر شيءٌ، وكان البحر ثقيلاً وهادئاً.

بعد العلامة الأخيرة على الريف الصخري، اتخذت مساراً جديداً منعطفةً بمقدار زاوية قائمة بين شاخصة الطرق المائية ومقياس ارتفاع مستوى سطح البحر، حتى لاحت لها أوترهولمن بعد ما ينوف على ساعة من الزمن. انعطفت يميناً، ومن ثم يساراً. غيّرت المسار وأبحرت في زاوية جديدة بين مقياس ارتفاع منسوب سطح البحر وشاخصات الطرق المائية، ولاحت لها بارأوي بعد نصف ساعة تقريباً من اختفاء أوترهولمن من المشهد.

أفرغت حمولتها على اليابسة، فتحت بوّابة سقيفة القارب وسحبت القارب إلى الداخل، بالرافعة التي ركّبها والدها ذات يومٍ من أيام طفولتها. شدّت قامتها وأجالت النظر حولها، البيوت المنتشرة فوق التلّة الرمادية على جرف الجزيرة المقوّس، التي تُرى بوضوح حتى على بعد خمسة عشر ميلاً أو عشرين ميلاً، عندما يكون الطقس صافياً، تبدو الآن لإنغريد

مثل علبٍ سوداء تحت طبقة رقيقة من الحليب، لا أضواء فيها، ولا دروب إليها في هذا الثلج.

حملت على كتفها صندوقاً خشبياً، وضعت فيه كلّ أمتعتها، وصعدت إلى البيت. أصبحت تلك العلب بيوتاً ومنازل محاطة بأشجار بدت الآن مثل أصابع مُتفحّمة. دخلت البيت وراحت تتنقّل بين الغرف وتُشعل المصابيح، ثم أشعلت الموقد في المطبخ والمدفأة في غرفة الجلوس. لم تستطع البقاء في الداخل. خرجت ثانية ونزلت إلى سقيفة القارب، تأكّدت من أنها أقفلت الباب، وأنها وضعت القارب في السقيفة كما لو أنها لم تتأكّد من ذلك كلّه عندما وصلت. كانت أوترهولمن تظهر وتختفي مثل بستان مسوّر بشامات حصوية وسط هذا البحر الأخضر. لا قارب في المدى، ولا حتى طير. قبل أن تصعد إلى البيت ثانيةً، استدارت ونظرت صوب البيوت، ثمّة بينها بيتٌ واحد بعينين ذهبيّتين. الآن هناك إذاً ثلاثة مساراتٍ في الثلج، على الأقل.

- 2 -

أصبح المطبخ دافئاً، الآن. خلعت إنغريد الطبقة الأولى من ثيابها، طحنت بعض حبوب البنّ، وضعت غلّاية القهوة على الموقد، ثم وضعت مشترياتها في غرفة المؤونة، وجلبت المزيد من الحطب. كانت القهوة جاهزة الآن. خلعت الطبقة الثانية من ثيابها، وجلست تحتسي القهوة في كرسيّها الخاص بالقرب من النافذة القابلة للفتح، وراحت تجيل بصرها نحو الغيوم في الغرب، ثم إلى موتهولمن، سكوغهولمن، لوندشارن، ومن ثم إلى الشاطئ النائم بعمق، في هذا اليوم الذي لن ينتهي إلى أيّ شيء غير عادي. وعلى الرغم من أنها لم تأكل حتى الآن، بدأت تنظر حولها لتقرّر من أيّ مكان تبدأ الترتيب. هل تبدأ من تحت المدفأة أم بالطاولة، أو من الزاوية المقابلة لغرفة المؤونة؟

نهضت، وسحبت قفّة التورف المليئة بالصحف التي احتفظت بها منذ أن كانت بارأوي جزيرة مأهولة بالناس والحيوانات، بمصباح المنارة، بالطقس العاصف والإرادة القوية، بالعمل، وبفصول السنة والوفرة؛ ثم بدأت تمزّق أوراقها وتصنع منها كُراتٍ ورقية، وتكوّمها على أرضية المطبخ مثل كرات ثلج. لكنها بقيت تتساقط واحدتها عن الأخرى، فتعيد

هي تكويمها، ثم تدعمها بالعيدان وقطع التورف لتصنع منها ناراً، وهذه فكرة لم تخطر لأحد من قبل، أن يحرق بيتاً في جزيرة. صحيح أنه توجد أطلال في بارأوي، لكنها لم تكن أطلال حريق؛ ولم يكن هناك أدنى شك في أن من كانوا يسكنون كارفيكا، هجروها بملء إرادتهم، وليس بسبب كارثة. شعروا بالسأم فجأة؛ نظروا إلى أنفسهم في المرآة، ثم وضّبوا حقائبهم وغادروا. كانت تلك فكرة لا تُحتمل.

نهضت، حملت فانوساً ثم صعدت إلى الصالة الشمالية، ومن ثم إلى الصالة الجنوبية، ثم دخلت غرفة باربرو في الجهة الشرقية، فإلى غرفة طفولتها بسريرها القابل للطيّ، وطاولة السرير والمزهرية الصغيرة فوقها، ورسوماتها المدرسية، باهتة اللون، التي لم تشاهدها منذ شهر أيلول عندما جاءت إلى هنا لقلع البطاطس؛ حتى البيت قد أصبح أصغر، والأبواب أصبحت أخفض، والنوافذ أضيق، ورائحة الناس التي كانت قد التصقت بالجدران مثل الطلاء قد حلّت محلّها الآن رائحة التربة الرطبة النفّاذة؛ مرّرت رؤوس أصابعها بين حبّات الندى المتكثّفة على الجدران، وجلست على سرير والديها، السرير الذي توفّيت والدتها عليه.

«اتركي الجزيرة للارس!» -تلك آخر عبارة قالتها والدتها- «وسافري، فأنت شابّة وذكية، أديري ظهرك للبحر، تعلّمي مني...».

«كلّا»، قالت إنغريد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«أنت لست قوية بما يكفي».

«بلى»، قالت إنغريد لأمها المحتضرة.

وفي الربيع التالي لم يرجع لارس من لوفوتن. كتب يقول إنه وجد الحب، ومكث هناك، مع القارب وعِدّة الصيد والطاقم. ومرّت سنة،

وثانية، وثالثة، واندلعت الحرب ولارس لم يعد. وكانت وحدة إنغريد وباربرو تتضاعف مع كلّ إشراقة شمس، ومع هبوب كلّ عاصفة، ومع كلّ حيوان ذبحتاه، ومع كلّ كيس ريش عيدر جمعتاه وفشلتا في بيعه. شابّة وامرأة في منتصف العمر وحيدتان على جزيرة، تنتظران رسالة من لارس، وكانت رسائله منتظمة ومنظّمة، حتى وصلت ذات يوم رسالة مزيّنة برسومات خضراء بتوقيع هانس، ابن لارس، ذي السنوات الثلاث، وكانت تلك السنوات الثلاث هي الأطول في حياة إنغريد. والآن، دخلت الحرب سنتها الرابعة، وأصبح لدى هانس أخٌ، مارتن؛ ومع ولادته وصل المزيد من الرسائل المزيّنة بالرسوم إلى ابنة الخال والجدّة، اللتين لم تردّا قطّ على الرسائل، إحداهن بدافع الكبرياء، والثانية بسبب أمّيّتها.

انتقلت إنغريد إلى الصالة الشمالية وقرّرت أن تنام هناك، حيث توجد في أرضية الصالة فتحة يصل عبرها دفء مدفأة المطبخ في الأسفل. نفضت بياضات السرير، ولحاف العيدر، ثم أعدّت السرير للنوم ونزلت إلى المطبخ ثانية، وشربت القهوة الفاترة وهي تعيد قراءة رسالة باربرو، بعدئذٍ جعّدتها ورمتها فوق كومة الكرات الورقية.

لكنّها لم تُضرم النار فيها.

ذهبت لتُلقِمَ المدفأة في غرفة الجلوس، فوجدت باب غرفة جدّها مفتوحاً. وضعت يدها على مسكة الباب لتغلقه، لكنها تذكّرت أنها قد أغلقته منذ قليل، نعم، لقد أغلقت هذا الباب من قبل، والآن هو مفتوح وموارب، والسكون مطبق، ولا تُسمع أيّ حركة في البيت.

سمعت فرقعة، بعيدة جداً، مثل قرقرة في بطن العالم، فعادت إلى

المطبخ، وقفت هناك حائرة، وطالت وقفتها، قبل أن تعود وتفتح باب الغرفة وهي تشعر بالغضب من نفسها لأنها لم تفعل ذلك من قبل، لأنه إن كان أحدٌ هناك فلا بدّ أنه اختفى ثانية.

لكنها لم تشمّ أيّ رائحة، ولم تسمع أيّ حركة، ولا تمتمة أصوات، ولا حتى صوت قطّة، فقط صوت الهسيس الخافت هنا في الداخل كما في الخارج. أخذت المصباح عن جدار غرفة الجلوس، ودخلت إلى الغرفة لتقطع الشكّ باليقين، لتتأكّد من عدم وجود أحد لا في السرير ولا تحته، لا في خزانة الثياب ولا في الصندوق الذي فتحته وأغلقته قبل أن تجلس على غطائه، مع هسيس الصمت المدوّي بقوة في أذنيها لدرجة أنه كان لا بدّ من خروج الصرخة.

لقد كان السكون مطبقاً.

لبست معطفها وخرجت تحت الثلج المتساقط، ووقفت تتأمل البيوت، والحظيرة، والأرصفة وسقيفة القارب بجانب البحر، ودهمها فجأةً شعورٌ بأن كلّ ما ربطها بقوّة إلى بارأوي لا قيمة له. وسرعان ما سيتحوّل الثلج إلى مطر، وتصبح الجزيرة بنّيّة كأنها مصابة بالجرَب، ويصبح البحر رمادياً ما لم تغيّر الريح اتجاهها.

سارت جنوباً عبر الحقول، تجنّبت البوّابات وراحت تتسلّق الأسيجة الصخرية كما كانت تفعل وهي طفلة. لكنها لم تعد طفلة. تابعت سيرها إلى أقصى الجنوب، ووقفت تحدّق في أطلال المنارة التي فجّرتها هي وباربرو، عندما اندلعت الحرب، بآخر قطعة ديناميت متبقية عند أبيها، شظايا زجاج نقي بألوان صارخة، أعشاب وطحالب البحر مثل شعر أسود حول سياج معدني صدئ ملتوٍ، وخزّان وقود المنارة الذي يبدو الآن مثل

زهرة محترقة. جلست على جذع الشجرة التي وجدوها على شاطئ الجزيرة، ورفعوها وثبّتوها بأوتاد وحبال كي لا يجرفها البحر، ويأخذها منهم ثانية، هذا العملاق الأبيض الذي اعتقدوا أنه سيكون ذا قيمة ذات يوم وربما يساوي ثروة، يُستخدم منذ ثلاثين عاماً كمقعدٍ لبشر لم يعتادوا الجلوس قطّ.

وإنغريد لم تعد طفلة.

بقيت جالسة هناك حتى نهشها البرد القارس، فنهضت وسارت إلى الشمال فوق الصخور الغربية دون أن ترى أثراً في الثلج، ودون أن تسمع سوى أنين البحر المقفر، تجاوزت هامر والرصيف الجديد وسقائف القوارب الثلاث، التي كانت إحداها تكفي وتزيد؛ وأدركت أنها لو أيقظت نيللي هذا الصباح، وسمحت لنفسها بسماع صوتها ورؤية ابتسامتها، لكانت بقيت هناك في مصنع تعليب السمك تُشَفّي سمك القدّ، بينما أفكارها تحلّق عالياً ثم تهوي.

وقفت إنغريد في سقيفة القارب الجديدة، رفعت شعرها المبلّل وعقدته فوق رأسها وتركته يفلت ثانية، وأعادت الحركة ذاتها وهي تتساءل لماذا ما زالت لا تشعر بالجوع. ولاحظت وجود ثقبٍ في كمّ كنزتها الصوفية، ولم تستطع أن تتذكّر متى وكيف حصل ذلك. في صندوق على طاولة العمل رُتِّبَت المغازل الخشبية حسب الحجم. مسكت أكبرها ووقفت تقلّبه بين يديها، وشاهدت فيه آثار أسنان لارس الذي كان يعضّ ويقضم كلّ شيء عندما كان طفلاً. كما رأت بقايا دم الأسماك المتخثّر تحت أظافر يديها. وتذكّرت أن الثقب في كمّ كنزتها حدث بسبب احتكاكها مع مسمار

بارز، عندما نزلت الدرج وهي تحمل حقيبتها هذا الصباح. وعلى رفّ فوق طاولة العمل ثمّة بكرات خيطان من مختلف الأحجام، وسكاكين، ومِسَنّات، وخطاطيف، وفلّين... وإبر حياكة، الإبر التي تحيك بها باربرو.

سحبت إنغريد مقعداً، وجلست مقابل خطّاف حديدي تحت النافذة، ثم تناولت خيطاً وأدخلته في السنّارة وبدأت في نسج شبكة جديدة. وفي غضون ساعة نسجت خمس عشرة ياردة بعرض ثلاث قامات(*). كانت يداها طريّتين وناعمتين في هذا الهواء البارد. وكانت جائعة جداً، فخرجت إلى ظلمة الليل وشقّت طريقها إلى البيت، ووجدت أنها قد أخطأت في تقدير الطقس، فقد تحوّلت الرطوبة إلى ثلج خفيف وجافّ مثل السخام، أما هي فلم تعد تشعر بالخوف.

(*) وحدة قياس تساوي ستة أقدام، تُستخدم عادةً لقياس أعماق البحر. [م]

- 3 -

أكلت إنغريد ونامت، ثم استيقظت وقد فارقها الشعور بالخوف. أكلت ببطء، ولبست ثيابها ببطء أيضاً، وخرجت في ضوء شهر تشرين الثاني الشاحب، وأخرجت القارب من السقيفة. انقلبت الريح مرّةً أخرى وبدأت تهبّ من الجنوب الغربي. جدّفت حول اللسان البحري في مواجهةِ موجٍ ارتفاعه متر، وباتجاه الجنوب الغربي عبر المضيق باتجاه المربط المعدني الذي دقّه لارس في الصخر هناك، علّقت أنشوطة حبل الشِّباك بالمربط دون أن تنزل من القارب، ودون أن تسمح بارتطامه بالصخر، ثم جدّفت مع الموج عبر المضيق إلى موتهولمن، حيث دقّ ابن عمّتها أيضاً مربطاً في الصخر، وعلّقت هناك حبلاً، دون أن تنزل من القارب ودون أن ترطمه بالصخر أيضاً، ثم جدّفت عائدةً باتجاه بارأوي، قدّرت المسافة بثمانين قامةً، أو تسعين، لكنها كانت قرابة مئةٍ وخمسين ياردة، وكان الحبل قصيراً جداً.

انفجرت بالبكاء، ربطت عوّامةً في نهاية الحبل وتركته. جدّفت مع التيار باتجاه الشمال إلى الرصيف الجديد، وجلبت حبلاً إضافياً. كان البحر أكثر هياجاً الآن. جدّفت بكلّ طاقتها من جديد حتى وجدت

العوّامة. ربطت الحبلين أحدهما إلى الآخر، وجدّفت عائدةً إلى الرصيف في بارأوي مع نهاية الحبل الأخرى. كانت مبلّلة حتى الجلد، وجسمها مثل جمرة، وكانت منهكة وغاضبة، لكن، لديها الآن حبلٌ على طول المضيق، وتستطيع أن تربط به شبكة أو اثنتين، وأن تصطاد دون أن تُبحر بالقارب، مهما ساء الطقس، حتى ينتهي الصقيع، وربما بعد ذلك أيضاً.

تركت البحر يجرفها باتجاه الشمال، ولاحظت أن البحر قد هدأ وسكن تماماً، وقد ظنّته سيزداد هياجاً، وكانت لا تزال غير خائفة.

صعدت إلى البيت ونامت على المقعد بالقرب من الموقد، وعندما استيقظت كان المساء قد سبقها. جسدها باردٌ ومتيبّس، فنهضت وأشعلت الموقد ثانية، أعدّت طعامها، فكّرت في أن تخرج وتعلّق الشِّباك على الحبل في الظلام، لكنها طردت الفكرة من رأسها. تناولت أحد الكتب التي جلبتها معها، لم تجد فيه شيئاً. رمته جانباً، ولبست ثيابها، وخرجت إلى الرصيف الجديد، أخذت شبكتين، وجدّفت بالقارب إلى الجنوب، إلى المرسى بجانب المضيق، سحبت الأولى وتركتها تنزل في الماء الأسود مثل شبكة عنكبوت هائلة خرساء، وصلت عين الشبكة الثانية بها وأنزلتها في الماء، وصلة من شبكتين، وهذا عمل مألوف، ثم جدّفت ساحبةً وصلة الشبكتين مسافة خمس عشرة قامة، ثبّتت النهاية جيّداً، وعادت إلى البيت.

نامت عارية، وبعمق، في سرير والديها في الصالة الشمالية. نهضت في صباح اليوم التالي، سحبت الشِّباك، وحصلت على سمك طازج يمكنها أن تتناوله على الغداء، ثم عادت وأنزلت شبكة أخرى. أصبحن ثلاثَ شبكات، ويمكن أن ترفع العدد إلى أربع أو خمسٍ. لديها سمك قدٌّ مملّح منذ الشتاء الماضي، ومخزن البطاطس مليء، ولديها أيضاً سمك

بولاك أحمر ونصف برميل من سمك الرنجة؛ وكذلك مربّى وطحين وقهوة وعصير، وبازلّاء مجفّفة، واشترت الزبد والسكر. والآن لديها سمك طازج. كرات ورق الجرائد لم تعد على أرضية الغرفة، إنها في قفّة الحطب تحت الموقد. وشاهدت عبر النافذة طائرتين في فجوة بين طبقات السحاب، وسمعتهما تطلقان النار على الحصن شمال الجزيرة الرئيسة، قبل أن تنغلق الفجوة وتختفيا.

في الصباح التالي حصلت على ثماني سمكات قدّ وسمكة بولاك كبيرة. أكلت سمكاً وكبد سمك طازجين، وملّحت البقية، وجلست في المطبخ تستمتع بالدفء، وهي تتلفّت حولها، حتى جعلها أمرٌ تنهض وتنزل إلى المخزن فوق الحظيرة حيث يحتفظون بأكياس ريش العيدر. على لصاقة الكيس الأول قرأت: بارأوي، 1 كغ، 1939. فتحت الكيس ودفنت يدها في صيف الريش. أغلقته وفتحت الكيس الثاني، الذي كُتب على لصاقته تاريخ 1937. صيفٌ آخر أيضاً. فكّرت في أن تجدّف بالقارب إلى القرية وتحصل على قطّة.

عادت إلى البيت، سخّنت الماء واستحمّت، وفركت أظافر أصابعها حتى تشقّق الجلد من حولها، وغسلت شعرها، ثم عقصته وتركته يتدلّى فوق جسدها ليسيل منه الماء الدافئ على بطنها وردفيها وفخذيها، قبل أن يضيع في حوض الغسيل. لبست ثيابها وجلست إلى طاولة المطبخ. فتحت الكتاب ذاته. لم تجد فيه شيئاً. لكنها الآن تستطيع أن تنام مثل نيللي. فاستلقت وفكّرت بالقطّة. قريباً تعود باربرو. فكّرت في باربرو، وفي سوزانا أيضاً.

لقد كانت سوزانا بمنزلة ابنة لإنغريد. لكنها تخلّت عنها، وعن بارأوي أيضاً، عندما بلغت الرابعة عشرة. لقد فعلت ذلك بملء إرادتها.

نهضت إنغريد ثانية ونزلت إلى غرفة المعيشة، ووجدت الرسالة في خزانة الأدراج التي اشتراها والدها في إحدى لحظات جنونه. رسالة من العاصمة بخط سوزانا الجيّد، تقول فيها إنها حصلت على عمل لدى عائلة ثريّة، ثم على عمل كعاملة مقسم هاتف في شركة غربية ذائعة الصيت. قرأت إنغريد الرسالة على مهلٍ، وهي تتمايل مع إيقاع الكلمات، تهزّ رأسها وتؤرجحه إلى اليمين وإلى اليسار، ثم إلى الأعلى والأسفل، وهي تستعيد لحظات مغادرة سوزانا للجزيرة بأبهى الثياب التي استطاعوا الحصول عليها، ملابس تفيض حيوية بألوانها الزاهية النقية كالزجاج؛ لم تفارقهم بكيانها الثمين فحسب، بل أخذت معها كل مدّخرات الجزيرة من النقود أيضاً، لكنه لم يكن مشهداً جميلاً للذكرى.

أطفأت إنغريد المصباح، وصعدت إلى الصالة ونامت، مثل نيللي، بعد أن فكّرت ثانيةً ببار بر و، كما فكّرت في أنها ينبغي أن تُصلح الساعة التي اشترتها من مارغوت في المركز التجاري، ساعة ببندول وأرقام رومانية وعقربين مزخرفين؛ لأنه حتى سكّان الجزر بحاجة إلى تقسيمات زمنية صامتة بين اليومين الفاصلين بين كلّ تعبئة للساعة(*).

(*) التعبئة لجعلها تعمل عن طريق تدوير المقبض أو المفتاح. [م]

- 4 -

بعد أن مضى وقتٌ طويل على وجود إنغريد في بارأوي، وتلاشى تفكيرها في تكتكة الساعة، علقتْ فقمة في شبكة الصيد. سحبت الشبكة إلى الشاطئ واكتشفت أن الفقمة ميتة. كانت فقمة صغيرة، ربما فرخ فقمة. فتركتها طعاماً للنسور. غير أن الفقمة تسبّبت بتلف كبير في جزء من شبكة الصيد، فاضطرّت أن تسحب تلك الوصلة معها إلى البيت لتصلحها، بعد بضع خطوات رأت فقمة أخرى ترقد في الثلج، وتكاد لا تستطيع أن تتنفّس. اقتربت إنغريد منها. نظرت إليها الفقمة بعين بيضاء وأخرى سوداء. لم تكن هذه المرّة الأولى التي ترى فيها فقمة على الجزيرة، لكن تلك الفقمات كانت جبانة، وتهرب إلى البحر عندما ترى البشر. تبدو هذه الفقمة مريضة وغير قادرة على الحركة، ولم تكن أكبر من تلك الميتة.

وضعت إنغريد الشبكة جانباً، تناولت حجراً من تحت الثلج وضربتها به على رأسها. في اللحظة ذاتها، طار نسران من هولمن يتسابقان إليها. أطلقت إنغريد ذراعها في الهواء وهشّتهما، فارتدّا إلى الوراء، ثم رفّا بجناحيهما عائدين إلى هولمن، حطّا هناك وبقيا يراقبانها. كان النسر الأول أبيض الرأس، والثاني أصغر منه قليلاً وبنّي الرأس.

فكّرت إنغريد في أن تسلخ الفقمة وتُشَفّي لحمها، لكنها لم تعرف كيف تفعل ذلك، وتذكّرت أن أباها قد حذّر سابقاً من أكل لحم الفقمة، بسبب احتمال وجود الدودة الوحيدة فيه.

قرّرت أن تتابع طريقها، لكنها عندما انحنت لترفع الشبكة عن الأرض، وقع نظرها على قطعة قماش خاكية اللون تحت الثلج، بدت لها مثل صوف اللبّاد الخشن. سحبت من تحت الثلج قميصاً ممزّقاً تساقط منه ما يشبه نثارة الخشب. وكان معلّقاً بالقميص بنطالٌ قصير، فقدَ نصف ساقٍ، وعليه الكثير من نثارة الخشب. لم ترَ من قبل مثل هذه الملابس. أخذتها معها، وعلّقتها على سقالة تجفيف السمك مثل أيّ قطعة غسيل، دخلت إلى سقيفة القارب، وعلّقت الشبكة بين الخطّافات، ثم بدأت تنتزع منها الحشائش وأعشاب البحر، لكنها قرّرت أن لديها ما يكفي من الشِّباك، فتركتها تجفّ ليصبح تنظيفها أسهل.

فكّرت في أن تضع شبكةً مكانها، لكنها غيّرت رأيها وقرّرت أن بوسعها أن تأكل السمك المملّح لبضعة أيام، وخرجت عائدة إلى البيت تحت ندف الثلج الخفيف. الآن، هناك رجل معلّق على سقالة التجفيف، وهو يحدّق إليها، رجل بساق واحدة. ووراءه بدأ النسران بتمزيق تلك الفقمة الوحيدة. وبدا الأمر كما لو أنّ الرجل ينظر إليهما أيضاً، لكن من المُحال أن تعرف كيف يراهما، فقد كان رجلاً بلا رأس.

دخلت إنغريد البيت، أعدّت طعامها وأكلت، ثم كشطت أرضية المطبخ، والشرفة والمدخل، ثم مسحت الدرج إلى العلّيّة، وهناك جلست تخيط الثقب في كنزتها، واكتشفت أنه لم يكن بسبب مسمار ناتئ من الدرج، بل نتيجة ضربة من سكّين تشفية السمك. في الصباح ستخبز

الخبز، واللوفسر، ولوفسر البطاطس، سيكون يوم الخبز، وستملأ البيت برائحة المنزل الحيّ، والعمل الشاقّ إلى حدّ الإعياء.

جلبت من المخزن كيس صوف، وجلست تنظّف الصوف وتمشّطه. كما جلبت دولاب الغزل إلى المطبخ، وأمضت بقية النهار مع إيقاع دولاب غزل الصوف. اختفت قطرات الماء المتكثّفة على الجدران، ورائحة التربة الرطبة. كما أنها توقّفت منذ فترة عن إشعال المدفأة في غرفة الجلوس. ذاك التقويم المتدلّي من مسمار باب غرفة المؤن، وساعة الحائط التي لم تعد بحاجة إليها، والقطة ستشتريها قريباً، وخيط الصوف المغزول يجري بين أصابعها التي اصطبغت باللالولين، لكنها كلّما نظرت عبر النافذة رأت ذلك الغريب المعلّق على السقالة ينظر إليها.

تساءلت ما إن كانت مضطرّة إلى الاعتياد على وجود الرجل على السقالة، كفزّاعة طيور، أو أن تُنزل تلك الثياب عن السقالة وترميها في البحر، تدفنها، أو تحرقها...

قبل أن يهبط المساء، لبست ثيابها وخرجت. تلمّست الثياب على السقالة فوجدتها متيبّسة بالجليد. وفي الثلج بقعتان داكنتان حيث كانت الفقمتان. غير أنها لم ترَ النسرَين، وإن كانت لا تزال تسمع أصواتهما بين أصوات الطيور الأخرى، وفجأةً لحقت بها غيومٌ من الضجيج الكوني إلى سقيفة القارب الجديدة، حيث وجدت أن خيوط الشبكة قد جفّت وبإمكانها أن تبدأ بتنظيفها. ولحقتها أصوات الطيور إلى البيت أيضاً، وبما أن الظلام قد لفَّ المكان كلّه، لم يعد الرجل على السقالة مرئيّاً.

- 5 -

العيش على جزيرة يعني النظر والبحث المستمر. وإنغريد تبحث منذ أن وُلدت، تبحث عن التوت، وبيوض الطيور، وريش العيدر، والأسماك، والأصداف، وكرات الزجاج، والحصى الإردوازية، والخراف، والأزهار، والألواح، والأغصان الصغيرة... فعيون سكّان الجزر في حالة بحث، بصرف النظر عمّا يشغل الرأس واليدين، النظرات القلقة إلى الجزر والبحر تتابع أدقّ المتغيّرات، وتسجّل أتفه العلامات، ترى الربيع قبل وصوله، والثلج قبل أن يكسو ببياضه حتى الحُفر والخنادق، حتى إنها ترى أمارات نفوق الحيوانات قبل حدوثه، وترى تعثّر الأطفال قبل أن يقع، وترى الأسماك غير المرئية في البحر تحت أسراب الأجنحة البيضاء، فالنظر هو نبض قلوب سكّان الجزر.

عندما خرجت إنغريد في هذا الصباح، وعرفت من الطقس أنها لن تستطيع أن تجدّف إلى البرّ الرئيس اليوم أيضاً، انتابها شعور ملحٌّ للبحث عن شيء لا يمكن العثور عليه، وهذا يشبه الشعور بالذنب قبل أن يقترفه المرء؛ ولم يكن هناك سوى الغيوم الوعرة ذاتها السابحة في السماء وهي تنثر رذاذها هنا وهناك فوق البحر المضطرب. وليس هناك من حَيٍّ يُرى.

سارت جنوباً على طول الشاطئ في الشرق ولم ترَ فقمةً ولا ثياباً، ونهشها القلق لدرجة احتاجت معها أن تتحدّث إلى نفسها بصوتٍ عالٍ، لأن الإنسان يحتاج في نهاية المطاف إلى سماع صوتٍ، حتى لو كان صوته، وهذا أمرٌ بدهيّ بالنسبة لسكّان الجزر، وهكذا بدأت إنغريد تقول لنفسها إنها يجب أن تحصل على تلك القطّة مهما كلّف الأمر، وهلعت من سماع هذا الصوت الغريب. وبقيت تكرّر تلك العبارة حتى ألفت الصوت والكلمات، عندئذٍ فقط استعادت هدوءها، لكن سرعان ما دهمها شعور بأنها قد تاهت في جزيرتها، أو أنها موجودة على جزيرة غير جزيرتها، أو الشعور الأسوأ: وهو أنها ليست وحدها في الجزيرة التي هي فيها.

كانت قد لاحظت السرعة التي مزّق بها النسران الفقمتين، كما لاحظت في الثلج آثار الدم، التي غطّاها الثلج الجديد وعاودت الظهور ثانية كتذكار باهت. أسرعت الخُطا، وتعثّرت بكومة من حشائش البحر، ورأت المزيد من الملابس، قمصان، خاكية ورطبة، محشوّة بنشارة الخشب التي تشبه حشوة الدمى، لكنها مهترئة بطرق مختلفة كأنها تنتمي لبشرٍ آخرين، بعادات وحيواتٍ مختلفة. نشرت الملابس على الثلج، ثلاث قطع كاملة وسترة صوفية وجاكيتاً، وحاولت أن ترتّبها معاً، كما ينبغي أن تكون، فحصلت على شخص كبير، واثنين أصغر منه قليلاً، إضافة إلى سترة صوفية، جذع شخص، وكانوا جميعهم رجالاً.

وضعت الثياب في حقيبة الشبك التي تحملها معها أينما ذهبت، وفكّرت في إحراقها في شمال الجزيرة. لكن الثياب كانت رطبة، ولم يكن بوسعها أن تدفنها في هذا الحقل المتجمّد، ولذلك علّقتها إلى جانب

الرجل المعلّق على سقالة تجفيف الأسماك، وقرّرت الذهاب في جولة ثانية حول الجزيرة كلّها.

في الخليج، حيث وجدت الملابس الأولى، رأت النسور ثانيةً، النسر ذا الرأس البنّي ونسراً آخر بنّي الرأس وأصغر منه قليلاً، كانا جاثمين على صخرة في البحر يرفرفان بجناحيهما، ينقر ويخدش أحدهما الآخر كما لو أنهما يتصارعان على فريسة.

لكن لا يوجد صخرة حيث يقفان، ففي ذلك القطاع لا يوجد إلا ماء البحر النظيف بعمق مئة قامة، ثم تحرّكت تلك الصخرة مع أمواج البحر.

ركضت إنغريد على اللسان البحري، أرادت أن تعود وتجلب المنظار، لكنها انزلقت على حجر وشاهدت صخرة أخرى، في مكان لا ينبغي أن توجد فيه، وكانت تلك الصخرة تتحرّك أيضاً، تختفي تحت الماء وتظهر ثانيةً مثل طوف خشبي، مثل ظهر حوتٍ. وفوق كلتا الصخرتين غيمتان كثيفتان من الطيور الغاضبة، تتشابك وتتباعد، تغوص وتنقر، وتتصارع في دوّامة من الريش والضوضاء، حتى اختفى كل شيء في عاصفة ثلجية عنيفة.

غطّت إنغريد عينيها براحتيها، وصرخت بصوتٍ عالٍ. شعرت بالغثيان ودوّى نبض قلبها في أذنيها، وخرّت على ركبتيها ثم على أربعٍ وقد انقطع نفَسُها، فقد أدركت أخيراً ما كانت تشاهده.

ضمّت الثلجَ إلى وجهها بقوّة، وانطلقت راكضةً باتجاه البيت، ومرّت بالمزيد من الملابس، بدلتان كاملتان، زوجٌ من السراويل دون جاكيت، ومعطف رمادي ممزّق... فسحبتها معها عبر المروج، وعلّقتها على السقالة، ثم دخلت إلى البيت وأشعلت كل المصابيح، ومنها مصباح غرفة الجلوس.

ألقمت المدفأة والموقد بالحطب، ووقفت وسط المطبخ بمعطفها الذي ينقط ماء، وهي تحدّق عبر النافذة إلى جنود بلا رؤوس، هناك على السقالة، والريح الصامتة تطيِّر ثيابهم، أحدهم بساق واحدة، وآخر بذراع واحدة، وجذع فقط، ومعطفان يرفرفان بفرح وأحدهما بذراع واحدة... عندئذٍ خطر لها أنها في الحقيقة قد جمعتها لسبب يتعلّق بالملكيّة الشخصيّة، بصرف النظر عن كونها ثياباً رثّة وعديمة القيمة، لكن ماذا عن نثارة الخشب؟

نزلت إنغريد إلى سقيفة القارب السويدية وبحثت عن المنظار، أسطوانة ثقيلة قابلة للتطويل عبر ما يشبه الجلد الأسود المصبوب، مع حلقات نحاسية، وعتلتين للتبئير، وتذكّرت بشكلٍ ضبابيّ أن والدها لم يستخدمه قطّ لأنه يشوّش الرؤيا، فقرّرت أنها لا تحتاجه أيضاً، خصوصاً أنها قد عرفت ما الذي شاهدته.

تركت المنظار من يدها كأنها تتخلّص من جمرة تحرق أصابعها، وراحت تُصلح الشبكتين الجافتين حتى بردت أصابعها، خرجت وهي تجرُّ الشبكتين وراءها فوق الثلج، ربطت حبل المرسى إلى عين الشبكة الأولى وراقبت عوّاماتها وهي تطفو فوق الماء، وربطت الثقّالات الزجاجية أيضاً، بحذر، كي لا ترتطم بالصخر وتنكسر، ثم ربطت الشبكة الثانية وسحبتهما وراءها، المسافة النظامية، خمس عشرة قامة عن اليابسة، وعندما رفعت بصرها عن الحبل والبحر ونظرت صوب موتهولمن، شاهدت الجثّة الأولى.

انفلت الحبل من بين يديها، فأسرعت تبحث عنه في الماء حتى وجدته، وخوّضت في الماء إلى الشاطئ وربطت الحبل، وضعت يديها

على ركبتيها ثم شدّت جذعها، وهي تحملق في المضيق وما تزال ترى ما قد رأته، وما رأته يوم أمس، والذي جعلها تنام مثلما تنام نيللي.

ضربت قفّازيها أحدهما بالآخر عندما رأت رجلاً ممدّداً، نصف جسده على اليابسة وقدماه تغتسلان في البحر، وكأنّ أحداً قد ربطه إلى مسمار المرسى.

لكن البحر في حالة جزر الآن، وسيبقى ممدّداً على اليابسة، حتى يأتي المدّ ويجرفه من جديد، وأسرابٌ من الخطاطيف الصارخة تنقضّ وتمزّق هذا الشكل البنّيّ.

عادت إنغريد إلى الشمال باتجاه سقيفة القارب، ولاحظت أنها لم تدخل إلى المخزن إلا مرّتين، مرّةً لتتفقّد ريش العيدر، والمرّة الثانية لتجلب الصوف؛ كما أنها قد رأت هناك أمراً لم تفهمه، ورغم أنها خرجت من البيت مرّاتٍ كثيرة، غير أنها لم تذهب إلى حديقة التوت وراء البيت، فهم لا يذهبون عادةً إلى هناك في الشتاء، فمن ذا الذي سيفكّر في أن يتجوّل حول بيتهم؟!

ركضت متجاوزةً سقالة التجفيف وعبرت المستنقع، تردّدت قبل أن تفتح باب الشرفة، دخلت البيت وتسمّرت في مكانها شاحبة، ثم راحت تركض من غرفة إلى أخرى، وهي لا تسمع سوى دويٍّ نبضها في أذنيها، تدخل، تقف قليلاً، ثم تركض خارجة، وعندما خرجت تستطلع حول البيت رأت آثاراً تحت الثلج الجديد، كأنّ شخصاً قد جرَّ كيساً ثقيلاً عبر الحديقة صعوداً إلى جسر الحظيرة.

صعدت، وتأكّدت أن باب الحظيرة موصدٌ من الداخل، فركضت حول البناء الجديد، ودخلت حظيرة الأبقار وتذكّرت أنها قد رأت أثر ماء على

الدرج واعتقدت أنه ماء رشح من السقف، تسلّقت الدرج إلى علّيّة التبن، ورأت في الضوء الخافت ساقين بارزتين من تحت جلد خروف قديم. أزاحت جلد الخروف جانباً ورأت رجلاً في منتصف العمر، أصلع الرأس، وشعيرات سوداء مزرقّة في وجهه الهزيل الأبيض الطباشيري. كان ميّتاً. غير أن شخصاً قد أغلق له عينيه وقاطع له يديه فوق صدره وكأنه في حالة صلاة.

دخلت العلّيّة، ورأت رجلاً آخر تحت كيسَي ريش العيدر وسرج حصان قديم. أزاحت تلك الأشياء عنه ورأت أنه يلبس الأسمال الخاكية ذاتها، المبطّنة بنثارة الخشب التي تنسكب من أكمامه ومن الثقوب في بدلته، وفوق الثياب هذه بزّة، بشاراتٍ وخطوط، زيٌّ ألماني موحّد. وكان أصلع الرأس، غائر الوجه لكن دون لحية، وكان شابّاً، ولا يزال على قيد الحياة.

- 6 -

ركعت إنغريد على ركبتيها وهزّته. لم يستجب. عبر شقٌّ في ساق سرواله رأت جرحاً عميقاً في أعلى فخذه الأيمن، وقد انتفخت حواف الجرح مثل شفاهٍ زرقاء وسميكة. ضغطت بأصابعها على حافتي الجرح، فرأت دماً حيّاً، وسمعت أنيناً عميقاً. بدا أن إحدى يديه قد احترقت بالنار رغم أن أصابعها سليمة تقريباً، بينما كانت اليد الأخرى سوداء وقد فقدت أظافرها. عصرت بضع نقاط ماءٍ من ثيابه وتذوّقتها، لم تكن مالحة الطعم، وهذا يعني، بالضرورة، وجود قاربٍ غريب على الجزيرة، وعلى الأرجح في الجهة الوحيدة التي لم تذهب إليها بعد، بالقرب من أطلال كارفيكا. إنها تخاف أطلال كارفيكا، ولطالما خافت منها.

سحبته إلى وضعية الجلوس، ثم قرفصت وراءه وطوّقت صدره بذراعيها، واندهشت من خفّة وزنه وهي تسحبه باتجاه باب الحظيرة، فتحت الباب وسحبته عبر الحديقة وأدخلته إلى المطبخ، وهناك ناورت حتى رفعته على المقعد وغطّته بالبطانيّات.

غرفت ماءً من الدلو، بالمغرفة، ثم رفعت رأسه وبلّلت شفتيه المتشقّقتين. تلوّى وأنَّ. وضعت وسادة تحت رأسه، ثم جلبت قمعاً

ووضعته فوق حنجرته وضغطت حتى حاول التقيّؤ، وفتح عينيه، وحاول أن يقاوم بيديه.

رفعت المغرفة أمام عينيه المسعورتين.

أومأ برأسه. شرب بضع قطرات من الماء، سعل ورفع يديه المحروقتين ليدرس حالتهما، وليريها ما حلَّ بهما، أو أنه كان يريهما للّه، بينما أخذت الدموع تنهمر من محجرَي عينيه السوداوين مثل تيّار ماءٍ أسود فوق وجهه الشاحب الهزيل، الذي لم يتبقَّ فيه ما يمكن أن يوقف جريانها، فبدا أنه لم يكن إنساناً من قبل ولن يكون أبداً.

أمسكت إنغريد بيده التي فقدت أظافرها، وجلست على هذه الحالة، تحدّق في الغرفة، شعرت بارتعاشة تضرّع في جسده، كأنه يهيّئ نفسه للموت. فبدأت تهزّ جسده رخو المفاصل وهي تصرخ: «كلّا، كلّا!»، ثم تناولت المغرفة وأجبرته على شرب المزيد من الماء. فتسبّبت بنوبات تقيّؤ متكرّرة، وحين هدأ بدا لها مثل رضيع يئنّ، غير أن رائحة القيء الكريهة التي عبقت في هواء المطبخ الدافئ كانت غير محتملة.

نهضت إنغريد، وذهبت إلى غرفة المؤن، ووقفت متيبّسة أمام رفوف المعلّبات ومرطبانات المربّيات، أخذت مرطبان مربّى الكشمش، أفرغته في كوب ثم سكبت فوقه ماءً دافئاً، أطلقت زفيراً طويلاً عبر فمها، وبدأت تسكب السائل الأحمر في فمه. سعل وبصق واضطرّ أن يبلع السائل كي لا يختنق به، ابتلع بضع جرعاتٍ بنهم، ثم تقيّأها، وبلع بضع ملاعق، كانت تعدّها باهتمام، ولم يتقيّأها، قبل أن يغيب عن الوعي.

وضعت إنغريد الكوب على الطاولة، جفّفت وجهها بكنزتها، وسمعت نشيجاً، إنه نشيجها هي، وقالت بصوتٍ عالٍ للجدران من حولها إنّ هذا

غير صحيح، ثم تأكّدت من أنه ما زال يتنفّس، وخرجت إلى الثلج المتطاير مع الهواء، وقفت هناك تحدّق في الظلام.

أرادت أن تتأكّد من أن لا مخرج من هذا.

نزلت إلى الرصيف الجديد، أخرجت القارب، وجدّفت حول اللسان الشمالي، وهناك كانت الريح في مواجهتها، فبقيت تجدّف محتميةً بالجرف الصخري لبارأوي، ثم جدّفت عبر الزبد الأبيض جنوباً حتى وصلت إلى حيث توجد وصلة الشِّباك، فاستقبلتها الريح بأصوات الطيور التي حملتها من مولتهولمن.

بجهدٍ خارقٍ عبرت المضيق، وقفزت إلى الشاطئ، وتركت القارب يتأرجح مع الأمواج ويرتطم بالصخر، ربطت حبل الإرساء حول معصمها، حملت مجدافاً وهشّت به الطيور الصاخبة الجاثمة فوق الرجل الميت. فرأت ثقباً أزرق مسوداً مكان الوجه، وبدا بطنه مثل بطن سمكة قدّ مفتوحةً حتى عموده الفقري، ولم يتبقَّ من يديه إلا سلاميات الأصابع، وساقاه مثل خشبتين متفحّمتين. أعادت المجداف إلى القارب، وبعد أن نجحت في رفعه عن وتد المرساة، أنزلته إلى الشاطئ فوق الأعشاب، وليس إلى القارب.

ربطت حبل الإرساء حول فخذه، وقفزت إلى القارب وسحبته وراءها تحت غيمة من الطيور المسعورة التي لم تتوقّف عن نهشه وهو تحت الماء. كانت الريح في ظهرها الآن، وهذا ما ساعدها على الوصول بسرعة. احتمت بالرصيف من الريح، حلّت حبل الإرساء عن قوس القارب، صعدت به إلى الرصيف وربطته إلى خطّاف الرافعة وبدأت ترفع الرجل من الماء؛ كان يتدلّى مثل رجل على مشنقة لكن رأساً على عقب.

جثم النسر ذو الرأس الأبيض مثل حيوان أليف بالقرب منها على الرصيف، طردته، فابتعد قليلاً، طردته ثانيةً، وصرخت ملء صوتها. أفلت ذراع الرافعة من يدها، أمسكت به ثانيةً وثبّتته في وضعيّته، ثم تناولت عصا طويلة ورمتها بقوّة على الطائر الشرس الذي تحرّك ببطء إلى اليمين. هرولت ثانية إلى الرافعة وأدارت الذراع رافعةً الرجل، الأمتار القليلة المتبقّية، إلى الرصيف، فتحت باب سقيفة القارب وسحبته إلى الداخل، واكتشفت أنه بساقٍ واحدة.

أغلقت باب السقيفة، وصرخت في وجه الطيور التي تجمّعت صارخةً فوق الرصيف والرافعة وسطح السقيفة، ثم نزلت إلى القارب وجدّفت به عائدة إلى داخل السقيفة، واكتشفت أنها تبكي، وأدركت أنها كانت تبكي منذ أن غادرت البيت.

جفّفت دموعها بكنزتها المبلّلة، وصعدت التلّة إلى البيت، دخلت إلى مطبخها الذي كان عابقاً برائحة كريهة تشبه رائحة أبخرة الشواء اللاذعة، ولاحظت أنّ كوب الكشمش فارغ.

خلعت كنزتها، كمّمت وجهها بوشاحٍ، أزاحت البطانيّات عنه، وبدأت بنزع ثيابه.

رأت تحت البزّة: الأسمال الخاكية ذاتها، نثارة الخشب، وكتلة رمادية لم تستطع تحديد نوعها، لكنها تشبه الورق المبلّل المتحلّل. التقطت عن جسمه كلّ شيء مثل الجلد الميت من حروق الشمس، قطع قماش، وجلداً، وسخاماً، وعفناً، ووضعتها في المدفأة، فكاد لهبها يخمد. وضعت المزيد من الحطب فيها، فازدادت حرارة المطبخ بينما راح هو يصرخ بصوتٍ لا يمتّ إلى صوت البشر بصلة.

اضطرّت أن تتقيّأ قبل أن تستطيع الاستمرار في العمل. كان ممدّداً أمامها عارياً، أسود، ورديّاً، أصفر وأخضر مُزرقّاً مثل خريطة متفحّمة للعالم، ملأت طاسةً بالماء الدافئ وبدأت تنظّف الأجزاء السليمة في جسده؛ أنَّ وضربها. اضطرّت أن تجلس عليه، ونزعت عنه شيئاً لم تستطع أن تحدّد ما إن كان سروالاً داخلياً أم جلداً ميتاً. غاب عن الوعي ثانيةً وارتخى جسده مثل جسد ميت، لكنه لا يزال يتنفّس.

عندما انتهت من عملها، وضعت بقايا أسماله في الموقد، وصعدت إلى الصالة الجنوبية. جلبت بساطاً ولحاف عيدٍ جديداً، وضعت البساط تحته، وغطّته بلحاف العيدر، وفتحت النافذة والأبواب، ووضعت كلّ ما لديها من أباريق ماء فوق الموقد، وألهبت ناره أكثر من أيّ وقت مضى، وتأكّدت من جديد أنه لم يكن ميتاً.

نزعت ثيابها وأحرقتها في الموقد أيضاً، ثم غسلت جسدها باهتياج، لبست ثياباً جافة، لكن الرائحة الحرّيفة المقزّزة بقيت هي ذاتها.

نزعت عنه لحاف العيدر، وبدأت تغسل جسده من جديد، وفركت جلده الرقيق الذي كان في بعض الأماكن أبيض ورقيقاً مثل بطن سمك القدّ، ثم جلبت بودرة التالك ومرهم حروق وإبرةً وخيطاً، عقّمت الإبرة فوق لهب شمعة وبدأت تخيط الجرح في فخذه. بدأ جسده الرخو ينتفض، لكن نبضه بقي طبيعياً، وبقي يئنُّ حتى انتهت من خياطة الجرح وضمّدته.

أغلقت النافذة، ودخلت إلى غرفة الجلوس، ونظرت إلى نفسها في المرآة فوق خزانة الأدراج، تلمّظت شفتيها المتيبّستين، اللتين لم تستطع التعرّف عليهما، ثم عادت وجلست تنقّل نظرها بينه وبين يديها المتورّمتين بسبب الماء والبرودة، لكنهما لا ترتجفان، وعندما فتحت عينيها ثانيةً،

كانت متكوّرة على نفسها على الأرض بجانب المدفأة التي بردت قليلاً في المطبخ المعتم، وفي الخارج صمتٌ وسكون.

انقلبت على ظهرها وراحت تنصت إلى صوت التنفّس المنتظم والهادئ على المقعد، وكان الظلام دامساً وراء زجاج النافذة.

نهضت وكأنها غريبة عن نفسها، نزعت عنه اللحاف ووقفت تنظر إليه، غطّته ثانيةً، أشعلت المدفأة ولبست ثيابها. خرجت لتجد القارب الذي يُفترض أنهما جاءا به إلى الجزيرة، ووجدته حيث توقّعت أن تجده، على تلك البقعة المنخفضة في كارفيكا، قارباً بيضاوياً أبيض ومتسخاً، مصنوعاً من ألواح خشبية وأنابيب معدنية، كان أقرب إلى طوف منه إلى قارب. من الممكن رؤيته من الجزيرة الرئيسة بواسطة منظار، على الأقل في النهار وفي الطقس الصافي. الوقت ظلام الآن، لكن النجوم ساطعة، لا تستطيع أن تحرقه، ولا تستطيع أيضاً أن تسحبه فوق الجرف بعيداً عن الأنظار.

جلست.

الطقس هادئ، ولا طيور الآن. نهضت واكتشفت مكان سدادات التصريف في خزانات القارب، نجحت في فتحها، جرَّت القارب إلى البحر ثانيةً وملأته بالحجارة، ثم دفعته بقدميها، ووقفت تشاهده يمتلئ بالماء ويغرق مثل شبح أبيض. والآن لم تعد ترى إلا سجّادةً من النجوم الشاحبة تنعكس في الماء، وهي لم تعد قادرة على تحريك أصابعها لأنها نسيت أن تلبس قفّازاتها.

عندما عادت إلى المنزل، نزعت ثيابها وفتّشت جسدها كلّه كأنها تبحث عن قمل، وفركت جلدها حتى احمرّ وتهيَّج، وحتى أصبحت بردانة

ودافئة، ثم دخلت إلى غرفة الجلوس وحدّقت في المرآة، وكان وجهها جافاً وجسمها رطباً.

جفّفت جسدها، ووضعت بطاطس وسمكاً في قدرٍ وسلقتها كثيراً، ثم هرستها مع عصيدة وكبد سمك، وجلست تطعمه.

كان نائماً.

وضعت يدها على جرحه.

فتح جفنيه اللذين بلا جلد، ونظر إليها ببؤبؤين مثل قنديلين في بحر أسود. أرته الملعقة، فأومأ برأسه وفتح فمه، أخذ الملعقة الأولى وبلع الطعام. فألقمته الثانية، والثالثة، ثم أشربته الكشمش الدافئ فسعل وشربه. أكل المزيد ثم غاب عن الوعي وفمه نصف مليء. جفّفت له ذقنه، ثم وضعت يدها على جبينه، ثم على عنقه، لتتأكّد من درجة حرارته ونبضه، وتركتها هناك طويلاً بما يشبه المداعبة قبل أن تسحبها وتحدّق فيها وتعود لتربّت بها على خدّه مرّتين، لأنه كان من المستحيل ألّا تفعل ذلك. بعدئذٍ أكلت ما تبقّى من الطعام وصعدت إلى غرفتها ونامت بكامل ثيابها.

- 7 -

أحسّت إنغريد بالماء. كان يجري إلى داخل أذنيها، ويملأ أفكارها - بكلمات. شعرت بثقل لحاف العيدر وبحرارة جسدها. ما عادت يداها تؤلمانها، وما عادتا حمراوين، لكن حلقها جاف، هي لم تقل شيئاً، غير أن سيل الكلمات الأجنبية، الذي يصلها من المطبخ عبر الفتحة في أرضية الغرفة، لم يتوقّف.

نهضت، لبست حذاءَيها الصوفيّين، ونزلت، لكنها لم تدخل المطبخ، بل لبست سترتها الصوفية وخرجت لجلب المزيد من الحطب. السماء رمادية، والثلج يهطل خفيفاً وساكناً، لم ترَ في البحر أيّ قارب، لكن أصوات الطيور هي ذاتها، والصراخ أيضاً، وهذه تأتيها من داخلها.

دخلت إلى المطبخ، فعرفت من الرائحة أنّ عليها أن تغسل جسده مرّةً أخرى. استغرقت بعض الوقت لإشعال الموقد، بينما راح هو يحدّق فيها عبر غلالة الحمّى في عينيه، ويعيد كلماته الأجنبية بصوتٍ أعمق من أن يكون صوت شابّ، لكنه صوتٌ بشريّ على كلّ حال.

عندما تجرّأت أخيراً على النظر إليه مباشرة، رفع لها يده التي فقدت أظافرها وخبّأ اليد الأخرى. جلست وأمسكت بيده حتى أطبقت جفونه

ثانية. عندئذٍ حمّمته كما ينبغي أن تحمّم إنساناً، واستغرق ذلك وقتاً. بكت، وأكلت، وانتظرت، غير أنّ الصمت في الخارج كان ثقيلاً وهطْلُ الثلج يزداد كثافة، وهو يغطّ في نومٍ عميق.

عندما لم يعد بالإمكان تأجيل الأمر، لفّت على وجهها ثلاثة أوشحة وخرجت، أخذت سكّيناً وأحد أشرعة والدها القديمة، ولحقت الأصوات إلى جنوب الجزيرة. وجدت الجثّة الأولى بالقرب من جذع الشجرة الروسية، لم يبقَ منها أكثر مما تبقى من الجثّة التي وجدتها على مولتهولمن. هشَّت الطيور عنها، قطعت قطعةً من الشراع، غطّت الجثّة ووضعت حجارة على جوانبها، وتساءلت ماذا ستفعل إذا وجدت جثّة امرأة.

وجدت الجثّة الثانية على اللسان، من حيث رأت الصخور تتحرّك، غطّتها بقطعة من الشراع أيضاً. ووجدت الثالثة بالقرب من المربط الذي استخدمته لتثبيت وصلة الشِّباك. غطّتها أيضاً بقطعة من الشراع وبعض الحجارة، ومشت متجاوزةً وصلة الشِّباك دون أن تنظر في البحر. ووجدت الرابعة أمام سقيفة القارب السويدية. لقد قرأت إنغريد في أيام المدرسة عن نشاطات البعثات التبشيرية، وحلمت في أن تشارك في إنقاذ الأحياء، لكنها الآن تنقذ الأموات، قشوراً أفرغتها الديدان والطيور. تساءلت ما الذي جعلهم يطفون فوق الماء، وفكّرت أنهم ضحايا تحطّم سفينة، أو كارثة وقعت في ذلك اليوم الذي كانت تقف فيه في غرفة جدّها، ودوَّى في أذنيها ذلك الصوت، الذي لم تسمع مثله من قبل، وأثار فيها قلقاً عجيباً لأنها ما تزال لا تعرف ما الذي يعنيه ذلك الصوت.

ذهبت إلى السقيفة وأخرجت القارب، جمعت تلك البقايا البشرية في كيس من الشبك وقطرتها إلى الرصيف، رفعت الكيس بالرافعة وسط

إعصار من الطيور وسحبتها إلى السقيفة، غطّتها بكيس خيشٍ قديم، وتساءلت ما الذي سيحصل إذا بقي الطقس لطيفاً لمدةٍ طويلة، وتساءلت أيضاً ما الذي ستفعله إذا وجدت جثّة امرأة؟

عادت إلى البيت، وتجنّبت الدخول إلى المطبخ، جلبت بندقية والدها القديمة، وأخذت بساطاً قديماً عن سرير جدّها، انبطحت فوقه أمام البيت وسدّدت إلى السطح الإردوازي لسقيفة القارب، الذي تحوّل إلى اللون الأسود بسبب تجمّع الطيور، وبدأت تطلق الرصاص الواحدة تلو الأخرى، ألقمت البندقية ثانيةً وسدّدت على النسر الكبير ذي الرأس الأبيض، الجاثم على إحدى حواف السطح. فعَلا جَناحٌ أسودُ واختفى في الهواء، وطار سرب نوارس، وغربان، حوَّم عالياً في السماء الرمادية، ثم دار عائداً وحطَّ على السطح ثانية. ألقمت البندقية مرة أخرى وأطلقت النار. علا في السماء جناحٌ آخر، جناح نسر صغير، وغرابان، ونورس أسود. لاحظت أنّ الريح تهبّ من الغرب، وهذا يعني أنّ صوت إطلاق النار يمكن أن يُسمع بوضوح في البرّ الرئيس، وقد أصابت الآن اثنين من أحجار السطح الإردوازية، استمرّت في إطلاق الرصاص، وعندما نفدت ذخيرتها نهضت ونفضت الثلج عن البساط.

عندما دخلت المطبخ رأته يقف عارياً فوق ساقيه الهزيلتين، المرتجفتين، مستنداً إلى طاولة المطبخ بيده التي فقدت أظافرها، وقد أخفى اليد المحترقة وراء ظهره كما لو أنها وصمة عار، وكان يحدّق إليها مرعوباً.

أرته البندقية، ووضعتها في ركن المطبخ، وانتبهت إلى أنها ما زالت ملثّمة بأوشحتها الثلاثة، فنزعتها عن وجهها، وطلبت منه أن يجلس ويريها يده المحروقة.

بدا أنه لم يفهم ما قالت.

أجلسته على المقعد وأمسكت بيده، التي لم تكن يداً بقدر ما كانت قدماً سوداء بخمس أصابع دون أظافر. أزالت بقايا الجلد المتفحّمة بقطعة قماش، ثم رمتها في الموقد. جلبت شاشاً ومرهماً، وضمّدتها، بينما راح هو يبكي بصمت ويحدّق إلى النافذة.

قالت إنها إن لم تكن مخطئة فسوف تكون الريح شرقية، وهذه تساعدها على الإبحار إلى البر الرئيس لتعرف ما حدث، وتحصل على مساعدة... أعاد كلمته الغريبة، التي وقعت في أذنها مثل صدى من الصباح، وشعرت الآن أنها تشبه كلمة «ماما».

نظرت في عينيه، وأشارت إلى صدرها وقالت: «إنغريد». هزَّ رأسه ونظر إلى يده المضمّدة. انتظرت إنغريد حتى نظر إليها ثانية، وأشارت إليه وسألته عن اسمه. رفع الضمادة البيضاء إلى صدره وقال: «ألكسندر». هزّت إنغريد رأسها وقالت: «ألكسندر»، ثم ابتسمت وقالت: «إنغريد»، «إنغريد وألكسندر»، كأنها تؤسّس لحقيقة لا جدال فيها بعد الآن، ثم نهضت وحلّت بعضاً من مربّى الكشمش في ماء دافئ، ووضعت الكأس أمامه، وجلست تتفرّج عليه وهو يوازن الكأس بين معصميه ويشرب، ثم يجفّف فمه بضماد يده، ثم قال: «إنغريد»، مرة أخرى، بمنتهى الجدّية وألحقها بتلك الكلمة التي اعتقدت أنها تعني «ماما».

قالت إنغريد: «ألكسندر».

وقالت إن كلتا يديه ستشفيان، وإنه سيكون قادراً على استعمالهما، على أيّ حال.

حدّق في الفراغ، وهو غير قادر على فهم ما تقول.

كرّرت ما قالته. فهزّ رأسه ونظر إلى زجاج النافذة الذي بدا مثل طبقة رقيقة من الجليد. طهت السمك والبطاطس وأطعمته حتى أشار لها أنه لم يعد قادراً على أكل المزيد. أكلت ما تبقّى من الطعام، ثم وضعت طاحونة القهوة بين ركبتيها، وشاهدت لأول مرة ابتسامة خفيفة على وجهه الجميل، ربما استحثّتها رائحة القهوة الذكية التي عبقت في هواء المطبخ وصوت المطحنة؛ ولأول مرة في حياتها شاهدت إنغريد أسناناً بذلك البياض، وفكّرت في بدلته الرسمية التي كان يرتديها فوق أسماله. وشرعت تسأله أسئلة متلاحقة، لم يفهم أيّاً منها.

ألحّت بأسئلتها لجعله يقول شيئاً ما، فبرطم بضع كلمات، ولم تكن باللغة الألمانية. سألته عن جنسيّته، وعمره. وسمعت كلمات جديدة في إجاباته، وتكرّرت الكلمات ذاتها، فقرّرت أن ما قاله لا بدّ أن يعني: إنه لم يفهم ما قالته.

قد تكون هناك أسبابٌ كثيرة وراء ارتدائه الزيّ الرسمي الألماني. لكن ما هي؟

نهضت إنغريد، ووضعت البنّ في غلّاية القهوة، وانتظرت حتى فوّرت القهوة مثل فقاعات الغاز في مستنقع أسود، وطفحت فوق حواف الغلّاية. رفعت الغلّاية وضربتها مرّتين على حافة الموقد، ثم سكبت القهوة في فنجانين. لم تعطِه فنجانه. شربت رشفة من فنجانها، وهي تنظر في عينيه مباشرة، وسألته ما إن كان يريد أن يشرب قهوة، وسمعت إجابته: «دا، سباسيبا!».

أمسكت فنجان قهوته، وسألته ثانيةً ما إن كان يريد أن يشربها، فبدا عليه التوتّر والإرهاق، تلفّت يميناً ويساراً وهو يكرّر إجابته ذات الكلمتين، وأضاف بضع كلمات لم تبدُ لها ألمانية أيضاً.

وضعت فنجان قهوته على الطاولة.

مدَّ يده المضمّدة إلى الطاولة، فأوقع فنجان القهوة. اعتذرت منه، جفّفت القهوة عن الطاولة وملأت له الفنجان ثانية، وجلست وراءه على المقعد بحيث اضطرّ أن يستند إلى صدرها، وشرّبته القهوة بيدها. أدار رأسه ونظر إليها بدهشة، وشرب المزيد من القهوة بينما كانت هي تشعر بثقل الرجل على جسدها، دون أن تشمّ أدنى أثرٍ للرائحة الكريهة السابقة. وبقيا جالسين على هذه الحال يستمعان إلى صوت تنفّسهما المتقطّع، كأنها لم تكن امرأة قبل الآن، واستطاعت للمرّة الأولى أن تسمح لنفسها بالامتلاء بيقين غامر بأنّ جزيرةً مختلفة قد وُلِدَت الآن.

- 8 -

مكتبة
t.me/soramnqraa

هبّت ريحٌ شرقية، وصفا الجوّ. لكن إنغريد لم تذهب إلى البرّ الرئيس. خرجت في جولة حول الجزيرة ومعها السكّين وأحد أشرعة والدها القديمة. لحقت أسراب الطيور ووجدت العديد من الصُّرر مجهولة الأسماء، كتلاً لزجة، مشوّهة، كانت ذات يوم تضجّ فرحاً وحزناً، في محاجر العيون رأت حمأة كوبالتية زرقاء بحجم قبضة اليد، عجيناً إسفنجياً بلون الخميرة، وعظاماً مخضرّة بسبب ماء البحر المالح، لحماً متعفّناً، طحالب، وأسماكاً تشبه الإنقليس.

غطّتها وثبّتت حواف الأغطية بالأحجار، ثم مشت المسافة الطويلة إلى الشمال. جلبت القارب وقطرت الجثث إلى الرصيف الجديد، ورفعتها بالرافعة دون أن تفكّر فيما إن خلّصت الجزيرة من حيوانات البحر أم إنها أدّت واجبها تجاه الأموات.

كانت البندقية معها، ثبّتت مجاديف القارب في وضعية التوازن، وأطلقت النار، انفجرت أسراب الطيور وارتفعت مثل فطر في السماء، قبل أن تهوي ثانيةً وتغطّيها هي والقارب بكتلة مصمتة من الأجنحة والأصوات - والآن لا بدّ أن الريح ستحمل أصوات إطلاق النار عبر البحر.

عادت إلى البيت، خلعت ملابسها وأحرقتها في الموقد، واستحمّت دونما خجل أمام عينيه السوداوين النهمتين، اللتين وجدت نفسها يوم أمس، أو ربما أول أمس، منجذبةً إليهما كما لم تنجذب إلى غيرهما، والآن تدرك أنها لن تشبع منهما أبداً، وهما اللتان مدّتاها بالقوة، فهي لم تكن قوية قطّ كما هي الآن.

أعدّت طعاماً وأكلاه. جلست على كرسيّ، وهي مشتاقة للمقعد وجسده. أعدّت قهوة وشرباها بصمت. ثم نهضت وصعدت إلى العلّيّة وجلبت بعض الملابس، ملابس والدها القديمة، وبدأت تجرّبها عليه وأصابعها تلامس جسده. بدا لها مثل شابّ صغير في رحلة صيده الأولى، صيّاد، بحّار، وفلّاح مبتدئ.

ضحكا، أشار إلى صدره وقال ألكسندر، ثم أشار إليها وقال إنغريد، لم يملّ من هاتين الكلمتين، ولا هي ملّتهما أيضاً. جرّدته من ملابسه ثانيةً، وقلّمت أظافر قدميه. أمسكت بقدميه الرخاميّتين السليمتين البيضاوين وحمّمته، على مهلٍ، بينما كان كلٌّ منهما يتحدّث لغته وفهما كلّ الكلام.

قبل حلول الظلام، خرجت في جولة جديدة ومعها البندقية، والسكّين، وشراعاً قديماً. وجدت بعض الجثث. ثم عادت إلى البيت، خلعت ملابسها وأحرقتها، ووقفت أمامه عارية وفركت جسدها إنشاً إنشاً. غسلت شعرها، وجسدها من جديد بمياهٍ درجات حرارتها مختلفة، ثم مشّطت شعرها وضفرته، وهو ينظر إليها صامتاً. بعد أن تناولا الطعام، طلبت منه أن ينهض ويمشي، إن كان قادراً على المشي.

نهض ومشى مترنّحاً إلى النافذة، ومن هناك إلى غرفة المؤونة، ثم استدار وعلى وجهه تكشيرة، مزيج من الألم والضحك الصامت، ونظر

إلى قدميه الحافيّتين. مشى إلى مدخل الباب، وعاد إلى النافذة وحدّق إلى انعكاس صورته فيها. عاد إلى الوراء فجأة، ثم استدار ونظر إليها يائساً حتى نهضت، أمسكت بيده المُضمّدة ومشت به إلى المدخل، ثم صعدت الدرج إلى الصالة الشمالية ونامت معه بقيّة العمر.

- 9 -

أعدّت إنغريد مخبأً، بدا مثل عشّ طيور العيدر، في خزانة وراء باب يبدو جزءاً طبيعياً من جدار الصالة الشمالية. وبما أنه أصبح الآن قادراً على السير بثبات، أخذته معها بجولة في الظلام، انتظرته حتى انتهى من قضاء حاجته، واستمعت إليه يتحدّث عبر الباب المفتوح. مشيا إلى الجنوب عبر الحدائق صامتين، لكنها سمعته يبكي. أشارت إلى السماء وإلى أضواء الشمال، إلى شلّالات قوس قزح غير المألوفة في هذا الوقت غير المناسب من الفصل. تلت على مسامعه أسماء الجبال شديدة السواد على البرّ الرئيس، وعلّمته كلمات مثل: ماء، ريح، ثلج، وعشب -رغم أنه لم يكن هناك عشب، فقط أعشاب البحر- قارب، سمك، وقطّة...

ذات مساء، أخذته إلى القبو، ورفعت غطاء الحصان عن الجثّة هناك، وسألته عن اسمه، وكانت تغطّيه بالبزّة الرسمية.

لم ينظر إلى كتلة المومياء تلك، لكنه تمتم «ألكسندر» مرتين. نظرت إليه بذهول.

فقال: «ساشا».

حملت البزّة وسألته ما إن كانا صديقين وبالاسم نفسه؟ هزّ رأسه بقوّة

واهتزّ كما لو أنه يشير إلى البرد، وشعرت أنه قد سرق البزّة لاتقاء البرد، وأدركت في الوقت ذاته أن النشارة تقي من البرد أيضاً، وهذا يوحي بأنه سلافيّ. فسألته ما إن كان روسياً، فقال: «دا»، لكن فقط بعد أن كرّرت السؤال ثلاث مرات. وسألته ما إن كان جندياً، فأجابها بنعم وكلّا، لم تشعر من قبلُ قطّ أنها أجمل مما هي الآن، وتوقّفت عن طرح الأسئلة عليه.

أخذته معها في كوثل(*) القارب حيث جلس مذعوراً مثل سلطعون برّي، بينما راحت هي تجدّف عبر المضيق بين بارأوي ومولتهولمن، وحلّا حبلَي المرساة عن جانبي القارب. قطرا الشِّباك وراءهما في الماء الفضّي، رفعاها إلى الرصيف وجرّاها إلى السقيفة دون أن يريا ما يفعلان. لكن على الأقل لا يوجد طيور الآن. وحاولت إنغريد أن تواسيه.

عادا إلى البيت. جرّد كلٌّ منهما الآخر من الملابس، استحمّا معاً وبالتبادل، ثم صعدا إلى الصالة الشمالية وناما مثل زوج وزوجة. لم تفكّر إنغريد قطّ في طفولتها، في والديها، باربرو، سوزانا، لارس، ولا في أيّ شيء تفتقده، ولا في كلّ الأشياء التي كانت، هي نفسها، قد أفسدتها ودمّرتها، شعرت كما لو أنها لا تفتقد أيّ شيء على الإطلاق.

قالت وهي تحدّق إلى دعامات السقف، إنها ستجدّف غداً إلى البرّ الرئيس وتشتري بعض الطعام، وتحصل على قطّة، وتحاول أن تعرف ما الذي قد حصل.

شعرت من حركة ذراعه أنه يهزّ رأسه.

(*) تسمية تُطلق على الفراغ بين سطح مقدّمة القارب ومؤخّرته وأرضيّته، وتستعملان كمخزنين للعدّة وكل ما يحتاجه الصياد. [م]

سألته ما إن فهم ما قالته، وقرّرت أنه قد فهم.

قالت: «قطة»، وماءت مثل قطة. فقال: «ساشا»، وشعرت بابتسامته برؤوس أصابعها. أمرته أن يبقى في المخبأ الذي أعدّته له وألّا يخرج منه في أيّ حال، حتى لو سمع صراخاً أو إطلاق نار، وما عليه إلا أن يبقى في مخبئه كالميت من وقت مغادرتها حتى عودتها، وهذا قد يستغرق بضع ساعات وربما نصف نهار. فقال: شكراً، و«قطة»، و«مخبأ».

ظنّت إنغريد أنها على أتمّ الاستعداد عندما رفعت الشراع وانطلق القارب إلى البرّ الرئيس وسط هبّات ثلج كثيفة، وهي تأمل في أن تحرّر بارأوي من بقايا الجثث والشُّبهات، أمل لا يمكن أن يحقّقه إلا سلطة الاحتلال، إذا عرفت أن تلعب أوراقها بشكلٍ صحيح.

ربطت قاربها، كالعادة، على الرصيف تحت المتجر الرئيس، وصعدت إلى القرية، ولاحظت ليس فقط هدوءاً غير مألوف، بل إنّ أشياء أساسية في القرية قد أُزيلت بالقوّة، والحرّاس، والعربات، والأحصنة، وخواء تسبّب به شيء لم تكن قادرة على معرفته.

في المتجر، سمعت من مارغوت أنّ البريطانيين قد أغرقوا سفينة نقل ألمانية على بعد عدّة أميال في الجنوب، وكان الضحايا بالمئات، وربما بالآلاف.

«ماذا؟» قالت إنغريد.

أكّدت لها مارغوت أن هذا ما سمعته من ابنها، الذي يوصل المؤن إلى مركز القيادة الألماني، في الحصن شمال الجزيرة.

«هل كانت تحمل جنوداً؟» سألت إنغريد.

«هذا ما يقولونه».

«جنود ألمان؟».

قالت مارغوت: «نعم»، وتغيّرت تعابيرها، ثم نظرت إلى وجه إنغريد بفضول أفقدها السيطرة على أفكارها؛ فسألتها ما إن كانوا قد أخلوا المعسكر وراء المدرسة. قالت مارغوت إنّ أغلبيتهم انتقلوا إلى الحصن حيث توجد محطة الاتصال، ومعسكر الاعتقال، والمدفعية، غير أن القائد الألماني موجود في المعسكر اليوم.

رمشت إنغريد وتلفّتت حولها، ثم سألتها ما إن كانت جيني وهانّا ما زال لديهما قطط.

قالت مارغوت إنهما ربما لا تملكان سوى القطط.

لقد عملت إنغريد مع الأم وابنتها، منذ أن كانت فتاة صغيرة، في تمليح سمك الرنجة، وهما تعيشان في كوخ رمادي شمال معمل تعليب السمك.

عندما خرجت من المتجر، تغيّرت مهمّتها المتعثّرة، وقبل أن تبدأ بصعود الطريق إلى المعسكر وراء المدرسة، أوقفها حارس بالزيّ الرسمي. قالت له إنها ينبغي أن تقابل قائد المعسكر. تلفّت وتلوّى وقال بلغة نرويجية مكسّرة إن ذلك غير ممكن.

قالت إنغريد: «توتي توتي»، وفرقعت بأصابع يديها مرّتين. أشعل سيجارة واقترب منها، وعبّر ببعض الإيماءات الغاضبة، وطرح عليها سيلاً من الأسئلة التي لم تفهم منها شيئاً.

كرّرت إنغريد توتي توتي وهي تفرقع أصابع يديها.

تنهّد وحدّق إلى بعض الثكنات في الطرف الآخر من الأرض المفتوحة وقال: «اتبعيني!». أدخلها إلى مكتب حرارتُه عالية لدرجة أنها كادت

تختنق. وراء طاولة مهيبة يجلس ملازم متوسط العمر، أصلع، بشاربين أشقرين، وندبة وردية في وجهه، وعينين ساذجتين؛ وكان على وشك أن يغرس ملعقة كبيرة في بيضة دجاج مسلوقة، بينما هو يتحدّث على الهاتف بانفعال.

نظر إليها وأومأ بغضب إلى كرسي. جلست إنغريد على الكرسي وهي تحدّق مذهولة في الملعقة في قبضة يده المشعرة، التي بدت لها مثل طوّافة، بينما الملازم مستمرّ في التحدّث على الهاتف، واغتنم الحارس الفرصة لينسلَّ خارجاً من المكتب.

وضع الملازم سماعة الهاتف، ونقل الملعقة إلى اليد الأخرى. أعادت إنغريد كلمتيها: «توتي، توتي»، وحركة أصابعها أيضاً، وقالت له أين تعيش وأنها تحتاج إلى مساعدة. بدا أنه فهم ما قالته، هزّ رأسه كمن يريد أن يتخلّص من فكرة مزعجة وقال لها بالألمانية: «نعم، لقد حلّت بنا كارثة، كارثة كبيرة، والجثث في كل مكان على الجزر».

أحسّت إنغريد من جديد أنها تبحث عن شيء لا وجود له، وشعرت بقشعريرة تجتاح جسدها، فطلبت من الملازم أن يأذن لها بالمغادرة. فحملق إليها وقال بالألمانية: «بالطبع، يمكن أن تغادري، فأنا ما دعوتكِ».

خرجت إلى الجوّ البارد، ومشت الطريق نزولاً إلى القارب، لكن عندما وصلت إلى معمل تعليب الأسماك، انعطفت شمالاً ودخلت مطبخ جيني وهانّا الرمادي الباهت والدافئ. بعد التحية والسلام، قالت إنها سمعت أن لديهما قططاً صغيرة.

«بالتأكيد» -قالت هانّا- «على رِسلكِ! هوّني عليكِ! لماذا تبدين مضطربة؟!».

ضحكت إنغريد ضحكة قصيرة وسألتها كيف تبدو لها؛ وذكّرت نفسها أنها لا تستطيع أن تقول لهما أيّ شيء، فهما غير أهلٍ للثقة، فقد تعاملت معهما، منذ عرفتهما أول مرة، كأنهما غريبتان على الجزيرة. نظرت هانّا إلى حياكتها وسألتها ما إن كانت وحيدة الآن في بارأوي. فأكّدت لها إنغريد أنها وحيدة، وأنها لهذا السبب تحتاج إلى قطة.

سألتها ما إن كانت تريد البقاء عندهما لبعض الوقت ريثما تعود باربرو؟

ثم نظرت في عينيها مباشرة.

قالت إنغريد إنها ليست متأكّدة من عودة باربرو إلى بارأوي.

بدت الريبة واضحة على وجه هانّا. لكنها صاحت باتجاه غرفة جانبية.

سمعتا صوت جيني وفرقعة أبواب. من الواضح أنهما قد نظّفتا المنزل حديثاً، وكان تصريف المدخنة غير جيّد، وهسيس النار تحت قدر الغسيل يملأ المكان. قالت هانّا إنهما احتفظتا بفرخ القطة هذا بسبب ظهرها الذي يشبه رقعة الشطرنج. وسألتها ما إن كانت جائعة؟

قالت إنغريد إنها لا تأكل طعام الناس هذه الأيام.

جاءت جيني بالقطة وقد وضعتها في سلّة، وغطّت السلّة بقطعة من شبكة صيد بحيث تستطيع القطة أن تُخرج منها مخلبها. أخذت إنغريد السلّة بيدها وسألتهما عن اسم القطة.

«سمِّها ما شئت!»، قالت جيني، قبل أن تتفرّس في وجهها، وتسألها ما إن كانت راغبة في البقاء عندهما بضعة أيام؟

ابتسمت إنغريد وشكرتهما، ثم غادرت مسرعة إلى المركز التجاري وكأنه مازال هناك أمل بعد في أن تجد شخصاً تتحدّث إليه، وهي على أيّ حال بحاجة إلى شراء بعض الاحتياجات، ثم تذكّرت أنها بحاجة إلى

إصلاح الساعة، خصوصاً إذا قبلت مارغوت أن تأخذ منها قسائم التموين بدلاً من النقود، في هذا الوقت!

سألتها مارغوت باستغراب ما الذي ستفعله بقسائم التموين هذه الأيام!

«خذيها فحسب، وإلا ماذا سأفعل بها أنا؟!».

دخلت مارغوت إلى مستودع المتجر وعادت بالساعة وقد لفّتها بقطعة خيش، ولفّت البندول بمنشفة ووضعتهما في الصندوق مع المشتريات الأخرى. خرجت إنغريد من المتجر بارتياح ذي وجهين -أشبه ما يكون بالغثيان- ونزلت إلى الرصيف، صعدت إلى القارب ووضعت سلّة القطة، مثل تاج، في كوثل الدفّة بين ثقّالات الشِّباك، بحيث تبقى تحت بصرها طيلة الرحلة إلى البيت.

الريح ما تزال جنوبية غربية، واضطرّت إنغريد إلى التجديف، في البدء بشكل زاوي مع الأمواج، ثم في مواجهتها مباشرة؛ ولم يكن البحر قطّ أكبر، ولم يكن النهار قطّ أقصر. جدّفت بسرعة، استبدّ بها القلق وتعرّقت، فجدّفت أسرع ولطمت الأمواج قاربها. بالقرب من أوترهولمن، اضطرّت أن تنزح الماء من القارب، وجرفها التيار شمالاً. اضطرّت إلى التجديف بسرعة من جديد، وراحت القطة تصرخ تحت رذاذ البحر، ولم ترَ إنغريد الرصيف في بارأوي إلا بعد أن أبحرت عبر الأمواج التي بدأت تصبح أصغر فأصغر كلّما اقتربت من الجزيرة، وعندئذٍ كان الظلام قد لفَّ كلّ شيء.

حملت السلّة وصعدت راكضة، أضاءت المصباح في المطبخ وغرفة الجلوس، وأشعلت الموقد قبل أن تصعد إلى الصالة الشمالية، أخذت نفساً عميقاً قبل أن تفتح باب الخزانة وهي تحمل القطة أمام وجهها مثل درعٍ.

سقط مثل كيس خيش عندما دهمه الضوء. بقيت إنغريد واقفة وصامتة. تلمَّسَ القطة وقال: «كوشكا»، وابتسم، ثم فرك أنفه على فرائها.

سألته إنغريد ما إن كان ألمانياً...؟

لم يفهم كلامها.

صاحت بانفعال إن سفينة نقل ألمانية قد تعرّضت للقصف، ولاحظت أنه قد نزع الضمادة عن يده، ولا بدّ من أنه قد مزّقها بأسنانه، كان جلدها يتعافى وأظافرها مثل أصداف وردية صغيرة.

صاحت بكلمات هي نفسها لم تفهمها، ثم نزلت وخرجت إلى الرصيف، أدخلت القارب إلى السقيفة، حملت صندوق المشتريات، جلست في المطبخ تحيك شبكة صغيرة بيدين مرتجفتين، وعلّقتها بفتحة السقف. بدأت القطة تتسلّقها، فعلق أحد مخالبها، نزلت ثانيةً وجلست تموء وتضرب بمخالبها، بينما وقف ألكسندر ينظر إليها بابتسامة استفسار - هل كان اسمه ألكسندر؟

صعدت إلى الصالة وأنزلت الشبكة، تعلّقت بها القطة ثانية، فرفعتها إنغريد، دارت بها في الصالة الشمالية، ثم حملتها ونزلت بها إلى المطبخ ثانية، ثم صعدت بها من جديد وكرّرت العملية مراراً، وصفّق لها ألكسندر تعبيراً عن تقديره لما فعلته، وفهمت القطة عندئذٍ أنها قد حصلت على سُلَّمٍ.

قالت إنغريد إنها ستسمّيها كوشكا.

صحّح لها اللفظ، كرّرت الكلمة مرّتين، وعندما ضبطت لفظها، قال لها: «صحيح، صحيح».

لكنّ إنغريد لم تبتسم.

سألته ما إن كان ألمانياً أم روسياً.

لفَّها بذراعيه، فتراءت لها تلك البيضة الصغيرة جداً والملعقة الكبيرة، فبدأت تصرخ وتضربه بقبضتيها. قلَبها على المقعد وجلس فوقها، وتحدّث بلغة لا تمتّ للألمانية بصلة. وراح يغني، أغنية أطفال، لم تكن بالألمانية أيضاً، ثم تمدّد بقربها وبدأ ينفخ أنفاسه في أذنها حتى تناغمت أنفاسهما، ولم ينطق أيٌّ منهما بكلمة.مكتبة سُر مَن قرأ

غرزت إنغريد أصابعها في شعره، الأسود القصير، شمّته، فملأت رئتيها رائحة الصابون، ثم قبّلته وقالت إنه ينبغي أن يخرج ويحضر بعض الحطب، لأنها ميّتة من التعب، فهل فهم ما قصدته بكلمة «ميّتة»؟

ابتسم، لبس كنزة وخرج، ثم عاد حاملاً حطباً وتورقاً، وكأنه من سكّان البيت الأصليّين، وبقي واقفاً ينظر إليها، مثل نصبٍ مضيء لشابٍّ وسيم، حتى اضطرّت أن تنظر بعيداً عنه.

بعدئذٍ، قال شيئاً فهمت منه أنه يستأذنها، فأومأت برأسها.

فشرع بإعداد طعام، وهو يردّد أغنية الأطفال ذاتها، بينما يعجن ويشكّل العجينة على شكل صحن كبير ثم يضع عليها الزبد، وبعض قطع السمك المسلوق البارد، ثم يطويها مثل فطيرة ويضعها في صينية، وعندما انتهى وضع الصينية في فرن الموقد.

تمدّد بقربها وتركها تفعل به ما تشاء حتى شمّا رائحة غريبة تملأ المكان. أكلا صامتين ثم صعدا إلى العلّيّة، وناما هناك حتى هبّت العاصفة الأولى على الجدار الجنوبي.

قالت إنغريد وهي تذرف الدموع إنهما ليسا مضطرّين للنهوض الآن، لأن لا أحد يأتي إلى الجزيرة في هذا الطقس.

ناما وبقيا مستلقيين طيلة اليوم والليلة التالية، ينصتان إلى صوت الريح، نهضا وأكلا ولعبا مع القطة؛ وأجبرتهما الريح على الصراخ بما كانا يهمسانه همساً.

بعد أن هدأت العاصفة، سألته ما إن كان يستطيع إصلاح ساعة.

فقال إنه يستطيع، وسألها ما إن كان لديها عدّة مناسبة.

فقالت إنها قد أرته العدّة سابقاً، ألا يتذكّرها؟!

نظر إليها مستفسراً.

كرّرت كلمة «عدّة»، وشرحت له أين يمكن أن يجدها.

هزّ رأسه بحماس، وضحك، لفَّ لحاف عيدر حول جسده ونزل ولم يعد.

عندئذٍ نهضت ونزلت لترى ماذا يفعل. رأته واقفاً، عارياً، ولحاف العيدر حول قدميه وهو مشغول بتعليق الساعة على مسمار في الجدار الغربي، ثم علّق ثقلَي الساعة كلّاً في سلسلته. وقفا صامتين حتى سمعا تكتكة الساعة تعلو فوق صوت الريح التي هدأت الآن. كانت عقارب الساعة تشير إلى التاسعة والربع، لكنّ الوقت مساء. فالتفت ونظر إليها كأنه يسألها ما الزمن الذي تريده أن يضبط الساعة عليه. قالت إنغريد إنهما سيتركانها على ما هي عليه. ثم صعدا ثانيةً، ولم يأتِ أحد.

- 10 -

توجد طرق عديدة للتجديف بالقارب، وهو لا يتقن أيّاً منها. كان يدير المجدافين في أُكرتيهما بانفعال، ويجاهد مع شرائط الربط حول معصميه، بينما إنغريد تجلس على جلد الخروف عند دفّة القيادة وتضحك منه. أشارت إلى الصخور والجُزر التي أمكن أن تُرى في الظلام وشرحت له عنها. حاول، مثل طفل، أن يُحسِّن أداءه ويفوز بثناءٍ منها، فأثنت عليه، وفكّرت في أنه طفل، ويزداد وسامةً كلّ يوم، وأنّ ذلك فوق قدرتها على الاحتمال.

طلبت منه أن يجدّف عبر المضيق إلى جيس أوي، ثم إلى أقصى الجنوب حيث بدأت الأمواج تصبح أعلى. كانت أصابعه قصيرة وبدأ يضرب المجدافين بجانبي الأُكرتين. تبادلا المواقع، وجدّفت إنغريد حول الجزيرة، ثم دخلت في خليج صخري صغير حيث يوجد مرفأ طبيعي، ربطت القارب إلى جذعٍ من الأخشاب الطافية، وقالت له إنها ستُريه شيئاً.

خاضا في الأعشاب البحرية المغطّاة بالثلوج، ودخلا إلى فرجة صغيرة بين الصخور، حيث استصلح سكّان بارأوي أرضاً هناك وحفروا مخزناً للتبن، وسمّوه الجناح. فتحت إنغريد الباب وطلبت منه الدخول. جلسا

على كومة تبن قديمة مغبرّة واستمعا إلى صوت البحر. قالت له إن الطقس سيهدأ قريباً، وإن غرباء سيأتون إلى بارأوي عاجلاً أم آجلاً، ولهذا سيصبح هذا المكان مخبأه، وقد فهم الكلمة، كما قالت له إن هذه جزيرة أخرى، لأنهم سيجلبون معهم كلاباً، وفهم هذا أيضاً.

واستمعا إلى البحر.

وضع يده على فخذها وراح يتكلّم بصوتٍ جديد، بدا أنه يقول لها أسراراً أو تحذيرات، ثم تحمّس وبدأ يشير بيديه، وضغط على فخذها بيديه كمن يريد أن يوضح شيئاً، وكانت إنغريد سعيدة لأنها لا تمتلك اللغة لتسأله عن عمره.

أمسكت يده المشوّهة ووضعتها على خدها، وتركته يتكلّم. بدا وكأنه يحاول أن يقنعها بشيءٍ ما، وكانت سعيدة، أيضاً، لأنها لم تفهم. قد بدأ يستعيد قوّته، يعيد اكتشاف شيء كان قد نسيه، شيء اعتقد أنه قد فقده، واجتاحتها موجةُ قلقٍ جديدة، بداية ظلمة عرفت معها أنها لن تحتمل الحياة من دونه.

أجبرته على التجديف إلى البيت ثانية، وجلست في وضعية تستطيع فيها أن تبكي دون أن يراها. لكنه رآها على أيّ حال، ترك المجدافين وجلس بهدوء. ثم وضع يديه على كتفيها. أسندت وجهها على قفّازه دون أن تدير رأسها، وبقيت صامتة. جرفهما البحر. فعاد إلى التجديف ثانية.

مساء اليوم التالي، خرجا للتجديف ثانية. علّمته كيف يتعامل مع خيط الصيد اليدوي، وكيف يُمسك بالسمكة، ويقطع غلاصمها ويُخرج

أحشاءها، وأجبرته على التجديف في مواجهة الأمواج الثقيلة في عرض البحر، وأرته كيف أنّ القفازات الرطبة تكون دافئة، وكيف أنّ الأمواج قد تقذف القارب، وكيف يمكن امتصاص تلك الصدمة بحركة سحرية من المجاديف. وقالت له إنه هو من يقرّر ما إن كان سيتجمّد أم سيُصاب، والآن فقد أصبح شعره كثيفاً مثل سجّادة سوداء تستطيع أن تدفن أصابعها فيها. ولم تنم في تلك الليلة، بينما نام هو بعمق وهدوء مثل نيللي، وهذا ما زادها خوفاً.

نهضت ونظرت من النافذة، كان البحر ساكناً مثل بركة من الزيت.

نزلت مسرعة وبدأت في توضيب: لحاف عيدر، ثياب، وصندوق طعام مثل الذي اعتادوا توضيبه لوالدها عندما يسافر للصيد في لوفوتن، ثم أيقظته وهمست في أذنه أن يرتدي ثيابه.

نظر إليها متسائلاً.

جدّفت بالقارب نحو الجنوب عبر المضيق، ثم إلى الخليج الصخري الصغير في جيس أوي. دخلا المخزن وناما فوق التبن حتى علت الشمس في كبد السماء، نهضت وقالت له إنها ستأتي كلّ مساء، وتجلب له الطعام والماء، وروحه. ودّعته، لكنه أمسك بها ثانية، وناما معاً ثم تودّعا، وعندما جدّفت عائدةً كانت للمرة الأولى في حياتها مجرّد قشة صغيرة طافية في البحر.

عندما وصلت إلى بارأوي شرعت فوراً في ترتيب البيت ومحو أثر أقدامهما حوله. وقفت أمام المرآة ولطّخت وجهها بالسخام، وراحت تتنقّل من نافذة إلى أخرى وتحدّق صوب الشمال، لكن لم يأتِ أحد.

شعرت أنها غبيّة. غسلت وجهها، رتّبت البيت ثانية ولعبت مع القطة

كوشكا، وهي غير قادرة على النوم في الصالة الشمالية الآن. جلبت المنظار من سقيفة القارب، وجلست على سرير والديها في الصالة الجنوبية، وراحت تنظر عبر عدساته المكبّرة إلى جيس أوي، دون أن ترى أيّ شيء، ولم يغمض لها جفن حتى ملأ الظلام عينيها.

وعندما بدت لها الجزيرة، صباح اليوم التالي، مثل مسمار صدئ على مرآة صافية، شعرت أنها أكثر غباءً، فركبت القارب إلى الجنوب، وأخذته معها في البحر حيث يمكن أن تجعله الأمواج يشعر بدوار البحر ويضحكان من ذلك. بعدئذٍ، عادت ومدّدته على الشاطئ، وانتظرا حتى استعاد توازنه وأبحرا ثانية. صادا معاً ونظّفا السمك، وعادا إلى مخزن التبن، ونامت معه على التبن حتى حلَّ الظلام. وعلى الرغم من أن الريح في هذه اللحظة لم تكن أكثر من نسيم رقيق، قرّرت أن البحر هائج، وبقيت هناك حتى انبلج صباح يوم جديد، عندئذٍ جدّفت عائدة وسط هطل ثلج كثيف أحال الصباح مساءً، ومرّة أخرى وصلت إلى بيت بارد اضطرّت أن تقضي بقية النهار حبيسة جدرانه، ولحسن الحظ فقد استنزفها ذلك كلّ طاقتها.

رفعت أوزان الساعة، ضبطت عقاربها، ولعبت مع القطة، ثم طهت طعاماً وأرادت أن تغزل وتحيك، لكنها كانت منهكة.

استلقت في الصالة الجنوبية والمنظار بين يديها، وراقبت النهار يأفل عن جيس أوي، واللون الرمادي يسكن البحر، وحركة الطيور تتناقص حتى اختفت نهائياً.

ارتدت ثيابها ثانيةً، وخرجت في جولة حول الجزيرة تحت ندف الثلج، ولم تجد شيئاً. فعادت إلى البيت وهي راغبة في فنجان قهوة. تعثّرت

بأرضية المطبخ المستوية، نهضت وجلست في الكرسي الهزّاز، فأخذها النوم وحلمت بكوز الصنوبر الذي رسمته في المدرسة. استيقظت، وهي تشعر بالانتعاش، وكانت بشرتها مقشعرّة كما لو أنّ أحداً قد نفخ عليها. صعدت إلى العلّيّة، أخرجت لوح رسوماتها القديمة وأقلام التلوين، وتذكّرت المدرّس الذي ذات يوم، وبتعبير فرحٍ غامر على وجهه، وضع على طاولته كوز صنوبر وطلب من التلاميذ أن يرسموه، كان كوز صنوبر كبيراً جداً، لا أحد منهم رأى مثيلاً له من قبل. كانت رسمة إنغريد أشبه ببيت حلزون، وضحك المدرّس منها كثيراً. غير أن كل رسومات التلاميذ كانت تشبه إلى حدٍّ ما بيت حلزون، أو محارةً أو صدَفةً. ذهبت إنغريد إلى سريرها وقد اتخذت قراراً لا رجعة عنه، ستجعله يكتب لها شيئاً ما قبل أن يختفي، لأنه سيختفي بالتأكيد، لا مناص من ذلك، وسواءٌ استطاعت أن تقرأ ما سيكتبه أم لا، فإنّ الغاية هي أنها ستفهم ذات يوم ما قد كتبه لها.

- 11 -

كانا في ذلك الوقت من السنة حين كلّ حيٍّ سيموت، وتنكمش الحيوانات والبشر على أنفسها وتصبح أصغر مما هي عليه في الأصل، وتخلو الطبيعة من أيّ صوت سوى هدير البحر، ولا تستطيع أيُّ صلاة أن تستنهض الحياة في أيّ شيء على الإطلاق.

كانت إنغريد قد أنزلت الملابس الممزّقة عن سقالة التجفيف، ووضعتها في صندوق سمك في سقيفة القارب، ووجدت نفسها الآن واقفة وفي قبضتها حفنة من نشارة الخشب، الفارق بين لسعة الصقيع والدفء، بين الصيف والشتاء، بين الحياة والموت، عندما سمعت هدير محرّك لم يكن هدير قلبها، استجمعت قواها بسكينةٍ وهدوء اعتقدت أنه قد فارقها إلى الأبد. صعدت إلى البيت، شعَّثت شعرها، سخّمت وجهها ثانيةً، ولبست وشاحاً إضافياً فوق رأسها وخرجت حاملةً سطل التورف، ورأت قارب النقل القديم يتجاوز اللسان البحري ويتوجّه مباشرة إلى الرصيف الجديد.

تركت من يدها سلّة التورف، وسارت بهدوء إلى الشمال وعيناها تبحثان عن أثر أقدام في الثلج، لكنها لم ترَ أيّ أثر. تابعت سيرها حتى

وصلت إلى الرصيف، ورأت المُلازم ذا الملعقة والبيضة المسلوقة واقفاً بجانب درابزين القارب وهو ينظر إليها. رمى القبطان حبلَي الإرساء، فتلقّتهما إنغريد ووضعت كلّاً منهما حول مربط إرساء. ووراء الملازم وقف أربعة جنود بزيّهم الرسمي، ومن ورائهم ضابط الشرطة هنريكسن، الذي لم يكن محسوباً على الرجال قبل الحرب، ولم تجعله المشاركة فيها رجلاً، ولا حتى من صنف الكلاب.

صعد الملازم إلى الرصيف، قاطع يديه المقفّزتين فوق بطنه وارتجف، والندبة الحمراء فوق مستوى أنفه أصبحت أكثر احمراراً، وكانت عيناه اللطيفتان ما تزالان لطيفتين، قال إن اسمه هارغل، الملازم هارغل، ثم راح يمشي جيئةً وذهاباً على الرصيف، بينما راحت إنغريد تفتح سقيفة القارب وتسمح لضوء الشتاء بالدخول إلى الجثث. نظر الملازم إلى الداخل وقال: «يا إلهي!»، ثم استدار وصاح على الجنود في الأسفل، فارتدوا أقنعتهم، وركضوا صاعدين إلى الرصيف، ومعهم نقّالتان، وبدؤوا ينقلون بقايا الجثث.

أرتهم إنغريد كيف يستعملون الرافعة.

أنزلوا الجثث إلى القارب ووضعوها على منصّاتٍ نقّالة في عنبر القارب، وعلى سطح السفينة، ورشّوها بمسحوق أبيض. ثم رفعوا إلى الرصيف صندوقاً مليئاً بالمسحوق ذاته. ورشّوا أرضية سقيفة القارب، ثم الرافعة والرصيف، فبدا المسحوق مثل ثلج جديدٍ فوق ثلج قديم.

قال الملازم شيئاً فهمت منه إنغريد أنها ينبغي أن تنتظر بضعة أيام قبل أن تشطفه بالماء، ثم قام بإشارات توضيحية للعملية بيديه المقفّزتين، وأصدر صوتاً يشبه طشيش الماء. لاحظت إنغريد أن السقف الذي تضرّر

من إطلاق النار كان ينقّط ماءً، وعرفت أن عليها أن تنتظر الربيع، تنتظر الصيف، هذا إن أتيح لها أن تدخل إلى هنا ثانية، ثم التفتت إلى هنريكسن وأخبرته عن الجثة في علّيّة الإسطبل.

فصعد معها هو والملازم وجنديّان آخران.

كانت إنغريد قد غطّت الجثّة بالبزّة الرسمية وغطاء الحصان. طلب منها هارغل أن تضيء المكان. سحبت إنغريد المغلاق المعدني ورفعت غطاء الكوّة التي كانوا يُنزلون التبن عبرها إلى العلّيّة. سحب الجنديان الجثّة، وكانا على وشك أن يتفحّصاها عندما أزاحهما هارغل جانباً وجثا على الأرضية مثل طبيب. فأشاحت إنغريد بوجهها وسمعته يقول: «صقيع، غرق، عنف...».

سألها هنريكسن ما إن كانت قد وجدته هنا؟

«أجل».

«هذا يعني أنه كان ما يزال حيّاً عندما دخل إلى هنا؟».

«نعم» -قالت إنغريد- «لكنه كان ميتاً عندما وجدته».

سألها لماذا لم تبلّغ عن ذلك في حينه.

قالت إنها أبلغت، والتفتت صوب هارغل، الذي نهض ثانيةً، وقالت باللغة النرويجية إنها لم تعتقد أنّ الرجل ألماني، باعتبار أنه يلبس الثياب الممزّقة ذاتها مثل الآخرين، أما الزيّ الرسمي فكان فوقه مثل البطانيّة.

ترجم ضابط الشرطة هذا الكلام، فسحبها هارغل إلى الضوء وتفرّس في وجهها، وقال كلاماً بدا لها تهديداً في ترجمة ضابط الشرطة هنريكسن.

أكّدت إنغريد من جديد أنه لم يكن يلبس البزّة الرسمية.

«لماذا لم تبلّغي عن ذلك؟!» كرّر هنريكسن.

فسألته إنغريد ما إن كان سمعه ثقيلاً.

احتقن وجه هنريكسن بالدم، وراح هارغل ينقّل نظره بينهما باهتمام. بهدوء لافت للنظر قالت إنغريد إنّ الطقس السيّئ جعل مهمة الإبلاغ مستحيلة حينئذٍ، وقد أبلغتهم حالما أمكن ذلك.

مدّد الجنود الجثّة على النقّالة وخرجوا بها. نزل الآخران إلى الرصيف، بقي هارغل واقفاً والبزّة الرسمية بين يديه، فهو لم ينتهِ منها بعد، قلب جيوبها فوجد في إحداها أوراقاً أشبه بالعجينة، نقل اهتمامه إلى رتبة البزّة، فأخرج من جيبه نظّارة بزجاجة واحدة وحدّق عبرها بالشارة.

سألت إنغريد ما إن كانوا يرغبون ببعض القهوة؟

فردَّ هارغل بـ«كلّا» فظّة، وسألها ما إن كانت تعرف رتبة هذا الضابط؟

«كلّا».

ألم تقل إنه برتبة كولونيل؟

«كلّا».

قال هارغل جملة أخرى، وسألها هنريكسن على ماذا أجابت بـ«كلّا».

قالت إنغريد إنها ليست على دراية بالرتب الألمانية.

بدا هارغل مرتاباً وسألها ما إن كان لديها سلاح.

هزّت إنغريد برأسها، ثم دخلت إلى غرفة المؤن وعادت بالبندقية القديمة، بندقية البحر، وبندقية الصيد. تفحّص هارغل الأسلحة وقال إن حيازة السلاح ممنوعة، ثم ناولها للجنود الذين كانوا قد عادوا من القارب.

قالت إنغريد إنهم لطالما امتلكوا هذه الأسلحة، فهم يطلقون النار على النسور، والقنفذ، والمنك...

سألها هارغل ما إن كانت تجيد استخدام هذه الأسلحة أيضاً.

«أجل».

أشار إلى بندقية البحر وقال: «وتجيدين استخدام هذه أيضاً؟».

«أجل».

هزّ برأسه وقال بضع كلمات لهنريكسن، الذي قال لإنغريد أن تُحضر كلّ ما لديها من ذخيرة.

عندما عادت بصندوقي ذخيرة وحربة يدوية، قال هنريكسن مترجماً: «ذخيرة تكفي لحربٍ».

ثم دار حوار طويل باللغة الألمانية، واندهشت إنغريد بمنظر هنريكسن الذي بدا هرماً، محنيّ الظهر، ثقيل الأنفاس، ومرهقاً، ظِلّاً شاحباً للسلطة التي كانها قبل، وتساءلت ما إن كان لهذا دلالة ما.

سار هارغل صوب إنغريد، خلع قفّازه، وبصق على عقب إصبعه، ومرّره على السخام الذي على وجهها.

«النساء قلقات دوماً»، تمتم متفلسفاً ومسح إصبعه بالبزّة الرسمية. «إهانة». ثم شرع في حديث جديد مع هنريكسن، وسمعت إنغريد كلمة مثل نار وراديو، فقالت مباشرة إنها لا تملك راديو، ثم انتظرت وكأنها في حالة استعداد، حتى سألها هارغل ما إن كانت تعيش هنا بمفردها.

أجل، فعمّتُها في المستشفى والرجال في لوفوتن.

«أنت وحيدة هنا إذاً؟!».

«أجل».

سألها «ممَّ تعيشين؟»، وهو ينظر إلى الجنوب نحو الحدائق المغطّاة بالثلج.

لم تفهم إنغريد سؤاله.

سألها ما إن كانوا هنا طيلة فترة الحرب.

فقالت له إنهم لطالما عاشوا هنا.

جال ببصره في المكان وقال جملة باللغة الألمانية *schreckliche Armut*. فقر مدقع.

ابتسم هنريكسن.

قالت إنغريد إنها تريد أن تريه شيئاً في سقيفة القارب، فنزلوا وراءها، وهناك أشارت إلى كومة ملابس، وقالت ربما يريدون أيضاً أن يأخذوها معهم؟

قال ضابط الشرطة لينسمان هنريكسن: «هذه ملابس سجناء».

أصغت إنغريد باهتمام.

سألها هارغل أين وجدتها.

أشارت إلى أماكن متعددة. وعندما ترجم لينسمان ما قالته لم يثر اهتمام هارغل الذي خرج وسار باتجاه الرصيف ثانية، ثم تذكّر شيئاً فالتفت وصاح ببعض العبارات. التفت لينسمان هنريكسن إلى إنغريد وقال إنها يمكن أن تحتفظ ببندقية البحر، لكنهم يجب أن يأخذوا بندقية الصيد، والبندقية القديمة والذخيرة أيضاً.

هزّت إنغريد رأسها وسألته ما إن كان على متن السفينة سجناء فقط. فسألها هنريكسن ما إن كانت غبيّة. وفي هذه اللحظة جاء جندي وسلّمها ورقتين، الأولى فيها تعليمات حول تنظيم المدنيّين في المنطقة المحتلّة... أما الورقة الثانية فلم ترَ مثلها من قبل. فطوَت الورقتين وسارت معهما باتجاه الرصيف، وكانت على وشك حلّ حبلي القارب عن مربطيهما، لكنها توقّفت من عبارة: «انتظري لحظة!». وقف هارغل بين الجثث، في

الأسفل، على متن القارب وصاح نحوها: «Haben Sie keine Tiere?». أليس لديك حيوانات؟

«كلّا».

هزّ برأسه.

«وكم قارباً لديك؟».

قالت إنغريد: «أربعة».

هزّ رأسه وأعطى إشارة بإحدى أصابعه. حرّرت إنغريد حبلي الربط، ووقفت في حالة الاستعداد ذاتها حتى خرجوا من المضيق واستقرّوا في مسارهم باتجاه القرية، فتساءلت لماذا لم تنقل الجثّة من علّيّة الحظيرة إلى مثيلاتها في سقيفة القارب، ولماذا لم تحرق البزّة الرسمية، ولماذا لم يسألوها ما إن وجدت قارباً، أو لماذا لم يبحثوا عن قارب، فلا أحد يصل إلى هنا حيّاً دون قارب. واستمرّت في مونولوجها وفي البحث عن الآثار التي لم تستطع أن تتقفّاها في الثلج، وتساءلت ما إن كانت قد سمعت كلمة «عنف» أم كلمة «لا عنف»، كلمة «غرق» أم «لا»، وأدركت أخيراً أنه بصرف النظر عما قالاه، أو ما فهمته، فسوف يعودان، وهذا يتعلّق بالشعور الذي ينتابها حيال هنريكسن.

في هذه الليلة لم تجرؤ على الإبحار إلى جيس أوي، فقد كان البحر هادئاً والظلام خفيفاً. استلقت في الصالة الجنوبية وهي تحدّق عبر المنظار وتفكّر: الآن لم يعد أيّ شيء مرئياً، والآن بوسعي أن أجدّف، لكنها بقيت مستلقية هناك لأنها غطّت في النوم.

- 12 -

لقد تركوا وراءهم صندوق المسحوق الأبيض. ملأت إنغريد منه سطلاً وراحت ترشّ المسحوق فوق أرضية علّيّة الحظيرة. وعندما بلغ مدّ البحر ذروته ذهبت إلى كارفيكا ووقفت تحدّق في الماء حيث أغرقت القارب. لم تستطع أن ترى شيئاً، فانتظرت حتى بلغ الجزر أدنى مستوياته، ولم تستطع أيضاً أن ترى شيئاً.

لكن ضوء النهار بقي غير مؤاتٍ للإبحار.

أخرجت أسمال الجثث من سقيفة القارب إلى اللسان البحري الشمالي، ثم أحرقتها ورمت رمادها في البحر. واستمرت حالة الطقس على ما هي عليه. ووجدت إنغريد أنها تحت المراقبة، فقد كان هناك منظار يرصد تحرّكاتها. وعلى الرغم من ذلك، عندما حلَّ المساء نزلت وأخرجت القارب وأبحرت بأقصى سرعتها جنوباً إلى جيس أوي محتجبة بصخور الجزيرة، أرست القارب في الخليج الصخري هناك، وركضت صاعدةً المنحدر العشبي. لاحظت مسارين، وكانت طبقة الجليد الرقيقة في الحفر الرطبة والمظلمة تحدّق إليها، وكلا المسارين من المخزن وإليه شمالاً عبر الحقول، كان المسار الأول آثار أقدام واضحة، أما المسار الثاني فكان أثر

علامة سحب. تبعت المسارين، ركضاً، إلى الشمال، حتى فهمت أنه قد أصيب بنوبة هلع، وجرّب أن يسبح لكنه لم ينجح، غير أنه ما يزال حيّاً على أيّ حال.

استدارت وعادت راكضة إلى باب المخزن.

بدا أنه نام، لكنه لم يستيقظ عندما هزّته، وكان مبلّلاً بالعرق من رأسه حتى قدميه، وعلى ثيابه قشرة جليد رقيقة. سمعت شهيقاً، وقرقرة، وعرفت أنها الحمّى، برطم ثم تلوّى، وأومأ بذراعه، لكنه لم يفتح عينيه.

صرخت إنغريد، ودحرجته عن البساط، حملت البساط إلى الخارج ووضعته فوق الثلج، ثم عادت وجرّته من قدميه، مدّدته فوق البساط ووضعت اللحاف فوقه، وجرّته مع البساط إلى الأسفل عبر الصخور، لكنها لم تستطع أن ترفعه إلى القارب. دحرجته عن البساط ثانية، وضعت البساط ولحاف العيدر في كوثل القارب، ثم عادت إليه ورفعته إلى وضعية الجلوس، طوّقته بذراعيها من وراء ظهره ونهضت به، فسقطت هي وهو في القارب، وارتطمت مؤخرة رأسها بأرضية القارب.

غطّته باللحاف وجدّفت به في محيط الزمن. توقّفت بجانب الرصيف السويدي، أخرجته من القارب، ونجحت في جرّه صعوداً إلى البيت قبل أن تفقد وعيها.

عندما صحت كان مستلقياً بجانبها وينظر إليها. تذكّرت أنّ هذا قد حصل لها من قبل. شعرت أن حرارتها مرتفعة، وكانت مرتفعة جداً. برطم شيئاً ما، وبدت عيناه الرطبتان على وشك أن تنطفئا.

نهضت إنغريد، جرّدته من ثيابه وجفّفت جسده ودلّكته بقوة، ففاحت من جسده المنهك رائحة كريهة. نهضت وصعدت إلى العلّيّة، ثم عادت

ومعها دفتر الرسم وقلم الرصاص، ووضعتهما بين يديه، وراحت تدلّكه براحتيها، ثم لكمته بقبضتيها، ونعتته بالأخرق لأنه لم يستطع أن ينتظر. طفل أرعن لم يثق بها... نهضت ثم جلبت لحافاً آخر، غطّته به واستمرّت في تدليكه حتى غابت هي عن الوعي أيضاً، ووجدوها هناك بعد ثلاثة أيام.

II

- 1 -

عندما فتحت عينيها في الغرفة البيضاء، أدركت إنغريد أنها ينبغي أن تعود إلى بارأوي لتستعيد حواسها. من أجل أن تستعيد الرجل ثانية. ولتستعيد الطفولة، والحياة وكل ما في بارأوي، تلك الجزيرة المهجورة وسط البحر، ومع ذلك بدت الفكرة غريبة كما لو أنّ أحداً غريباً قد أدخلها في رأسها.

لم تكن تلك المرة الأولى التي تفتح فيها عينيها في الغرفة البيضاء، فهي تفعل ذلك منذ أسبوع، وقد وقفت أمام النافذة وحدّقت عبرها إلى الثلج الذي يغطّي الأرض التي بدت مثل شرشف أبيض مكويّ حديثاً، وشاهدت أشجاراً تحفّ به مثل جنود واقفين في استعداد، وفي الوسط شجرة تنّوب مخروطيّة الشكل، تشبه سنّاً أسود، بانتظار التزيين، لأن الوقت كان عيد الميلاد داخل المستشفى وخارجه.

لقد تحدّثت مع الأطباء والممرّضات ورجلٍ عجوز يأتي إلى غرفتها كل يوم لينجز أعمال التنظيف، وكان يخجل من عمله هذا رغم أنه مستمرّ فيه لأن زوجته مريضة ويحتاج إلى نقود لعلاجها، كما قال لإنغريد. يجلس دوماً على ذلك الكرسي الوحيد في الغرفة، ويحدّق عبر النافذة إلى

شجرة التنّوب ذاتها بينما يخبرها بأنه لا يمانع أن يعمل عمل النساء هذا، لأن العاملين في هذا المستشفى ألطف من زملائه في الميناء، الذين كانوا يسخرون منه لأنه لم يكن قادراً على أن يحمل كيس حبوب البُنِّ من عنبر السفينة ويعبر به اللوح الخشبي المتأرجح من السفينة إلى المخزن، كان ذلك قبل أن يسقط.

عرفت إنغريد أنها لم تكن مجنونة، عندما فهمت أنه مجنون، رغم أنها مريضة أيضاً، مثله. هو مكتئب، محنيّ الظهر وشبه أصلع، لم يكن يأتي للقيام بأعمال التنظيف، بل للاختباء، وقد اختار غرفة إنغريد.

نهضت من السرير وهي راغبة في وضع يديها على كتفيه، لأن يديه مثل يدي جدّها. لكن صوت البحر لا يفارقها أبداً، ولن يعود صافياً كما كان، ولمع البرق وراء جفنيها، لكنه في تلك اللحظة كان قد تمكّن من الإمساك برؤوس أصابعها، وأمسكها كما يُمسك طفلٌ بيد بالغ. شعرت أن الأمر مقزّز ولطيف في آن معاً، وعرفت أنه إنسان، وأن بوسعها أن تثق به.

فتحت إنغريد عينيها في الغرفة البيضاء وتذكّرت أنهم قد سمّوها «الجافّة»، وأنها لم تفهم معنى تلك الكلمة، وأنها كانت منهكة من الجوع وعلى جسدها كدمات زرقاء وسوداء، وأنها عانت من شيء ينبغي أن تنساه، رغم خطورة أن يعاودها، ولهذا عليها أن تعلّم نفسها التعامل معه، ولم يستطيعوا أن يقرّروا هنا في المستشفى ما إذا كان النسيان والتذكّر وجهين لعملة واحدة، وهذا سبب وجودها هنا.

أعطوها طعاماً ودواءً، وربطوا خراطيم مطاطية حول زنديها، وكانت ترمش بجفنيها عندما يسألونها ما إن فهمت ما قالوه، وكانت تسرد أسماء

والديها وجدّيها، وتتأوّه عندما يغرزون إبر الحقن في جسدها، وتهزّ برأسها عندما يضربونها بمطارق مطاطية صغيرة تحت ركبتيها... ومن النافذة رأت كبلاً كهربائياً يمتدّ، مثل ثعبان أسود عبر الثلج، من المستشفى الذي هي فيه إلى شجرة التنّوب المخروطية، حيث استطاعت، في يوم شتوي رمادي، أن تعدّ ثلاثاً وعشرين لمبة عليها، وكانت تلك شجرة الميلاد الوحيدة في المدينة بأضواء كهربائية، وفي قمّتها نجمةٌ مضيئة انطفأت فجأة.

قالوا إنها ينبغي أن تأكل أكثر، فأكلت أكثر.

طلبوا منها أن تمشي في الممرّ وترفع ركبتيها، لأنها ليست عجوزاً، وليس هناك أي مبرّر لتجرجر قدميها مثل العجائز. صعدت ونزلت الأدراج، وتحدّثت مع الأشخاص الذين تلتقيهم من يوم إلى آخر وهي تكاد تتجمّد في ثيابها الرقيقة. ووجدت الطريق إلى غرفتها دون مساعدة، واستلقت في سريرها ونامت، واستقبلت الرجل العجوز الذي يرغب في الجلوس في غرفتها، صامتاً وغارقاً في أفكاره مثل مومياء.

«انظري!» -قال الرجل فجأة وهو ينظر عبر النافذة- «الآن سينفجر كلّ شيء!».

نهض، وخرج وهو يعول راكضاً في الممرّ مثل خفّاش. نزلت إنغريد من السرير، لبست خفّاً من الصوف، وشاهدت عبر النافذة رجلين يحملان سلّماً ويسيران به عبر الثلج، أسنداه على الشجرة، أمسك أحدهما السلّم، محافظاً على توازنه، بينما تسلّقه الآخر إلى قمة الشجرة وبدّل لمبة النجمة، وعندما أضاءت النجمة، نزل، وحملا السلّم، وبدوَا لها مثل حرف من لغة أجنبية، بينما أخذ الهلع يتدفّق في جسمها الذي بدا لها أنه قد أصبح مضخّة خوف.

قالت للطبيب إنها ما عادت ترغب بوجود هذا الرجل العجوز في غرفتها، فهو يذكّرها بجدّها. قال الطبيب إن الرجل ليس خطيراً عليها ولا على نفسه.

قالت إنغريد: «إنه يخيفني».

«لماذا يخيفك؟».

«لأنه ميت».

سألها الطبيب متى، وكيف مات جدّها؟

أخبرته إنغريد، بينما هو جالس يستمع إليها ويهزّ رأسه حتى تحلّل صوتها في مزيج من الأصوات واختفى القلق منه، وأصبحا قادرين على النظر أحدهما في وجه الآخر، لا أكثر من ذلك.

لكنه لم ينهض ويغادر الغرفة، كما يحدث عادةً في مثل هذه اللحظات من الوضوح، بقي جالساً يتلوّى، محرجاً، وقال إن لديه ما يعترف به.

نظرت إليه إنغريد باهتمام.

لم يصدّق قصّتها عن الجثث، لأن أحداً لم يسمع عن تحطّم تلك السفينة، ولذلك اعتقد أنها أوهام، أو ما أسماه ذُهاناً، أو كوابيسَ في أحسن الأحوال، لكنه بينما كان جالساً يوم أمس يقلّب في صحف قديمة وجد هذا التقرير الصحفي.

أخرج قصاصة ورقية من صحيفة ووضعها في حضنها. قرأت إنغريد: «طائرات حربية بريطانية تقصف وتدمّر سفينة نقل ألمانية بالقرب من روس أوي، في السابع والعشرين من تشرين الثاني... وقال الناجون من الكارثة إن الطائرات البريطانية أطلقت النار على قوارب النجاة، وكلّ من وصل

الشاطئ حيّاً... وهذا يثبت أن الطيّارين البريطانيين يطلقون النار بشكلٍ منهجي على الناجين من السفن الألمانية».

كان التقرير بطول ستة سنتيمترات أو سبعة، وعرض ثلاثة، وقد كُتِبَ في السابع من كانون الأول، أي منذ ثلاثة أسابيع، ولم يذكر التقرير عدد الضحايا ولم يتحدّث عن وجود جنود روس بينهم، فهل تحدّثت إنغريد عن جنود روس؟

تخيّلت إنغريد كلّ التيارات البحرية، والرياح، والجزر، والصخور بين روس أوي وبارأوي.

إنها مسافة طويلة، أميال عديدة...

«ماذا؟».

لم تجبه.

قال الطبيب إنه مجرّد تقرير، وقد فتّش كثيراً لكنه لم يجد سواه، وقد فكّر أنه على أيّ حال يثبت صحة ما قد رأته، وعاشته، وهذا ما أسماه بالحقائق.

نظرت إليه إنغريد مطوّلاً.

سألها ما إن كانت قد فهمت كلامه؟

فسألته ما إن كانوا قد وجدوها وحيدة.

قال نعم، لكنه بدا غير واثق، وأبدى اهتماماً كبيراً في أنها قد غرقت في أحلام يقظتها ثانية. وأرادت أن تسأله عن عدد القوارب التي كانت في بارأوي عندما وجدوها هناك، غير أنها تذكّرت أنه ليس من سكّان الجُزر. فقال باختصار إنه قرأ في ملفّها الطبي أن ضابط الشرطة هنريكسن والملازم الألماني هارغل وجداها هناك أثناء جولة روتينية لهما.

طلبت منه أن يريها ملفّها.

قال «لا»، وبقي جالساً ينقر بإصبعه على الملف وهو ينظر، معها، إلى شجرة عيد الميلاد التي تتلألأ بأضوائها الثلاثة والعشرين والنجمة في قمّتها، ثم فتح الملف فجأة وتمتم قائلاً إن بوسعها أن تقرأ الملف، فليس هناك ما يمنع من أن تقرأه، كما كان الأمر مع أمها، التي عالجها من قبل، بل على العكس، فكلّ الدلائل تقول إن إنغريد تعاني من صدمة الحرب، مثل غالبية الآخرين، الذين جرى إخلاؤهم من فينمارك على سبيل المثال؛ حيث نفّذ الألمان ما يسمّى سياسة الأرض المحروقة، وكانوا يتدفّقون من الجنوب في القوارب، قارباً إثر آخر، وقد عالج العديد منهم هنا، وكم تمنّى لو كان لديه تشخيص طبي يُدعى صدمة الحرب، لكان ذلك جعل ملفّاته الطبية مليئة بالحقائق.

قرأت إنغريد في ملفّها الاسم الأول للملازم هارغل، ألبيرت إميل، وعرفت أنه قد اعتدى على حياتها بطريقة أخرى غير مصادرة أسلحتها وأخذ بقايا الجثث، لكن كيف؟ هذا ما لا تعرفه. وعرفت أنها قد أخبرت الطبيب عن الروس، لكنها غير واثقة ما إن كانت قد أخبرته عن روسيِّها هي؛ فسألته كيف كانت عندما وصلت إلى المستشفى، واضطرّت أن تكرّر سؤالها حتى غمغم: «كان هناك بعض الكدمات، ربما بسبب السقوط من أعلى درج؟».

لن يعود البحر أبداً صافياً كما كان، لكن الومضات الحارقة اختفت، وكذلك الأحرف الأبجدية الأجنبية، وهي لا تعاني أيّ آلام الآن. سمح لها الطبيب بالاحتفاظ بقصاصة الجريدة، فتشبّثت بها كطوف نجاة، رغم أنها تتحدّث عن جنود ألمان فقط ودون ذكر للروس. لكنها عرفت عن

وجودهم من هنريكسن عندما حضر لأخذ بقايا الجثث، رغم أن كلامه لم يزد من مصداقية الأمر، فقد وجدت هي ثياب سجناء، مليئة بنثارة الخشب للحفاظ على دفء الجسم، وبقايا بشر بلا وجوه ولا أسماء، باستثناء واحد فقط، وربما هذا مجرّد أمارة جاءت من الخارج ما لم تكن تحمله داخلها، أما وجهه، فيمكنها أن تتصوّره لا أكثر من ذلك.

- 2 -

قالوا إنها قوية وتظهر عليها أمارات التعافي، وبدا أنهم يعنون ما يقولون، سواء طاقم المستشفى، أو المرضى الآخرون الذين اعتقدوا أنها موظّفة في المستشفى.

الطبيب الذي لا يبتسم، كعادته، بقي يستمع إليها بودٍّ، وبدأ يدعوها بالمرأة المُتميِّزة. طلبت إنغريد توضيحاً لهذا اللقب. فارتبك وغمغم بعبارات لم تفهمها، فاختارت أن تركّز على لقب «امرأة»، الذي جعلها تبتسم، لأنها لم تكن معتادة عليه، فنظرت إلى نفسها وأحنت رأسها بخجلٍ، وإن لم يكن هذا السلوك بفعل ذكرى ما، طيف صورة، أو لأنها انحنت لتلتقط قلم الرصاص الذي سقط من يدها عندما كانت على وشك أن تبتسم؟

سألها ما الذي تكتبه.

لقد كتبت إنغريد رسالة، وطلبت منه أن يرسلها بالبريد. فهزَّ برأسه وقال إنها ستغادر المستشفى قريباً وتعود إلى حياتها الطبيعية، لكنه غيَّر رأيه وأخذ الرسالة. كانت إلى سوزانا، التي عدّتها في ما مضى بمنزلة ابنتها، لكنها تخلّت عنها.

طلب منها أن تعطيه قلم الرصاص.

أعطته القلم.

وضع بعض الإشارات، وعندما فرغ من القراءة قال لإنغريد إنها قاسية جداً على الناس الذين تحبهم، ودون أن يبتسم، كعهده أيضاً، أخبرها أنها ارتكبت بعض الأخطاء الإملائية، وقد سمح لنفسه بتصحيحها.

ابتسمت إنغريد وقالت إنها لم ترتكب قطّ أي خطأ إملائي منذ أيام الدراسة. أمسك الطبيب بالرسالة ثانية وأطلق همهمات إعجاب، وكرّر عبارته «امرأة مُتميِّزة» -ولاحظ أنها قد محت كل الخطوط التي رسمها تحت بعض الكلمات- ثم أضاف إنها ذكيّة، لكن بطريقة حدسية أكثر منها تأملية أربكته هو نفسه.

ضحكت إنغريد وسألته ما إن لم يكن هو الأحمق.

لم يُضحكه تعليقها، لكنه بقي جالساً لأن لديه أمراً آخر يناقشه معها؛ فقد تسلّم بعض النقود التي ينبغي أن يعطيها لها، ورسالة من قسّ أبرشيّتهم، المدعو يوهانسن مالبيرغيت، الذي لم يكن راغباً في إعطائها لها من قبل خشية أن يزيد في تشويشها، بالنظر إلى ظروفها المربكة، ومن الواضح أن القسّ قد استدان النقود من والدها، ويطلب في رسالته عفوها لأنه قد أمل بعد كل تلك السنوات من وفاة والدها ألّا يتذكّرها أحد، وأخيراً قرّر أن يحسم الأمر ويتحرّر من دَيْنِهِ.

قال الطبيب إن هذا «بغيض».

«بغيض؟».

شرح لها الطبيب معنى الكلمة، فأغمضت إنغريد عينيها، وتذكّرت

كيف أن قسّ أبرشيتهم العجوز اختفى عندما اندلعت الحرب؛ واصطحب معه زوجته وولديه المراهقين، مرَّ في عينيها المغمضتين كظلٍّ غير واضح المعالم كان له تأثير كبير على حياتها في ما مضى. والآن تراه يختفي ثانية، مثلما اختفى من قبل، وقالت إنها تريد أن تعرف كم كان عدد ضحايا السفينة.

قال الطبيب: «أنت سريعة التنقّل بين المواضيع. أيّ سفينة تقصدين؟».

«ريغيل».

«آه، نعم. لم يعلنوا عن عدد الضحايا».

وهذه، بالمناسبة، واحدة من الأفكار التي ينبغي أن تنساها.

نهض الطبيب، وبقي واقفاً ويده على رأس السرير، وكرّر كلامه عن ضرورة ألّا تقسو في رسالتها على سوزانا إن أرادتها أن تعود. ثم أضاف إنها ينبغي أن تسمح للعجوز إنغفالدسين أن يجلس في غرفتها، لأنها ستغادر المستشفى، أما هو فليس لديه مكان يذهب إليه إضافةً إلى أنه لن يتذكّر شيئاً، أيضاً، وهذا أمر جيّد.

سألته إنغريد عما قد حدث لإنغفالدسين.

فأجابها: «اسأليه أنت». وعندما حدجته قال: «لقد فقد زوجته وأولاده الثلاثة، وأخاه، عندما قُصفت المدينة. انتشلهم بيديه من تحت الركام، ومنذ ذلك الوقت وهو هنا في المستشفى».

قبلت إنغريد هذا التوضيح، لكنها فكّرت أنه لا بدّ من وجود المزيد، ليس لأنه لم يكن كافياً، بل لأنه لا بدّ من وجود المزيد دوماً، وإلا لا وجود لأي شيء، غير أنها عجزت عن التعبير عن تلك الفكرة، بصرف النظر

عن وضوح تلك الظلال التي طفت داخلها ثم غاصت فجأة. شكرته لأنه أخبرها بقصة العجوز، ووعدت أنها ستسمح له أن يجلس في غرفتها، وستبقى تُشَبِّهه بجدّها، بيديه الكبيرتين جداً، اللتين لم تفارقاها البتّة.

فتحت إنغريد عينيها في الغرفة البيضاء، ثم نظرت من النافذة إلى شجرة عيد الميلاد، التي كان نهارٌ أسود قد امتصّ نور أضوائها الثلاثة والعشرين والنجمة في قمّتها، لقد ابتلعتها الظلمة كلياً، ببطء شديد، حتى إن إنغريد لم تعد واثقة ما إن لم تكن قد اختفت، لكنها بقيت قادرة على رؤيتها، إنه شهر كانون الثاني.

كان المطر يسوط النافذة، والثلج قد اختفى، والريح لا تتوقّف عن الصفير في فتحات التهوية. زحفت خارجةً من سريرها، ووقفت على رؤوس أصابعها في محاولة لإغلاق فتحة التهوية عندما انفتح الباب ودخل العجوز إنغفالدسين، بضمادة على رأسه الحليق، وجلس على الكرسي بجوار النافذة، وراح ينظر عبرها إلى ضوء النهار الذي ما عاد موجوداً. تقدّمت منه إنغريد ونزعت الضمادة عن رأسه، وقالت له إنه لم يعد في حاجة إليها، لأنه لا يوجد جرح في رأسه، بل إن ذهنه وأعصابه هما المشوَّشان. فابتسم بمكرٍ وقال إنه يعرف ذلك، لكنهم ما زالوا يضعون له الضمادة على رأسه كلّما طلب منهم، بارك الله فيهم!

أعادت إنغريد الضمادة مكانها، وسألته ما إن كانت قد وضعتها في المكان الصحيح.

«نعم، تماماً»، قال بعد أن تلمّسها برؤوس أصابعه، وألصق وجهه بزجاج النافذة، وأسدل ذراعيه عن جانبه، وراح يحدّق في المطر.

قالت إنغريد: «ليس هناك ما تراه في الخارج».

«بلى، إني أرى شيئاً».

«ما هو؟».

«انظري بنفسك».

أدارت له ظهرها، وجلست على حافة السرير، ثم قوّست ظهرها إلى الوراء حتى كاد جذعها العلوي يلامس أرضية الغرفة، ثم مدّت ذراعها الأيمن، أمسكت الحبل، ورفعت جذعها ثانية، ساحبةً الحبل، وبقيت على هذه الحال حتى انفتح الباب ودخلت إحدى الممرّضات، واسمها إيفا صوفيا. وبصوتٍ فاجأها هي نفسها، سألتها إنغريد ما إن كان بوسعها الحصول على فنجان قهوة.

قالت إيفا صوفيا بامتعاض: «أنت لست في مطعم»، ثم استدارت لتخرج، لكنها رأت صينية فيها بقايا وجبة الفطور على الطاولة بجانب السرير، فعادت وأخذتها، ثم قالت لإنغريد إن بوسعها أن تذهب إلى غرفة الخدمة وتطلب منهم بعض القهوة.

شكرتها إنغريد، وهي ما تزال مستلقية في الوضعية ذاتها، وقالت بالصوت الغريب ذاته إنه اليوم السابع من كانون الثاني. فابتسمت إيفا صوفيا ابتسامة صفراء، ثم مشت إلى جدول معلّق بجوار النافذة، وازنت الصينية على رؤوس أصابع يدها اليسرى، وباليمنى وضعت إشارة على خانة اليوم والساعة والتفاصيل التي ينبغي على إنغريد أن تتذكّرها، تفاصيل حياتها التي لا تقول لها من كانت في ما مضى فحسب، بل من تكون أيضاً، وهكذا بوسعها أن تعيش مع نفسها، وبدا الجدول مثل الكلمات المتقاطعة.

تمتمت إيفا صوفيا: حسناً، حسناً، وتركت القلم من يدها ليتدلّى

متأرجحاً مع الخيط المثبّت إلى الجدار، ثم خرجت من الغرفة، ولحقت بها إنغريد.

في غرفة الخدمة، حصلت إنغريد على فنجاني قهوة، ودردشت مع أربع ممرّضات كنَّ هناك، كانت تعرفهنّ بالاسم، ثم خرجت من الغرفة، وسارت في الممرّ شبه راقصة، وعندما وصلت إلى الغرفة 27 استدارت ودفعت الباب بمؤخّرتها، وفي اللحظة ذاتها شاهدت على الحائط أمامها، في الممرّ، بقعة دم حمراء، ثم انقذفت على الجدار بفعل انفجارٍ عنيف وتحطّم زجاج.

- 3 -

فتحت إنغريد عينيها في غرفة بيضاء أخرى تشبه الأولى، لكنها الآن مستلقية على بطنها، وتعاني من ألم في ظهرها ومؤخّرة رأسها بسبب شظايا الزجاج التي أخرجوها بالملقط. ثم خاطوا مكانها بالعديد من الغرز السوداء المتقاطعة، والتي بوسعها رؤيتها بواسطة مرآتين يمسكونهما لها، لكن الطبيب المعالج هو ذاته.

سألها الطبيب ما إن كانت قادرة على سماعه، فأجابته برمشة من عينيها.

بدأ يخبرها عما جرى بتفاصيله الدقيقة، التي ما زالت إنغريد تتذكّرها بدقّة لأنها كانت تفوق احتمالها، وأخبرها بعدئذٍ أن كاسحة ثلج سارت فوق قنبلة من مخلّفات القصف على المدينة. فتضرّر جناحٌ كامل من المستشفى، وتوفّي شخصان وأصيب أحد عشر شخصاً بجروح.

فصرخت إنغريد في وسادتها: «لم يكن الثلج يهطل!».

جلس الطبيب على كرسي مقابلها، فأصبحت قادرة على رؤية وجهه عندما يرفع رأسه. وأخبرها بهدوء كأنه يتحدّث إلى طفل، بنبرة احترام غريبة في صوته، أنهم لم يكونوا يجرفون الثلج، بل يسحبون الكاسحة، وقال لها إن الجراح في ظهرها ورأسها سوف تشفى.

دفنت وجهها في الوسادة البيضاء المنشّاة، النظيفة والمباركة، وسألت عن إنغفالدسين، وفهمت من صمت الطبيب أنه من بين القتلى، فأغمضت عينيها ثانية.

قرَّب الطبيب كرسيَّه من السرير، أمسك رأسها بيديه ورفعه عن الوسادة.

راح يبحث في عينيها، وهي تبحث في عينيه عارفة، دون أن تضطر إلى سؤاله، أنه يدعى فالك يوهانسن، لكنه يُفضِّل أن يُعرف باسم إريك فالك، وهذا لأن لديه أخاً، وهو طبيب أيضاً، ولا يريد في أيّ حال من الأحوال أن يربط الناس بين الاسمين، لأن أخاه، كما أسرَّها ذات مرة بشبه ابتسامة، يتعاون مع الألمان.

ثم غمغم قائلاً لها إنها من الآن فصاعداً ستتحسّن ذاكرتها.

أرادت أن تحتجّ -لكنها استيقظت بجانب المقعد على أرضية المطبخ في بارأوي ورأت يده تتدلّى من الأعلى باتجاه وجهها لتلامسه- تضرّعاً. أمسكت بها ونهضت، وشعرت بتيبّس مفاصلها، وخَدرٍ عميق في كلّ خلية من خلاياها. ثم صعدا معاً إلى الصالة الجنوبية وناما جنباً إلى جنب، وهما يستمعان كلٌّ إلى أنفاس الآخر. ناما واستيقظا وقد ذهبت عنهما الحمّى، لكنهما بقيا مستلقيين، ولم يكن هناك ما يقال، لا أسرار ولا محاولات إقناع، ولا صلوات، كانا صامتين، تواصلا دون كلام في هذا اليوم قبل الأخير.

نهضت وطبخت طعاماً. أكلا، تضاجعا، ثم ناما.

سألته لماذا لم يستطع البقاء في مخبئه في جيس أوي. لكن جسديهما كانا حارّين جداً، فناما متلاصقين ساعة بعد أخرى، وعرفا ما ينبغي أن

يحصل. انسلَّ من السرير، لبس ثيابه، ثم نزل وطبخ طعاماً، وصاح عليها عبر الفتحة في أرضية الصالة كي تنهض وتلبس ثيابها، لم يكن هناك أي لَبسٍ في نيّته.

ارتدت ثيابها ببطءٍ كي لا يفوتها أيّ تفصيل من طريقة لبسها المعتادة، تزرير الأزرار في عُراها، ربط الشريطة، قذف شعرها إلى الأمام وفصله في ثلاث خصلٍ تستطيع أن تضفرها بأصابع تتقن ما تفعله حتى في الظلام، قبَّلت نهاية الجديلة، التي تشبه المكنسة، ثم رمتها إلى وراء ظهرها بحركتها المعتادة.

عندما نزلت إلى المطبخ، رأته يحدّق في الأوراق التي أعطاها لها الجنود عندما صادروا أسلحتها، وبدا أنه يفهم المكتوب فيها، وتوقّف عن القراءة عندما دخلت.

فسألته فوراً: «ألماني؟».

هزَّ رأسه نافياً – من المحتمل جداً أن ترى روسياً تعلّم الألمانية في أرض يحتلّها الألمان أكثر من أن ترى ألمانياً تعلّم الروسية في البلد ذاته، قالت إنغريد هذا بصوتٍ عالٍ، وبدا، من جديد، أنه قد فهم كلّ كلمة قالتها.

بعد أن فرغا من أكل الطعام، أرادت إنغريد أن تنصرف إلى حياتها اليومية المعتادة، فأمسكها وجرّها إلى الوراء، وقال: لينينغراد، وأكاديمية، ومهندس، وقد قال لها هذا الكلام من قبل، لكنه حفر واستقرّ الآن في وجدانها كإيمان وقناعة راسخين. فجلست ووضعت بينهما دفتر الرسم من أيام المدرسة: أكواز الصنوبر المخروطية التي تشبه المحار، الزهور، والقوارب والجبال، فكتب رقم 22، ربما كان يشير إلى عمره أو تاريخ يوم

ميلاده، لكن ذلك لم يصنع أيّ فارق، وبما أن طريقيهما قد يفترقان في أيّ لحظة، فقد طلبت منه أن يكتب المزيد.

أمسك القلم بيده اليسرى مثل سهم مسدّدٍ، ثبّت رأسه على الورقة، ثم بدأ يكتب شيئاً لم تستطع أن تفهمه ولا أن تقرأه. لقد أذهلها كيف كتب ببطءٍ، سطراً، ثم آخر، مثلما يكتب أيّ شخص لغته الأم، ثم وضع القلم تحت السطر الأخير، كأنه يشدّد على كلّ ما كتبه، أو أنه يشطبه.

أدارت الدفتر صوبها، ولاحظت أنه قد بدأ كل سطر بالأحرف ذاتها، وبالترتيب ذاته، ولاحظت أنه قد كتب مقطعاً من ثلاثة أسطر لا تتشابه فحسب، بل إن كلّ سطر منها هو نسخة مما سبقه، فسألته ماذا يعني هذا؟

فضحك وأزاح الدفتر جانباً.

جلست إنغريد ونظرت إليه بثبات، حتى اضطرّت أن تُشيح وجهها وتنظر عبر النافذة. قالت له إن الطقس في الخارج هادئ وغائم قليلاً، وإن تلك أمارة وليس الطريقة التي وضع بها قلمه، وقد فهم ما قالته.

صعدا إلى العلّيّة، واستلقيا متلاصقين بلا حراك.

نهضا، ألبسا أحدهما الآخر. كانت حقيبة الظهر مُعدّة ومليئة، فقد أعطته كل ما لديها من نقود، وقسائم الحصص التموينية، وسكّيناً وبوصلة؛ ونبّهته إلى ضرورة الانتباه إلى التيار، وأن يقرأ الأمواج واتجاهها وإيقاعها، وأنه سيستغرق أربع ساعاتٍ أو خمساً للوصول إلى اليابسة، خصوصاً أنه قد تعلّم التجديف واستخدام الشراع، أما الليلة فيبدو أن الرياح قليلة وسيضطرّ إلى التجديف.

قالت إنها علّمته ذلك كلّه، سابقاً، على أمل أن تكون لديه الفطنة الكافية ليهرب ذات يوم بينما هي نائمة، لكن لحسن الحظ أنه لم يفهم

ذلك، أو أنه اختار ألّا يفعله. كتبت شيئاً على ورقة في الدفتر، ثم انتزعت الورقة وطوتها، ثم وضعتها في جيب سترة صيد والدها التي يلبسها هو الآن، ويبدو فيها مثل بحّار متمرّس، وفي الورقة ما يحتاجه للحصول على مساعدة من الناس الطيّبين، الذين سيتفهّمون وضعه، وهكذا يستطيع أن يعبر البلد والقارة سيراً على الأقدام حتى يصل إلى أرض طفولته، ويقف أمام أمه لترى أنه ما يزال على قيد الحياة، وكلّ ما عليه أن يفعله هو أن يسرق القارب والنقود ويهرب بينما هي نائمة، لأنها غير قادرة على توديعه.

لم يفعل ذلك أيضاً - ولهذا يخرجان الآن معاً إلى الصمت، ينزلان إلى سقيفة القارب ويُخرجان القارب رباعي المجاديف، كانت ابتسامته مثل إسفين أبيض في العتمة الحالكة؛ على جزيرة ينكمش فيها الزمن ويتسمّر في مكانه، ليس لديهما ما يقولانه، القارب طافٍ، والقمر بدرٌ هائل، وهي مضطرّة مرّةً أخرى أن تشير إلى الفجوة بين سلسلة التلال الوعرة على اليابسة، التي يمكن رؤيتها فقط أسفل الأسلاك الشائكة المكهربة لكاسيوبيا، قبل أن تتلاشى إلى اللون الرمادي، وكم درجة على البوصلة، والتيّارات، والأمواج التي تغيّر اتجاهها بالقرب من الشاطئ.

يهزّ برأسه.

ضَمَّةُ الفراق مستحيلة، يركب القارب ويجلس على مقعد التجديف، يمسك المجدافين بيديه المشوّهتين، ويربط حول معصميه الشريط الذي علّمته كيف يستعمله، ويبدأ التجديف، يستريح فوق المجاديف ثم يصرخ بشيءٍ ما، ويتابع التجديف. لا صوت لإنغريد، ولا هي مرئية، والريح قد هجعت في محارة البحر وبقيت هناك طوال الليل، لا شيء يحدث ولا شيء قد حدث.

لقد رأى الطبيب، الذي يكره اسمه الجيّد، دموعاً من قبل، لكنه لم يرَ الكثير منذ أن اجتاز امتحاناته في البؤس، لكن منذ متى؟ لم يَعُدّ السنين، حتى الطبيب أيضاً يريد أن يتذكّر وينسى. يبقى جالساً في كرسيه، طوال الوقت الذي استغرقته إنغريد لتراه ثانيةً بعينين جافتين، العينين ذاتهما اللتين اعتقدت أنهما قد جفّتا منذ دهرٍ.

تقول إنها تتمنّى لو أنها هي، وليس العجوز إنغفالدسين، من كانت جالسةً بالقرب من النافذة، عندما انفجرت القنبلة الموقوتة، في ذلك اليوم غير المثلج.

يقول إريك فالك إنه لا يؤمن بالخرافات ولا بالله ولا بالعناية الإلهية، لكنها تأخذ ذلك كأمارة على أنها على قيد الحياة وسوف تبقى حيّة، وأن لا أحد يعيش بلا معنى، وهناك معنى في مجرّد كونك على قيد الحياة، لقد نجح في تنميق الكلمات. ورغم أنه أجاد التعبير، غير أنها تعتقد أن لا معنى لكلامه هذا، فنظرت إليه باحتقار ليس من طبعها، وسألته بصوت غريبٍ عنها -ولم تستطع احتمال نبرته- ما إن كانت قد حاولت الانتحار عندما وجدوها في الجزيرة، ضابط الشرطة هنريكسن وذلك الملازم، الذي يُدعى، هل كان اسمه هارغل؟

ينظر إليها إريك فالك بدهشة ويقول إنه لا يعرف، ثم يضيف -في الواقع- إنّ ذلك ما كان ليفاجئه.

تسأله ما الذي لن يفاجئه؟

«أنكِ قد حاولتِ الانتحار».

فتسأله ماذا يُفترض أن يعني ذلك؟

فيقول: «أنت تتلاعبين بي».

«كلّا».

«لكنك لن تكرّري المحاولة!»، يقولها بطريقة حاسمة تجعلها تبدو كضمانة أكثر منها أملاً عقيماً، فتسأله إنغريد ما إن كان هذا يعني أن الرجلين قد أنقذا حياتها؟

يقول إنه لا يعرف هذا أيضاً، فتستطيع أخيراً أن تطرح سؤالها الحاسم: «هل وجدا دفتر رسوماتها في المطبخ؟».

يتشوّش تماماً.

تغمض إنغريد عينيها وتتجوّل في تلك الأيام المظلمة؛ تستعرضها منذ يوم وصولها إلى المستشفى حتى هذه اللحظة، حتى لغز الكلمات المتقاطعة في الورقة المعلّقة على الجدار حفظته عن ظهر قلب، حتى الأرقام الفارغة للأيام، لكنها لا تتذكّر ما إن كانت قد خبأت دفتر الرسم بالأسطر الثلاثة المكتوبة فيه باللغة الروسية، وهذا أحد تفاصيل اليومين أو الثلاثة أيام المعتمة في ذاكرتها.

تعيد عدَّ الأيام، وتبقى النتيجة ذاتها، يومان أو ثلاثة أيام لا بدّ من أنها كانت في بارأوي، وينبغي أن تعود وتبحث هناك. ويقول الطبيب إريك فالك إنه الأمر ذاته الذي لم يتوقّفا عن الحديث عنه. تحاول إنغريد أن تتنفّس الصُّعداء، أو أن تهيّئ نفسها لشيء على وشك الحدوث، في اللحظة ذاتها يسألها لماذا لم تنضمّ إلى ذلك الروسي، عندما غادر الجزيرة، وتساعده؟

تشعر بشبكة عنكبوت على وجهها، وتقول إنهم عندئذٍ كانوا سيجدون بارأوي فارغة ويرتابون في غيابها.

يقول إنّ هذا التبرير غير مقبول.

تطأطئ رأسها وتقول: «كلّا، وهذا هو الأسوأ».

«إنك لم تكوني واثقة منه؟».

«أجل»، تقول إنغريد وتشعر أنها تستطيع أن تختبئ مرة أخرى، أنها لا تعرف بعد الفارق بين ما ينبغي تذكّره وما ينبغي نسيانه.

يضع يده على كتفها، ويطيل النظر في وجهها، ثم يخرج، لكنه يعود قبل انتهاء نوبته ويقول: «سيزيلون الغرز من جراحك غداً. يمكنك أن تغادري المستشفى يوم الجمعة. وقد أمَّنت لك توصيلة على متن باخرة لنقل اللاجئين».

- 4 -

تزيل إيفا صوفيا الغرز من جراح إنغريد، وبواسطة مرآتين، تساعدها على رؤية تقاطعات وردية صغيرة في بشرة ظهرها البيضاء، وذلك المكان الحليق في مؤخّرة رأسها، الذي تنجحان معاً في إخفائه تحت ضفيرة جديدة، أو ضفيرتين، تشبكانهما معاً. وتقول لها إيفا صوفيا إنها ينبغي أن تبدأ بارتداء حمّالة صدر، على الأقل عندما تكون بين الرجال، كما هي الحال في هذه الرحلة إلى الجنوب، فقد رأت إيفا صوفيا هذا النوع من البواخر وهي ليست بواخر مثالية لتسافر على متنها.

موعد الاستحمام اليومي في غرفة الحمّام هو الذي أوحى لإيفا صوفيا بهذه الفكرة: ففي كلّ صباح تنزل إنغريد مع امرأتين كبيرتين بالعمر، آدا وسيغني، من الجناح ذاته، وكلاهما بشعر طويل رمادي أشبه بالقشّ، وتقع غرفة الحمّام في الطابق الثالث تحت الأرض، وهناك يخلعن ثيابهن في غرفة تبديل ملابس باردة، بجدران بيضاء ترجّع الصدى، ثم يقفن في غرفة الحمّام بين أنابيب فولاذية أفعوانية الشكل ترشّهن بالماء الساخن جداً من كل الاتجاهات، ومن الأعلى أيضاً. مثل المطر. وهذا ما تسمّيه إيفا صوفيا دوشّاً، وتتحدّث عن أهمية وقوفهن لمدة أربع دقائق تحت الماء الساخن،

والدوران مثل راقصات الباليه رغم أن الماء يأتيهنّ من كل الاتجاهات ولا ضرورة لحركتهن، بينما تمسك إيفا صوفيا بصنبورين أزرق وأحمر، وتتحكّم بتدفّق الماء مثل سائق يمسك بمقودين، وتتحقق من التزامهن بتعليماتها بخصوص غسل أجسادهن بالصابون وشطفها جيّداً خصوصاً عند منطقة العانة، والإبطين، والشعر، وبعد ذلك عليهن تجفيف أجسادهن بمناشف نظيفة وقاسية تجعل بشرتهن وردية وحارقة. آدا وسيغني أكثر خجلاً من إنغريد، ولهذا السبب لا تتأقلمان مع غرفة تبديل الملابس الباردة، ولا الماء الساخن، لكنهن هنا معاً، تمرحان وتضحكان مثل فتاتين صغيرتين.

إنغريد التي اعتقدت أنها شخص نظيف، لم تعد تشمّ رائحة جسدها منذ أن ضرب الموت جزيرتها، وتحتّها دغدغة الماء المتدفّق بغزارة على رفع ذراعيها عالياً، وفرد أصابع يديها في تلك الثريّا المعدنية التي تُمطرها بالماء مثل سحابة، ثم تدور وتدور أكثر مما تتوقّع منها إيفا صوفيا، التي تغلق صنبور الماء الساخن بسرعة، لتجبر إنغريد على مغادرة غرفة الدوش هرباً من الماء البارد وهي تُطلق صراخاً لا يخلو من المتعة، فالدقائق الأربع قد انتهت.

في غرفة الدوش، تلاحظ إيفا صوفيا أن ثديي إنغريد أكبر من ثدييها.

لا تجادلها إنغريد في الأمر، خصوصاً أن الودّ بينهما مفقود، كما أن إيفا صوفيا تعتبر الحرب كارثة شخصية، وتصرّ على أنها تكبّدت أكبر الخسائر بسبب الحرب، فقد فقدت حبيبها، وذهبت دراستها في معهد السكرتاريا أدراج الرياح بسبب هذه الحرب الجهنمية. وبوسع الجميع أن يروا صورة الرجل الذي فقدته إيفا صوفيا في الجبهة الشمالية في بداية الحرب، فهي

تحمل صورته في جيب صدر سترة التمريض الرسمية، إلى جانب الساعة، وقلم الرصاص الذي تحمل نهايته آثار أسنانها وأحمر شفاهها، وتريها لمن يريد أن يراها ولمن رآها سابقاً: صورة غير صقيلة لشابٍّ صغير يقف بعيداً في مرجٍ من الحشيش، ولا أحد يستطيع أن يميِّز ما إن كان يضحك أو يبكي. كانَ أكبر من إيفا صوفيا بعشر سنوات، بينما إيفا تكبر إنغريد بعام واحد، وتقول دوماً إنها ليس لديها أبناء، تحب ترديد هذه العبارة أيضاً فقط من أجل أن تشدّد على مأساتها الشخصية بسبب هذه الحرب.

عندما لا تكون إيفا صوفيا في العمل، في نوباتها اليومية في المستشفى، تُمضي وقتها في بيتها الذي أُعيد ترميمه جزئياً بعد القصف، وتخبز الكعك من الدقيق المنخول والسكّر وبعض المكسّرات المفرومة، التي تأخذها، أو تسرقها، من مطبخ المستشفى. تأخذ الكعك معها إلى العمل وتوزّعه هناك كما لو أنها تحقنهم بإكسيرٍ شافٍ. يحبّها المرضى ويهابونها بالقدر ذاته، أما زملاؤها في العمل فقد تعوّدوا عليها. والكعك شهيّ، حلو المذاق، بمكوّناته من المكسرات وحبيبات السكر الخشنة التي تشبه بلّورات الجليد المحترقة.

هذه المرّة، جاءت إيفا صوفيا بحمّالة صدر مع أسلاكها الداعمة، وتبيّن أنها ضيّقة على إنغريد، وإن لم تكن أضيق مما توقّعت إيفا صوفيا عندما خمّنت الفارق بين حجم أثدائهما، لكنها ضيّقة كفاية كي لا تحتملها إنغريد في البداية، لأن الجروح في ظهرها ما زالت تؤلمها؛ فأعادتا توضيبها في حقيبة زرقاء صغيرة، كانت إيفا صوفيا قد أحضرتها معها من البيت، وأعادتا الزوايا النحاسية الثماني إلى مكانها على زوايا الحقيبة، إضافةً إلى مشدّ بطن ذي لون بنّي فاتح.

وأعطتها إيفا صوفيا أيضاً جلد عجلٍ رماديّاً فاتحاً من النوع الذي يلبسه كلّ المرضى عندما يجري نقلهم من جناح إلى آخر، وبضعة مَرايِلَ، لاحظت إنغريد أنها غير مستعملة، لكنها قبلتها على أيّ حال، وكنزة، وأربعة جوارب، وخمسة شالات للرأس، وقبّعة مطرية، وبعض السراويل التحتية، التي قالت إيفا صوفيا إنها ما عادت بحاجتها، رغم أنها سراويل جديدة. وبكت إيفا عندما لبست إنغريد صباح يوم الجمعة زيّاً عادياً، لم يبدُ لها ولا للآخرين، أنه يناسبها، باستثناء آدا وسيغني اللتين جاءتا لوداعها أيضاً.

سألت إنغريد إيفا صوفيا: «على ماذا تنوحين؟!».

«لا أعرف»، قالت إيفا، وأعطتها علبة معدنية مدوّرة مليئة بالكعك، على غطائها رسومات أطفال لشجرة عيد الميلاد، وأحصنة خشبية هزّازة، فحملتها إنغريد تحت إبطها لأن حقيبتها اليدوية لم تتسع لها.

- 5 -

توزَّع القسط الأول من رحلتهما على حافلة وشاحنة، تلك هي المرة الأولى التي تركب فيها إنغريد واسطة نقل آلية، إلا إذا كانت قد وصلت إلى المستشفى بالآلية ذاتها، وهذا هو السؤال الذي تطرحه على نفسها الآن، هي وثلاث نساء أخريات لا تتذكّرهن، كما أنها لا تتذكّر أيضاً أيّ ثياب كانت ترتدي.

ظهرت المدينة مُدمَّرة ومحروقة، وتحاول عبثاً أن تنهض ثانية، من تحت نصف متر من الثلج المتساقط حديثاً، فبدت مثل منظر طبيعي لجبلٍ وعرٍ. خاضوا في الثلج في ما كان من قبل شارعاً رئيساً في المدينة، إنغريد وممرّضتان والطبيب إريك فالك، الذي سيستلم مريضاً قادماً على متن الباخرة ذاتها التي ستغادر عليها إنغريد، وقد علمَتْ إنغريد أنه لا يقوم عادةً بهذه المهمّة.

حمل الطبيب حقيبة إنغريد بيدٍ، وثبّت قبّعته على رأسه باليد الأخرى، وراح يتذمّر من الطقس، وسارت إنغريد بجانبه وقد رفعت رأسها عالياً لتتلقّى الثلج الناشف على وجهها من جديد. كانت تلفّ رأسها بوشاحين

وفوقهما القبّعة المطرية التي أخذتها من إيفا صوفيا، وتنتعل في قدميها حذاءً قويّاً، كبيراً تحتاج إلى لبس ثلاثة جوارب أخرى لملئه.

وفيما هم واقفون على الرصيف، يترصّدون الباخرة وسط سديم يملأ حوض المرفأ، قال إريك فالك فجأة إنهما ينبغي أن يتصوّرا أولاً.

حدّقت إنغريد فيه، وكان البرد قد وسم وجهيهما بحمرة شديدة جعلت من الصعب عليها أن تقرأ تعابير وجهه، وكانت الممرّضتان تنظران في اتجاهين مختلفين.

«في هذه؟» قالت إنغريد وأشارت إلى ملابسها.

هزَّ برأسه وقال إنه يوجد استوديو تصوير على الناصية بالقرب من المرفأ، والمُصوّر في انتظارهما، وهو يريد الصورة تذكاراً.

«تذكاراً مني؟!».

لم يستطع أن يقول لها «أجل».

تركا الممرّضتين على الرصيف، ودخلا عبر باب يغطّي زجاجه بخارُ الماء المتكثّف، ومن ثم إلى غرفة صغيرة، خضراء اللون، على طول أحد جدرانها وأمامه منضدة قصيرة عليها مزهرية فارغة، وبجانب الجدار الآخر موقد أسود أسطواني الشكل تهمهم ناره بقوة. أُزيحَتْ ستارة متدلّية وراء المنضدة، ودخل منها شابٌّ ذو شعر أسود رطبٍ، مسرّح بعناية، وعلى كُمَّيه أربطة حمراء مطاطية، صافح الطبيب، لكنّه لم يصافح السيّدة، بل حيّاها بإيماءة صغيرة من رأسه.

رافقهما إلى بستان تفاح مزهر، عند غروب الشمس، من الورق المقوّى المثبّت على كامل جدار غرفة التصوير. طلب منهما الوقوف أمام بستان

التفاح، وأن يضع كلٌّ منهما يده على ظهر كرسي الروكوكو(*). كما طلب منهما أن يحافظا على مسافة بينهما، لا تزيد عن عرض الكرسي. خلعت إنغريد القبّعة المطرية، والوشاحين عن رأسها، وجلد العجل الرمادي الفاتح، ونفضت الثلج عن ضفائرها بينما أخذ المصوّر يجري استعداداته من وراء حامل الكاميرا؛ وعندما رفعت ذقنها لتركّز وضعيتها، انحنى إريك فالك فوق الكرسي وهمس في أذنها إنها في نهاية المطاف محظوظة جداً، فهي قد عرفت طعم الحب، بينما لم يعرفه هو.

شعرت إنغريد بأنفاسه، ونظرت إليه في اللحظة التي أدار هو وجهه لينظر إلى الكاميرا، ولمع فلاش الكاميرا، فكان لا بدّ من التقاط الصورة مرة أخرى.

حدّقا بتركيزٍ إلى الجهة التي أشار إليها المصوّر، بينما راح الثلج يذوب عن ملابسهما ويتساقط على أرضية بستان التفاح بصوتٍ مسموع بوضوح، قبل أن يلمع فلاش الكاميرا، وبقي مسموعاً أيضاً قبل أن يلمع الفلاش للمرة الثالثة، ثم استوى المصوّر بجذعه من وراء الكاميرا، وهو يعضُّ شفته السفلى ويقول: «هل نلتقط صورة أخرى؟!».

أومأ إريك فالك يوهانسن موافقاً. وكان ذهن إنغريد في حالة عطالة. حدّقا مرّةً أخرى في عدسة الكاميرا، وانتظرا وميض الفلاش الأخير ولم ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر، عندما صفّق المصوّر بيديه البيضاوين وقال: «براڤو»، ولم ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر أيضاً عندما أخذا يرتديان الملابس التي خلعاها من أجل التقاط الصورة ويستعدّان للمغادرة.

بعد أن شكر إريك فالك المصوّر، وتحدّث معه عن طريقة الدفع

(*) كرسيّ مقعده من قماش زاهي الألوان، وعلى جانبيه وقوائمه منحوتات عديدة. [م]

وتوصيل الصور، خرجا إلى الثلج الغزير، وفجأةً أصابه إسهال كلامي، وراح يتحدّث بصوتٍ عالٍ في وجه الريح، ويقول إن قبطان الباخرة التي ستُقلّها إلى الجنوب رجل قويٌّ جداً، فهو ينقل منذ نصف سنة تقريباً اللاجئين من فينمارك إلى بلديات مختلفة على طول الساحل في الجنوب، وإنّ على إنغريد أن تكون مستعدّة لظروف الرحلة القاسية وللطقس السيّئ جداً. وغمغم أيضاً بأنه يأمل أن يتلقّى منها إشارة عن وصولها بالسلامة إلى بارأوي، ثم أضاف بما يشبه ابتسامة: «ودون أخطاء إملائية أيضاً!».

هزّت إنغريد رأسها. فأعاد سؤاله ما إن كان هناك من ينتظرها في البيت؟

«أجل، بالتأكيد»، قالت إنغريد مرة أخرى.

باخرة صيد الحيتان التي يبلغ طولها ستّين قدماً لا تشبه ذاتها الآن، بل تشبه مستودعاً عائماً يحمل بشراً كباراً وصغاراً يلبسون عدّة طبقات من الملابس يكادون معها لا يستطيعون الحراك، وهم واقفون، أو جالسون، أو مستلقون بين حقائب وصناديق، وقطع أثاث، وأكياسٍ، وفُرشٍ. وعلى قوس الباخرة ثمّة قضيبٌ خشبي كبير مُثبَّت بحوامل بندقية صيد الحيتان وقد وُضِعَ فوقه قماش مشمّع كبير، ومُدَّ على جانبي الباخرة، فأصبح مثل سقف خيمة، ومن تعداد الأحذية المرئية يمكن التخمين أن هناك عشرة أشخاص تحته. وكان هناك هرجٌ ومرج حول جندي ألماني يلكم رجلاً على وجهه حتى سقط على أرضية السفينة وهو يعول.

جاء قبطان المركب من قمرة القيادة راكضاً؛ بدا أنه قد فكّر في ضرب الجندي الألماني، لكنه ضبط نفسه؛ ولم يلاحظه الجندي الألماني الذي انحنى فوق الرجل الممدّد على الأرض ويعول، ثم سحب الرجلَ من قدميه إلى فوق شبكة تُستخدم لتحميل البضائع وتفريغها، وصاح بعبارة

بالألمانية على قبطان الباخرة الذي أدار له ظهره بازدراء واضح، وفي اللحظة ذاتها شاهد الطبيب إريك فالك وفريقه واقفين على الرصيف في الأعلى.

القبطان رجل في الأربعين من عمره، ذو لحية كثّة بلون الشوكولاتة، وشعر أسود كثيف وخَطه الشيب، رجل حاسر الرأس في برد صقيعي. يتجاهل القبطانُ الجنديَّ الألماني ويومئ بيديه إلى الطبيب متسائلاً.

يتلقى إريك فالك سؤاله، لكنه يردّ بإيماءة رأس غامضة.

هزّ القبطان كتفيه ثم توجّه إلى الرافعة وأنزل خطّافها. جرَّ الجنديُّ الألماني الرجلَ إلى فوق الشبكة ثم جمع زواياها الأربع، وعلّقها في خطّاف الرافعة، وبدأت عملية رفع الرجل، الذي يتلوّى من الألم، إلى الرصيف، حيث أخرجته الممرّضتان من الشبكة، أوقفتاه على قدميه، ووضعتا حول كتفيه جلد عجل رماديّ اللون مثل الذي تلبسه إنغريد. كان معلّقاً بين أيديهما والدم ينزف من أنفه، ومن جرح في رأسه. فحص إريك فالك جراحه، وسأله بضعة أسئلة. هزّ الرجل رأسه. أخذته الممرّضتان إلى الشاحنة المنتظرة. بعدئذٍ صعد الجندي الألماني إلى الرصيف، نفض الثلج عن بزّته الرسمية، وسلّم الطبيب لفّة أوراق، ثم أطلق جرعة هائلة من الغضب قبل أن يتوجّه إلى أقرب مستودع حيث تتمركز وحدة عسكرية.

«لا توجد دورية حراسة على متن المركب إذاً» -تمتم إريك فالك وهو ينظر إلى الأوراق بين يديه- «وهذا مثيرٌ للانتباه».

لم تكن إنغريد تسمعه.

كانت قد جثت على ركبتيها لتتفحّص السلّم، الذي صعده الجندي الألماني للتوّ، لكن البحر منخفض، والباخرة على بُعد أربعة أمتار تحت

سطح الرصيف، والجليد يغطّي درجات السلّم. فصرخ أحد البحّارة من الأسفل: «لن تنجح في نزول السلم! لن تنجح أبداً...».

نهضت إنغريد، حملت حقيبتها وعلبة الكعك ووضعتهما على الشبكة التي ما زالت على الرصيف، ووقفت بقربهما، ثم رفعت أطراف الشبكة، أمام نظرات إريك فالك الساخطة واحتجاجاته غير المسموعة، وعلّقتها إلى خطّاف الرافعة، وصاحت على سائق الرافعة أن يُنزلها إلى سطح المركب.

سألها ما إن كانت جادّة في طلبها ذلك؟

أكّدت له أنها جادّة.

ابتسم، وحرّك عتلة الرافعة، بينما إريك فالك يراقب الشبكة تلتمّ حول مريضته المتعافية، التي أدخلت أصابعها في عيون الشبكة وتشبّثت بقوّة. أخذت الشبكة ترتفع في الهواء وإنغريد في داخلها مثل قطعة بضاعة، وتتأرجح في الهواء وهي تُنزَل ببطءٍ فوق سطح المركب، وسط تهليل بعض الصِّبية الذين تجمّعوا حولها، وساعدوها على الخروج من الشبكة - وفي هذه اللحظة تذكّرت إنغريد أنها قد خبّأت دفتر رسوماتها في ذلك المخبأ في جدار الصالة الجنوبية، تحت لُحُف العيدر ودقيق الجاودر، وأنها كانت وحدها عندما فعلت ذلك.

وتذكّرت شيئاً آخر أيضاً: تذكّرت أنها قد وقفت في طفولتها على رصيف كهذا وشاهدت والدها يصل على قارب عمّها، وأنه كان يقف على متن القارب وينظر إليها في الأعلى، يبتسم ويفتح ذراعيه ويقول لها: «ينبغي أن تقفزي الآن». كانت في الثالثة، في الرابعة، في الخامسة من عمرها، وكانت تقفز دوماً، وهو يتلقّاها بذراعيه، دوماً.

أصابعها متيبّسة بسبب الصقيع. نفضت الثلج عن معطفها، وسألت قبطان الباخرة ما إن كان لديه قفّازات صوفية. فكّر قليلاً، ثم ذهب إلى قمرة القيادة، أنزل نافذتها الوحيدة، ورمى إليها بزوج قفّازات صوفية ثقيلين وخشنين، متيبّسين من دم السمك وأحشائه، لكنهما جافان ودافئان. لبستهما ولوّحت بيدها لإريك فالك، الذي كان يقف على الرصيف وينظر إليها في الأسفل بالتعبير ذاته الذي رأته مرات عديدة منذ أن بدأت تثق به، كما لم تثق بأحد من قبله، لكن لا أحد كامل.

رفع إريك فالك قفّازه الأيسر إلى مستوى خصره ولوّح لها به، وهو ينظر إلى البحر الهائج على الجهة الأخرى من حوض المرفأ، ثم ثبّت قبّعته فوق رأسه بيده اليمنى، استدار، واختفى في الثلج العاصف الذي كان يتساقط مثل الطحين فوق الباخرة وراكبيها، بينما يصيح قبطان الباخرة على الصِّبية الذين سحبوا حبال القطر ألّا يتركوها مكوّمة على سطح الباخرة تحت الثلج، بل أن يلفّوها جيّداً ويغطّوها، وأنه قد سئم من توجيه الملاحظات ذاتها، ولا أحد سيصدّق أنهم قد عملوا في البحر سابقاً، إلا إذا صدّقوا أن الحصان يطير.

- 6 -

مكتبة
t.me/soramnqraa

كانت سالتهامّر مزيجاً من باخرة صيد حيتان ومخزنٍ، وقد حصلت إنغريد على مكان على طبقتين من جلد الرنّة في حجرة داخلية، لتخزين طعوم الصيد، بالقرب من أمٍّ شابّة، تبكي كما تتنفّس، ومعها أربعة أطفال صغار لا يبكون. كانت فُتحتا تصريف المياه في أسفل الجدار على سطح الباخرة قد حُشيتا حديثاً، بقطع من الخيش، وملابس بالية، وثمّة طبقة من الجليد على حواف الفتحات من الداخل والخارج، باستثناء الفتحة المواجهة لمطبخ الباخرة التي يتسرّب بعض الدفء عبرها. في الجهة الداخلية ينام أنتي، عمره سنتان، وميكل، عمره أربع سنوات، والبنتان إيلين وسارة، خمس سنوات وثماني سنوات، ينمن رأساً وعقباً، والأم البكّاءة آنيا، وكان على إنغريد أن تستلقي في الجهة الخارجية، مكان زوجها، الرجل الذي شاهدته إنغريد يتعرّض للضرب ويُرفع إلى الرصيف في الشبكة.

هذا هو اليوم السابع من رحلة العائلة. قبل ذلك، أمضيا الأشهر الثلاثة الأولى في كوخ طيني في سفوح فينمارك، ومع اقتراب عيد الميلاد ما عادوا يحتملون البقاء فيه، فنزلوا إلى حامية ألمانية، وهم يعتقدون أنهم

سيطلقون النار عليهم. بدلاً من إطلاق النار عليهم، وضعهم الجنود الألمان في شاحنة قطعت بهم ثلاثة أميال إلى مدينة هامّرفيست، المدمّرة كلياً، وهناك وضعوهم على متن سالتهامّر. شهر كامل لم يخلع أحدهم ثيابه، إلى أن وصلوا إلى حامية ألمانية في ريس أويهامن، قبل ثلاثة أيام، واستحمّوا جميعهم هناك.

سألتها إنغريد ما إن كان دوشاً.

هزّت آنيا رأسها.

وهناك تعرّض زوجها للانهيار الأول، فالأولاد ينجون بأنفسهم دوماً، قالت آنيا بلكنتها الحادة وهي تشدّد على كل حرف، بينما تقع الكارثة علينا نحن الكبار. وفي ريس أويهامن تخلّصوا من القمل، وحصلوا على طعام ساخن أيضاً. وقالت غريب حقاً كيف أن القمل لا يتجمّد حتى الموت عندما يتجمّد الإنسان ويموت، ثم بكت وواست ميكل الذي أخرج ثلاثاً من أصابعه من ثقب القفّاز ليستطيع مصّها وهو يبتسم لإنغريد.

شمّت إنغريد رائحة كريهة، فسألتها ما إن كانت ستغيّر حفّاضة ميكل. قالت آنيا إنها ليست رائحة ميكل، فهو نظيف، بل آنتي الذي تغوّط في حفّاضته مرّتين، وليس لديها حفّاضة بديلة - ولم تجرؤ على طلب المساعدة أيضاً، فالآخرون على متن المركب لا يتعاطون معها.

قالت إنغريد إنها ستخلع ملابس الطفل ذي السنتين.

فقالت آنيا إنّ البرد شديد عليه.

قالت إنغريد إنها ستفعل ذلك على أيّ حال.

كانت منطقة العجان حمراء وملتهبة بسبب البراز، الذي انتشر أيضاً وتيبّس في منطقة البطن والظهر، وعلى الرغم من ذلك بقي الطفل ينظر

إليهما بعينيه السوداوين الكبيرتين، دون أن ينبس بحرفٍ. سألت إنغريد آنيا ما إن كانت قد استعملت شيئاً من الخرق التي تسد الفتحات في الغرفة. فقالت آنيا إنها استخدمتها. فقالت إنغريد إنها مشبعة بالملح. ولم تفهم آنيا شيئاً.

«ملح»، قالت إنغريد، وطلبت منها أن تُلبِس الطفل من جديد، وتنتظر.

نهضت إنغريد، وخرجت إلى سطح المركب، فتحت باب قمرة القيادة، وصاحت على القبطان سائلةً إن كان لديه حفّاضات أطفال على السفينة؟ فالتفت وشزرها.

«أجل، أجل، اذهبي واسألي في المقصورة!».

مشت إنغريد وسط الرياح على سطح المركب، رفعت باب المقصورة، ونزلت ثلاث درجات في ظلمة مليئة بالبخار ورائحة قيء كريهة، حيث تجلس أمهات مع خمسة أطفال يتامى تتراوح أعمارهم بين خمس سنوات وثماني. سألت ما إن كان لديهم حفّاضات. فلم تلقَ جواباً. سألت مرة أخرى، ولم تحصل على إجابة. قالت إنغريد إنها يجب أن تحصل على حفّاضات. نهضت أمٌّ شابة من سرير معلّق على جدار قمرة القيادة، وأقحمت رأسها تحت الضوء وسألتها من تكون بحق الجحيم؟

بقيت إنغريد واقفة والغصّة في حلقها حتى وُضعت حفّاضة بين يديها. فسألت أين يمكن أن تجد ماءً ساخناً. فتعالت الضحكات. وصاح صوت: «في المطبخ».

عادت عبر سطح المركب إلى المطبخ، ووجدته مليئاً بالصغار أيضاً، ينامون على الأرضية والمقاعد، ونهض مراهقان بدا أنهما يريدان تحيّتها. وثمّة امرأة عجوز ضخمة الجثة، برداءٍ أسودَ، تجلس بين طاولة مثبّتة

بالأرضية وحاجز خشبي، وتنام فاغرةً فمها الأدرد. وبين جانبي الموقد الهادر توجد ركوة قهوة كبيرة، ومن فوهتها بجعية الشكل يتصاعد بخار أبيض.

سألت إنغريد ما إن كان ذلك ماء.

قال أحد الصبيان: «كلّا، بل قهوة». فقالت إنغريد إنها بحاجة إلى ماء ساخن. نظر الصبي إلى رفيقه، الذي اتكأ على صنبور ماء فوق حوض صغير، وملأ قدراً بالماء ووضعه بجوار ركوة القهوة.

وقفت إنغريد تنتظر. سألتهم من أيّ مدينة، مدنٍ، جاؤوا؟ من هيمان. هنينغسفوغ. كوماغفيورد. تابّيلوفت. غامفيك. هافوي سند. سنيفيورد. جيسفار. رولفس أوي. سكارسفوغ... سقطت البطانية التي تُغطّي ظهر المرأة العجوز أرضاً، فانحنى الصبي، الذي ملأ القدر بالماء ووضعه على الموقد، ثم التقط البطانية، نفضها، ووضعها ثانية على ظهر المرأة العجوز.

سألت إنغريد من تكون تلك العجوز.

«إنها جادفيكا، جارتنا، الروسية».

أصبح الماء ساخناً.

نجحت إنغريد في أن توازن القدر بين يديها وهي تعبر سطح الباخرة، التي أصبحت أكثر اهتزازاً الآن. دخلت إلى حجرة تخزين الطعوم، وطلبت من آنيا أن تنتزع خرقة من سدادة فتحة التصريف. نظرت إليها آنيا بدهشة وقالت: «إنها مالحة».

ضحكت إنغريد وقالت إنها ستستخدمها على أيّ حال.

سحبت آنيا سدادة بنّيّة، فتدفّقت مياه البحر عبر الفتحة. طلبت منها إنغريد أن تسدّ الفتحة بواحد من جلود الرنة، ثم تناولت قطعة خيش، بلّلتها

بالماء الساخن ونظّفت بها الطفل الذي بدأ يبكي من لسعة الصقيع؛ فتحت إنغريد الحقيبة الزرقاء الصغيرة، وأخرجت منها حمّالة صدر إيفا صوفيا. كادت آنيا أن تتوقّف عن البكاء، وسألت سارة: «ما هذه؟». وضعت إنغريد الحقيبة جانباً، انتزعت أحد سلكي التثبيت، قضمت طرف إحدى فردتي الحمّالة بأسنانها ثمّ مزّقتها نصفين، جمعتهما معاً وطوتهما خمس طيّات، ثم وضعتهما بين فخذي الطفل، ووضعت الحفّاضة حولهما. أكملت آنيا العمل، فألبسته ثيابه القديمة، وغطّته بجلد خروف - وتذكّرت إنغريد ذبابة استيقظت على إطار النافذة، طنّت قليلاً، ثم انقلبت على ظهرها، ودارت حول نفسها رافعة أرجلها الست المُشعرة وماتت؛ وتذكّرت كيف التقطتها برؤوس أصابعها، ثم فتحت النافذة ورمتها منها، وحدث هذا قبل أن يعود ضابط الشرطة هنريكسن والملازم الألماني هارغل، كانا وحدهما، وقد استطاعت أن ترى القارب في الضباب الرمادي، وسمعت صياحهما، رجلان متعجرفان في قارب يقترب ببطء من الجزيرة... لكن من أين جاءتها «الكدمات الزرقاء»؟

وضعت آنيا يدها على ذراع إنغريد.

سألت إنغريد ما إن كان الأطفال يعانون من دُوار البحر.

قالت آنيا إنهم لا يعانون منه، رغم أنهم يركبون البحر للمرة الأولى، وجاؤوا على متن هذه الباخرة، سالتهامّر. فتحت إنغريد علبة الكعك، وأعطت واحدة لكلٍّ منهم، وقالت لهم إن هذه اسمها سيرينا كاكير. حدّقوا فيها مطوّلاً، قبل أن يأكلوها بنهم وأرادوا المزيد. فطلبت منهم الانتظار، وطلبت من سارة أن تحرس علبة الكعك، ثم نهضت وخرجت مرة أخرى إلى سطح الباخرة التي يلطمها البحر من جهة حجرة التخزين.

لقد صفت السماء، وأخذت الرياح تشتدّ كلّما ابتعدوا عن اليابسة، عاصفة شمالية شرقية قارسة، وفي مؤخّرة الباخرة، كان الرجال ما زالوا واقفين وجالسين، يفركون أيديهم لتدفأ، ويدخّنون ويلعنون. دخلت إنغريد إلى قمرة القيادة، حيث كان القبطان واقفاً يصيخ السمع باتجاه السقف، وعندما رآها أشار إلى الأعلى وسألها ما إذا سمعت، هذا الصوت، وهل هو صوت تحطّم زجاج؟

قالت إنغريد: «نعم».

«اللعنة، إنه الجليد!»، صاح القبطان.

كان البحر مترامي الأطراف على مدّ النظر. والباخرة تترنّح ببطء إلى الأمام وإلى الوراء، وتزداد حدّة الصوت المعدني الصادرة عن السقف، وقعقعة الأدوات المعدنية وأدوات المطبخ، والباخرة تترنّح بقوة؛ فسألها ما إن كانت قد قادت قارباً من قبل.

قالت نعم.

«نعم، لقد قُدتُ قارباً».

أعطاها دفّة القيادة دون تردّد، ثم انحنى على زجاج النافذة وأشار إلى قطاع أخضر في منارة بعيدة باتجاه الغرب، وسألها ثلاث مرّات ما إن كانت ترى هذا القطاع الأخضر، وأراد أن يسمع منها «نعم» واضحة.

نطقت إنغريد ما يشبه زفيراً، فخرج من القمرة راكضاً.

عاد بعد بضع دقائق، وهو يلهث، دقّق النظر باتجاه المنارة، ثم هزَّ رأسه، تنحنح، وأخذ دفّة القيادة منها وبدأ يشكو من أنه لا يوجد على باخرته إلا المزارعون، والآن عليهم أن يبدؤوا بطَرْق الجليد حالما تبدأ مياه البحر

بغسل مؤخّرة السفينة، ثم قال: «انظري!»، وأومأ إلى الزجاج وراءهما، إنه يشبه لوحاً رمادياً رقيقاً.

سألته إنغريد ما إذا كان لديه مساعد على الباخرة.

فقال إنه ابن أخيه، ويدعى أولي، وهو فتى ماهر، لكنه في غرفة المحرّك حيث يشرف على صِبية مراهقين موجودين هناك طلباً للدفء. وسيجري توزيعهم جميعاً حسب اللوائح المُعدّة مسبقاً، على البلدية التي تنتمي إليها إنغريد، ثم توزّعهم البلدية على المزارع التي يتوفّر فيها أماكن لهم، وكانت تلك عملية كبيرة، عملية التوزيع الشاملة. ثم غطّس رأسه بين كتفيه الضخمتين، وقال لحسن الحظ أن هذا الشتاء كان جيّداً...

«أعتقد أننا لم نتعارف بعد» -قال قاطعاً حديثه- «أنا ماغنوس مانفيك، من مدينة راينه».

«إنغريد»، قالت، وغمغمت إن لديها أقارب في راينه، وذكرت له أسماء بعضهم، لكنها رأت شيئاً لم تحبه: حركاته، واضطراب عينيه الحمراوين، وقلّة النوم البادية على وجهه، فسألته ما إن كان ينام؟

ضحك وغمغم شيئاً ما عن أنهم لم يناموا عندما كانوا في ريس أوي هامن.

لقد سحب البحر الهائج مقدّمة الباخرة، حتى لامست القاع، ثم لفظها مرة أخرى وسط صخب صرخة بعيدة. لعَنَ ماغنوس عندما ضربتهم موجة ثانية، سلّمها دفّة القيادة، فتح الباب واختفى مرة أخرى. راقبته إنغريد يمشي مفرشخ الساقين من جانب إلى آخر على سطح المركب المتأرجح، مثل عنكبوت، وهو يصيح ويلوّح بذراعيه، وضع شيئين على قوائمهما وجرّهما وراءه كيفما اتفق، ثم غاب عن نظرها.

حاولت إنغريد، مرة أخرى، أن تتذكّر إيقاع قاربي أبيها وعمها، لكن هذه باخرة، والظروف مستحيلة، ارتجّت عجلة القيادة وأفلتت منها، لا بدّ أن مروحة الدفع قد علت فوق البحر، وصدر عن المحرّك فرقعة مدوّية. قُذِفت إنغريد على إفريز النافذة الجانبي، ودارت عجلة القيادة في الاتجاه الخطأ، عادت مروحة الدفع إلى الماء وتوقّف المركب في اللحظة التي انفتح فيها الباب ثانية.

إنهم يزيلون الجليد الآن، عن مؤخّرة المركب.

أزاحها جانباً، أمسك ذراع مُعدِّل السرعات، ونظر إليها، انتظرها حتى استعادت توازنها، وقال بهدوء إنها ينبغي أن تضع يدها اليمين فوق يده. هزّت رأسها، وشعرت ببرودة براجم كفّه تحت يدها عندما انغمست مقدّمة المركب في الماء، سحب ذراع مُعدّل السرعة نحوه، تباطأ المحرّك قبل أن تغوص مروحة الدفع تحت الماء من جديد، وحالما دارت مروحة الدفع أعاد هو ذراع مُعدّل السرعة إلى الأمام، وأعاد العملية ذاتها في مواجهة ثلاث موجات، وحدّق فيها متسائلاً. هزّت رأسها بشكل آلي، وبدلاً من أن تقول نعم، قالت: «لا أستطيع أن أعود إلى البيت».

«ماذا؟!» قال وحدّق فيها.

«لا أستطيع أن أعود إلى البيت!».

استدارت إنغريد، وركضت خارجةً من قمرة القيادة، وتعلّقت على طوق نجاة بجانب الباب، وأصبحت قدماها متدلّيتين فوق سطح الباخرة. أصابتها موجة تكسّرت على سطح الباخرة، وصارت مقدّمة الباخرة متعامدة الآن مع قمة الموجة، وصدر عن المحرّك فرقعة جديدة، توقّفت الباخرة وبدأت تتمايل على الجانبين. تركت إنغريد الطوق، ووقعت على

أرضية الباخرة التي صارت في وضع ارتفاع الآن، بقيت جالسة في مكانها، وتشبّثت بالدرجة السفلية من السلّم وسمعت صوتاً من مكان فوقها يقول لها: «انزلي إلى غرفة المحرّك، وقولي لأولي أن يصعد إلى هنا».

أرادت أن تسأل أين هي غرفة المحرّك، لكن باب قمرة القيادة كان قد انغلق. نهضت على ركبتيها، أُلقِيَتْ على الدرابزين ثم إلى الوراء على باب قمرة القيادة، أمسكت بقبضة باب، أدارتها وفتحت الباب، فصفعت وجهها رائحة المحرّك الدافئ وهواؤه. صاحت في العتمة، فبان لها وجه شابٍّ صغير بابتسامة عريضة: «كيف تسير الأمور؟».

صاحت إنغريد إن عليه الصعود إلى قمرة القيادة. ركّزت طاقتها على حركتها التالية. سرت في الباخرة رعدةٌ طويلة، ارتفعت، تمايلت وهبطت. شقّت إنغريد طريقها عائدة بين ستة أشخاص منبطحين أرضاً، ويكسرون الجليد عن أرضية الباخرة بمطارق خشبية، وصلت إلى مؤخّرة الباخرة، فتحت باب حجرة تخزين الطعوم وشاهدت وجه آنيا المرعوب، زحفت إلى الداخل ثم استلقت وطوّقت الطفلتين، فاحتضنت آنيا الطفلين.

«أنت مبلّلة!»، قالت سارة.

اهتزّت الباخرة مرة أخرى، وتوقّف الطرق غير المنتظم، توازنت سالتهامّر على قمة موجة جديدة، فأصبحت حجرة التخزين في وضع أفقي مع الميناء، ثم استعادت وضعها ببطء، وحلَّ على الباخرة هدوء ثقيل، وشهقة كأنها أنين. نظرت آنيا إليها مرعوبة.

«ما هو الوضع الآن؟!».

هزّت إنغريد رأسها. انفتح الباب، ومدَّ ماغنوس رأسه إلى الداخل.

«إننا في وضع مستقر الآن، وربما يمكننا الذهاب إلى آرن أوي، فهناك يوجد مرفأ جيّد».

نقّل بصره بين الأولاد كما لو أنه يَعُدّهم، ثم اختفى. نظرت آنيا إلى إنغريد متسائلة. فقالت إنغريد إن الأمور تسير على ما يرام الآن، ثم أغمضت عينيها ودفنت وجهها في شعر سارة، كانت رائحته طيّبة وزنخة، فضمّتها بقوّة إليها، وسمعت آنيا تقول لميكل إنّ الأمور ستكون على ما يرام. ولم يبقَ هناك إلا الأصوات، وصخب المحرّك، والمسافة، واهتزاز الباخرة البطيء – وإنغريد التي لم تكن قادرة على العودة إلى البيت.

- 7 -

في آرن أوي ثمّة مدرسة بغرفتين، ومكتب للمدرّسين، ومطبخ صغير جداً في إحدى زوايا البناء. وثمّة أبرشية، خمسة مصانع سمك، إكليل من كبائن الصيادين، وسقائف القوارب، وعدد من المزارع الصغيرة حول ميناءٍ مُحصَّنٍ، وكان أسطول الصيد كلّه مربوطاً إلى مراسيه ومُثقلاً بالثلج فوق قمرات القيادة، والدرابزينات، وشوارب من الجليد الأخضر على الحبال في الماء.

في الليلة الأولى، نامت إنغريد مع آنيا والأطفال، في مكتب المدرّسين، على الأرض، وفي الليلة الثانية على جلود الرنّة الجافة، وتدثّروا بالبطانيات فلم يبردوا، ولم يتجمّدوا، وناموا طويلاً.

لم تكن هي المرة الأولى التي تلجأ فيها سالتهامّر إلى آرن أوي، فجاءهم الأهالي بالحطب والطعام. واستحمّوا أيضاً. وبما أنّ الطقس لم يتحسّن، أتيحت لهم فرصة لغسل ملابسهم في غرفة غسيل ملاصقة لأحد مصانع تعليب الأسماك. وجاءت امرأتان كبيرتان بعربتين مليئتين بملابس قديمة، جوارب صوفية سميكة، حفّاضات، وعشرين لفيفة صوف رمادية،

دون أي مقابل. كما حصلوا على بودرة التالكوم، لمكافحة القمل في رأس آنتي، وإبَرِ حياكة. علّمت إنغريد سارة الحياكة، بينما إيلين تتفرّج عليهما. وتراجع بكاء آنيا إلى ما يشبه النشيج المنتظم، وقالت إنها لم ترغب في رؤية زوجها وهو يغادر المركب، وسألت إنغريد ما إن كانت قد رأته؟

قالت إنغريد إنها رأته، وإنه بخير الآن.

كانت تعدّ الغرز وتشرح لسارة ما تفعله، عندما غمغمت آنا حول آفة القمل، ورشّ الحشرات، والمعاملة المهينة التي تلقّوها في ريس أويهامن، وإنها لوثرية وتعتبر القمل عاراً. لم تفهم إنغريد ماذا تقصد بكلمة «لوثرية»، وقالت لها إنه من الجيّد أنهم تخلّصوا من تلك الكائنات.

قالت آنيا: «لكن المشكلة هي أننا لم نكن مصابين بالقمل!».

تابعت إنغريد حديثها مع سارة عن حياكة الصوف، وامتدحت عملها. لبست معطفها، وطلبت من ميكل أن يرافقها كي يجلبا حطباً. كانت بحاجة إلى الهواء، إلى الريح. نزلا الطريق إلى سقيفة قارب يوجد على طول جدارها الخارجي تحت واقية السقف كومة من الحطب، وهناك التقت بماغنوس، الذي كان مستلقياً هناك، نصف سكران، وأعاد على مسامعها ما قد قاله مرّتين من قبل: «ينبغي أن تنامي معي أنا، وليس مع هذه العائلة اللعينة!».

فأسرعت إنغريد الخطا مبتعدةً عنه.

صاح وراءها بعبارة. لم تسمع ما قال، كان هذا الرجل يتاجر في السوق السوداء قبل أن يعمل في إخلاء السكّان، ويفاخر في أنه يبيع الزبد بالنقود، وليس مقابل قسائم التموين، كما كان ينقل الأسماك لتجّار الجملة في تروندهايم بعشرة أضعاف الكميات المُصرّح عنها في الأوراق الرسمية؛

ومن الواضح أنه لم يتأثّر بهذه الحرب، بل إنه قد جعل منها مصدر رزق - توقّفت، ونظرت حولها في هذه القرية المتجلّدة: لا أحد في الشوارع، لكنها جزيرة حيّة، والدخان ينبعث من كل مداخنها، القوارب في مراسيها، والنهار قارس البرودة، والسماء فوقها مثل قبّة زجاجية زرقاء، السماء ذاتها التي تقبّب بارأوي، وإنغريد لا تعرف أين هي.

توقّف ميكل، ونظر إليها مستفسراً؛ لقد أُصيب بكدمات زرقاء هو وأختاه بسبب محنة عبور الفيورد(*). سألته ما إن كانت تؤلمه. فهزّ رأسه.

«أنت ولد قويٌّ»، قالت إنغريد.

أعادت ترتيب حِمْلَ الحطب بين ذراعيه كي يبقى محافظاً على توازنه، وسألته ما إن كان يفتقد أباه.

في البدء، بدا أنه لم يفهم سؤالها. بعدئذٍ قال: «نعم». فقالت إنغريد إنه سيعود إليهم قريباً. فقال ميكل: «نعم» أخرى. وبدت إنغريد سعيدة بإجاباته. سألته ما إن كانت الكدمة الزرقاء في جبينه تؤلمه؟ فقال: «كلّا». فقالت إنها ستزول سريعاً، ثم تابعا سيرهما في هذا الصقيع المؤلم.

جلست إنغريد على جلد الرنّة، وظهرها إلى الجدار، تراقب إيلين وأنتي تسيران، فوق أرضية الغرفة الرملية، وتتعثّران مثل فراخ عيدر حديثي الولادة. بينما كانت آنيا تطهو لحم الخنزير المملّح الذي اشترته إنغريد من حدّاد بقليل من النقود التي أعطاها إياها إريك فالك، وكان قد استلمها من دَينٍ غامض لوالدها على القسّ العجوز مالبيرغيت.

(*) الفيورد: مضيق بحري، عبارة عن وادٍ على شكل حرف U مع جبال عالية على جانبيه. [م]

قطّعت آنيا اللحم، والبطاطس والجزر، إلى مكعّبات، وطبختها طويلاً. والآن غمّست فيها قطعة خبز وتذوّقتها، ثم استدارت ونظرت إلى رهط الأطفال بما يشبه أول ابتسامة صغيرة رأتها إنغريد على وجهها الغائر، إنها امرأة في عمر مزّقته الحرب، فضاعت ملامحه بين الخامسة والعشرين والستّين، وكأن ليس زوجها والحياة قد فارقاها فحسب، بل والفصول أيضاً، وعلى الرغم من ذلك لديها شيء كانت تفتقده إنغريد، وضوح بسيط، لا لبس فيه، سوء حظٍّ محسوس، ومرئيّ وملموس، وليس مجرّد سرب ظلال صور مشوّشة ومتنافرة.

تذكّرت إنغريد كلمات إريك فالك، كيف أنها عرفت طعم الحب عندما جاءها، وأنها قبضت عليه، لكن في الواقع هي لم تقبض على أي شيء، بل كانت من كانت عندما وقع لها ذلك، ولم تعد من كانت - وقد انقطع الطمث عندها منذ شهرين.

هذا ما كان ينبغي أن تسأل إيفا صوفيا عنه، لو أنها وثقت في عدد الأيام التي قضتها في المستشفى، بالطريقة التي دُوِّنت فيها في الورقة المعلّقة على جدار غرفتها بجانب النافذة، كان ينبغي أن تتبعها ساعة بعد الأخرى، وتراجعها، وتدقّقها، وألّا تكتفي فقط بتلك الأيام المفقودة في بارأوي، بل أيضاً بجسدها - بعد أن وصلت إلى المستشفى.

نهضت إنغريد واستندت برؤوس أصابع يديها على طاولة المدرّسين، تحت خارطة العالم المنسدلة من بكرة، وخيوط حواف قماشتها البالية تتدلّى فوق رأسها، حدّقت آنيا فيها متسائلة.

نظرت إليها إنغريد، وقالت: «أنا لا أستطيع أن أعود إلى بيتي».

نهضت آنيا وأمسكت بذراعها. كرّرت إنغريد جملتها، ثم أفلتت من يد

آنيا، وذهبت إلى المطبخ، ووقفت ترتجف، أخرجت من درجٍ ستّ ملاعق طعام، ثم عادت وجلست بين رهط الأولاد. وضعت ملعقتها في طنجرة الطعام وبدأت تحرّكها، ثم غرفت بعض الطعام، وراحت تنفخ عليه حتى برد بما يكفي لتضعه في فم أنتي، الذي كانت قد أجلسته في حضنها دون أن تنتبه. فتح فمه وتلقّف الطعام، ثم تلمّظ شفتيه وطلب المزيد، وأنتي هو الوحيد الذي لم يُصب بكدمات، وكان نظيفاً، وابتسم لها. ملأت إنغريد ملعقتها ثانية، ولاحظت أن يدها ما عادت ترتجف، وشعرت أن آنيا قد لاحظت ذلك أيضاً، أنها ما عادت ترتجف، وأنها تنفّست الصعداء، وتبادلتا الابتسام.

- 8 -

في ذلك الصباح، عندما قرّروا متابعة رحلتهم إلى الجنوب كان الطقس صافياً لا رياح فيه. وأخذت الشمس اللامرئية تلوّن الثلج على جبال البرّ الرئيس بلون النحاس الأصفر. ساد الباخرة مزاجٌ احتفاليّ دون احتفال، شعور مخنوق، صامت، بالأمل، بالتيسير، ببداية حياة جديدة، وهي الأكثر هشاشة من كلّ الحيوات.

جاء الحدّاد، الذي باع إنغريد لحم الخنزير بسعر باهظ، وساعدهم على إغلاق فتحات التصريف في حجرة تخزين الطعوم، ثم وضع جلود الرنة الجافة على أرضية الغرفة، وأعطاهم، أيضاً، ثلاثة بُسط قديمة، لكنها أسمك مما كانت لديهم. صافحته آنيا شاكرة، فقالت لها إنغريد إنه قد قبض ثمنها.

جاء ماغنوس، وغمغم قائلاً إن حجرة تخزين الطعوم قد أصبحت مثل مرقد السيّدة، وأضاف إنه إذا استقرّ الطقس، فقد يكون لديهم مكان للصِّبية الذين في غرفة المحرّك: «إن كان لدى الحدّاد مزيداً من البُسط!».

أطرق الحدّاد أرضاً، ثم غادر دون أن يجيبه.

هزّ ماغنوس رأسه، وسأل إنغريد ما إن كانت تريد قهوة.

«لدينا قهوة!».

قالت إنغريد إن كلتيهما تريد قهوة، ثم شرعت بإقامة حاجز أمام الجزء الخارجي من حجرة التخزين، استخدمت الحقيبة الزرقاء، كيس لفائف الصوف الرمادية وعلبة الكعك، التي ملأتها بالخبز المرقود، وهذا اشترته أيضاً من الحدّاد، الذي عاد حاملاً على ظهره نصف شبكة صيد، قديمة، لكنها جافة وتفوح منها رائحة القطران.

سألته ماذا سيفعل بها.

«هذه نوعية ممتازة»، قال، وأزال كلّ ما كانوا قد فرشوه على الأرضية، ثم طوى الشبكة ثلاث طيّات ووضعها على الأرضية، ثم وضع فوقها جلود الرنة، والبسط، وأعاد حقيبة إنغريد وعلبة الكعك إلى مكانهما.

شكرته إنغريد، وقالت إنهم كانوا بحاجة إلى جلود وبُسط.

عاد ماغنوس بكوبَيْ قهوة قذرين، أعطى واحداً لآنيا، والآخر لإنغريد، ثم ألقى نظرة على حجرة التخزين، كاد أن يقول ثانيةً إنها أصبحت مثل مرقد السيّدة، لكنه اكتفى بهزّ رأسه، وغادر مسرعاً، توقّف عند باب غرفة المحرّك وصاح ببضع كلمات.

صعد ابن أخيه أولي، وثلاثة مراهقين واصطفّوا أمامه كأنهم يقفون في حضرة قسٍّ. ضحك الحدّاد من منظر السخام وبقع الزيت عليهم، تمنّى لهم رحلة موفّقة، وغادر المركب.

لاحظت إنغريد أنّ أكبرهم، ربما في السادسة عشرة، يحدّق إلى البحر بعينه اليسرى، الميّتة. أدركت أنه فقد عينه اليسرى وسألته كيف حصل ذلك. نظر إليها بالعين اليمنى وقال إنهم جاؤوا من هامّرفيست، لكنهم في

الأصل من سكارفوغ، وهذان الآخران شقيقاه: سْفَرّي وهيلمر. أعادت إنغريد سؤالها، فتحدّث عن وهجٍ هائل عندما اشتعلت المدينة بسبب القصف، ومات والداه.

سألته عن اسمه.

«أرنه».

كان أرنه طويلاً ونحيلاً، وكتفاه عريضان بارزا العظام كأنهما نيرٌ حول رقبته؛ وشعره بنّي قطراني ودهني، طويل مثل شعر البنات، ومن فتحة أنفه اليسرى يسيل مخاط أخضر. افترضت إنغريد أنّ إصابة عينه قد تكون بسبب وهج النار الشديد، وسألته ما إن استشار طبيباً. قال «كلّا»، ونظر إلى سطح المركب بعينه الحيّة، وإليها بعينه الميتة. تحرّكت بشكل عفوي، لتجعله يلاحظ وجودها ثانية، ثم أومأت إلى كيس بحّارة، وحزمة ملاءات ملطّخة بالزيت، على سطح المركب بينهما، وسألته ما إن كان هذا كل ما لديهم؟

«أجل».

فقالت إنهم يمكن أن يضعوها في زاوية الحجرة، وتبادلت النظر مع آنيا، التي وضعت كوب القهوة على درابزين المركب ودخلت الحجرة بسرعة، وراحت تمدّد الأطفال على جلود الرنّة كي تحجزها لهم.

نظرت إنغريد إلى أولي، الذي ما يزال واقفاً مكانه، وسألته ما إن كان لديهم أغطية. فهزّ كتفيه. طلبت إنغريد من الإخوة أن ينتظروا، ثم ذهبت إلى ماغنوس الواقف على مقدّمة الباخرة محاطاً برهطٍ من الرجال. سألته ما إن كان لديه أغطية. فقال «كلّا» مزعجة، ثم هزّ كتفيه ونظر إليها نظرة محايدة تقول إنه لا يبحث عن حلٍّ فحسب، بل إنه سيجده أيضاً.

«اسألي ذاك الحدّاد اللعين، سننتظرك!».

صعدت إنغريد إلى الشاطئ، وراحت تجري إلى القرية حيث وجدت الرجل، وسألته ما إن كان لديه بُسط، بطانيات، أو جلود ماعز للبيع...

«للبيع؟» قال الحدّاد ببطءٍ، وحدّق فيها مطوّلاً.

«أجل، للبيع، فنحن في أمسّ الحاجة إليها!».

«أنتِ غنيّة جداً!».

«كلّا، لست غنيّة».

«كم ستدفعين؟».

ذكرت له السعر السابق لكلّ بطانية أو جلد. تردّد في الإجابة، فعرضت نصف كرون إضافي لكلّ جلدٍ. ابتسم، ثم استدار وهرول عائداً إلى القرية. عادت إنغريد على مهل، صعدت الباخرة، وسارت باتجاه الإخوة عند مؤخّرة الباخرة ووقفت بجانبهم. لم يكن هناك المزيد من المعلومات لتنتزعها منهم، باستثناء أنّ الشقيقين الصغيرين قد عملا في النجارة مع والدهما. سألتهما عن أعمارهما. كان سْفَرّي في الثانية عشرة، وهيلمر في العاشرة. لم يعد لدى إنغريد ما تسألهما عنه. بلى، فقد تساءلت عما إذا كانت غرفة المحرّك دافئة.

«دافئة جداً».

«ألم تكن صاخبة؟».

تبادلا النظر، كأنهما يفكّران ما إن كان سؤالها يستحقّ الإجابة، ثم توصلا إلى أنه لا يستحقّها. قذفت إنغريد بثُفلِ القهوة في البحر، وراحت تراقبه وهو يغرق في الماء مثل نمل فوق قاع البحر الرملي الأخضر، ثم نظرت في الكوبين، وعندما لم يعد لديها ما تقوله، أخذت الصبيّين معها

إلى الأسفل، حيث كان الصبيّان نفسيهما ما زالا يعتنيان بالعجوز الروسية جادفيكا، التي بدا أنها لا تعرف ما إذا كانت تريد أن تنام أو أن تستيقظ. وسألت إنغريد، أيضاً، ما إن كان لا يزال لديهم ماء.

«نعم، ماء عذب، بقدر ما تريدين».

شطفت الكوبين تحت ماء الحنفية، وتلفّتت حولها بحثاً عن منشفة، وعندما لم تجدها، وضعت الكوبين في حوض المجلى، وسألت الصبيّين من أيّ مدينة هما.

«من ميهامن».

«وهل دُمِّرت بالكامل؟».

«أجل».

تساءلت إنغريد ما إن كانا شقيقين، وأين يوجد والداهما، وماذا يعملان، وكأنها قد خُلقت لتُجري نوعاً من المسح للناس الذين أُخرجوا من مدنهم، وبما أن ذهنها مشوّش كثيراً، وقبل أن تحصل على إجابة -لا يبدوان شقيقين، بل صديقين، أكثر من قريبين- لاحظت عبر الكوّة أن الحدّاد قد عاد إلى رصيف الميناء، فخرجت تركض عبر سطح المركب.

«بوسعك أن ترميها على سطح الباخرة!»، قال ماغنوس الذي لا يزال واقفاً وسط ذلك الرهط من الرجال، الذين نظروا جميعاً إلى القادم الجديد، بين شفاههم لفافات تبغ نصف مستهلكة ودخّانها يتصاعد في الهواء، النقي البارد.

«والنقود؟!» صاح الحدّاد.

«ستأتيك حالاً».

تردّد قليلاً، ثم رمى ثلاثة جلود ماعز، نخرها العثّ، إلى سطح القارب،

فتسبّبت بسحابة غبار، ثم رمى جلدَيْ رنّة جديدين، وثلاث بطانيات من الصوف الرمادي رفّت في الهواء مثل أشرعة. انتظر ماغنوس حتى حطّت البطانيات الثلاث على سطح المركب، وأعطى إشارة إلى الصبي الذي كان ملازماً لأولي دوماً، وهو الآن موجودٌ على مقدّمة المركب.

نتر الصبي حبل الإرساء بقوة، فانفكّ الحبل عن المربط على الرصيف. وعلى سطح حجرة تخزين الطعوم كان يقف صبيّ آخر قام بالحركة الفنيّة ذاتها مع حبل المرسى. وحلّ ماغنوس حبل النابض، ونظر إلى أولي في غرفة القيادة. أدركت إنغريد أنها على وشك أن تفقد شيئاً. شغّل أولي المحرّك، وضغط بقوة على دوّاسة الوقود، فتراجع المركب بقوة إلى الوراء وكأنه على وشك أن يطير، وحرث سطح الماء البلّوري في حوض الميناء قاسماً القرية إلى نصفين مع الفقاعات ورغوة الماء من ورائه.

لوّح ماغنوس للحدّاد، الذي تسمّر في مكانه على الرصيف. ضحك الرجال جميعاً. وانحنت إنغريد لتحمل الجلود والبطانيات.

فانحنى ماغنوس فوقها، وصاح في أذنها: «هل تريدين مساعدة، أيتها السيّدة الشابة؟!».

ازداد ضحك رهط الرجال، وتصاعد دخان سجائرهم أمام وجوههم، ونظراتهم الباهتة المخزية. رفع ماغنوس يده في الهواء، وأشار بإصبع سوداء إلى الرجل الأعلى ضحكاً، وقال له إنه سيساعدها في حمل الجلود. «فوراً».

- 9 -

كان الليل قد هبط عندما توقّفت الباخرة بجوار رصيف المركز التجاري. آنيا وأطفالها نائمون، وكذلك الشقيقان الصغيران سكارفوغ: سْفَرّي وهيلمر. لكن إنغريد وأرنه استيقظا عندما توقّف محرّك الباخرة، وخرجا إلى السطح في تلك الظلمة الكحلية الفولاذية، وكانت الريح ساكنة، وهطل الثلج خفيفاً. ماغنوس يقف عند درابزين المركب برفقة أحد الرجال، يدخّنان؛ وعلى مقربة منهما، أولي جالسٌ مع رفيقه على مقدّمة المركب يتكلّمان بصوتٍ منخفض في هذا الصمت.

أعطاها ماغنوس كوب القهوة الذي يحمله في يده. فأخذته وشربت قهوة فاترة. ابتسم ماغنوس وقال: «بلدتك؟».

من وراء حاجز زجاجي، أومأت إنغريد باتجاه المنصّة تحت الرصيف، الرصيف الصغير، حيث كانت تُرسي قاربها عندما تأتي إلى المتجر لشراء احتياجاتها، أو للعمل في مصنع تعليب الأسماك، الدرج الصاعد عبر فتحة في الرصيف، والثلج الذي استقرّ فوق شعرها، وكتفيها، ويديها العاريتين، على ثيابها، وعلى حوافّ كوب القهوة، بدأ يذوب وينقّط عندما ترشف

القهوة منه لتشغل نفسها عن ماغنوس، الذي يراقبها بنظرات لا يمكن تجاهلها.

«ألن تعودي إلى بيتك، إذاً؟!».

تراجعت إنغريد إلى الوراء، أعطته كوب القهوة، ونفضت الثلج عن شعرها وكتفيها، فهي لا تلبس وشاحاً ولا قبّعة مطرية، لكنها، بناءً على نصيحة إيفا صوفيا، ضفرت شعرها لتخفي الندوب في مؤخّرة رأسها، وطفر الدمع من بين جفونها، وشعرت بالبرد والحمّى. لفت انتباهها لفافة ورق في يده، فسألته ماذا تكون تلك؟ فطلب منها أن تخمّن.

قالت: «ألا تنام أبداً؟!».

أعطاها الأوراق.

تحتوي الأوراق على قوائم بأسماء الناس الذين يجري إجلاؤهم، وكذلك أسماء المدن والبلدات التي سيُنقلون إليها، أسماء المزارع، والبيوت، وسقائف القوارب في القرى التي استطاعت لجنة الإسكان التواصل معها، وتأكّدت من وجود مساكن لديها.

توقّفت عيناها عند سطرين، لأنها كانت تفتّش عن الأول، وفاجأها الثاني: آنيا وأطفالها سيُرسلون إلى بيت القسّ، غير المأهول الآن، إلى جانب اثنتين من الأمهات المُرضعات، اللتين تقفان الآن أمام المقصورة، لم يعنِ لها اسماهما شيئاً. أما المفاجأة فكانت في توقيع ضابط الشرطة هنريكسن، لأنه لم يوقّع الأوراق بصفته ضابط شرطة، بل بصفته رئيس لجنة الإسكان والتموين، واعتبرت إنغريد أن هذا المنصب لا يمكن أن يكون ترقية له. فقالت لماغنوس الذي يحدّق فيها باهتمام: «هذا الرجل كان يتعامل مع الألمان».

«ربما كان ذكياً»، قال ماغنوس.

«ماذا؟».

«يعتقد البعض أن الألمان سيربحون الحرب، وربما هو واحد منهم».

«وماذا عنك أنت؟».

أرجع رأسه إلى الوراء مقهقهاً، ثم قال: «أنا شيوعي. سيربح الروسُ الحربَ!».

أرادت إنغريد أن تشاركه الضحك، لكنها لاحظت أن فمها فاغر، فأغلقته وأطرقت أرضاً لثوانٍ، اعتقدت أنها كافية، ثم استدارت ونظرت إلى أرنه، غير أنها لاحظت أن اللامبالاة في عينه الكفيفة تؤثّر على عينه السليمة، فما كان منها إلا أن التفتت، مرة أخرى، إلى ماغنوس، وسألته إلى أين سيُرسل الإخوة؟

سألها عن أسمائهم.

غمغمت: «إساكسن أرنه، من سكارسفوغ، لكنهم عاشوا لبعض الوقت في هامّرفيست». أشار ماغنوس إلى الورقة، وقرأت إنغريد أنّ الثلاثي إساكسن سكارسفوغ سيُرسلون إلى مزرعة في الجنوب في الجزيرة الرئيسة مولاندسفيكا. فقالت: «إنهم لطيفون».

شعر أرنه أنه معضلة بالنسبة لإنغريد، فأراد أن ينسحب.

أمسكت إنغريد بذراعه، وجذبته إلى الوراء، وقالت: «على الأقل، أنا أعتقد أنهم لطيفون، وهم ليسوا أطفالاً».

نظرت عينه اليمنى بعيداً عنها، نظرة استفسار. فشعرت إنغريد ببعض الندم، واضطرّت أن تنظر إلى ماغنوس، رجل في كامل نشاطه حتى في

الساعة الثالثة فجراً، تنهّدت، وأعادت له الأوراق، وقالت إنها تعرف مكان بيت هنريكسن وبوسعها أن تدلّه عليه.

قال: «لا»، وأضاف إنهم سينتظرونه، ويترك الناس ينامون قليلاً، ثم ذهب وعاد وفي يديه كوبا قهوة، أعطاها واحداً، والثاني إلى أرنه. شكره الصبي بانحناءة لبقة، ثم شرب رشفة قهوة، وكانت ساخنة جداً، فحمل الكوب بين يديه وأسرع عائداً إلى حجرة تخزين الطعوم.

أرادت إنغريد أن تلحق به، لكنها فضّلت الصمت برفقة رجل. بقيا صامتين. قالت إنغريد إنها ينبغي أن تعود إلى الأولاد. هزّ ماغنوس كتفيه. سألته ما إن سمع عن تحطّم السفينة في الجنوب، سفينة نقل القوات؟

فقال إنه لم يسمع بذلك.

شعرت إنغريد بغرابة الأمر، فهو يمتلك راديو، أليس كذلك؟

نظر إليها بدهشة، وقال: «لديّ راديو، إذاً؟!».

«نعم» قالت إنغريد، فقد رأته بين أدوات المائدة.

ابتسم للمدى، وسألها عن سرّ اهتمامها بتحطّم السفينة، فهذا سرٌّ عسكري في نهاية المطاف، أليس كذلك؟!

فقالت إنها اعتقدت أنه أمرٌ آخر.

سألها ما الذي اعتقدته، وهو يلتفت وينظر إلى أولي، الذي كان ما يزال مستلقياً على مقدّمة القارب، ويثرثر مع رفيقه، وصاح ببضع كلمات لم تسمعها إنغريد. فأجابه أولي، ولم تستطع إنغريد أن تسمعه أيضاً، وضحك الرجال الثلاثة مما قيل، فانتابها إحساسٌ بأنّ شيئاً قد فاتها، وأنها مشوّشة الذهن.

- 10 -

وصل أول القوارب العائدة من الصيد، واضطر إلى التوقّف بعيداً عن الرصيف، لأن ماغنوس رفض أن يحرّك سالتهامرٍّ. عندما وصل هنريكسن، أخيراً، وشاهد تلك الفوضى، اعتذر عن تأخّره، وبدا محرجاً وذليلاً. سأله ماغنوس ما إن نام جيّداً، وطلب منه أن يثبت شخصيته، قبل أن يرفض طلبه لتحريك القارب كي يتقدّم الصيّادون بقاربهم إلى تحت الرافعات.

إننا بحاجة إلى استخدام الرصيف الصغير.مكتبة سُر مَن قرأ

نزل هنريكسن ورجاله إلى القارب، وقارنوا الأسماء في قوائمهم مع تلك التي في قوائم ماغنوس. ورقَّت نظرة رئيس اللجنة عندما شاهد إنغريد.

«أهذه أنت؟!».

لم تردّ إنغريد. هزَّ رأسه وتابع مشاوراته مع ماغنوس، الذي طلب من أولي أن يستدعي الناس إلى سطح الباخرة، مع كل أمتعتهم. كان المنظر مثل قدّاس صامت تحت الثلج. قرأ هنريكسن الأسماء بالترتيب، ووجد صعوبة في نطقها، وأخذ يوزّع عليهم التعليمات والتحذيرات، ومفاتيح

أحياناً، وعندما حان التوقيع على الأوراق الرسمية، حاول أن يخلق جوّاً من المرح، لكنه سرعان ما توقّف عندما لاحظ أن ماغنوس لم يبادله المرح.

سُمع نشيج بعض النسوة عندما تودّعن، وحصلن على مساعدة في الصعود إلى الرصيف، مع أطفالهن، والفُرش والصناديق، والحقائب؛ وكان هناك حافلتان وخمس عربات خيل بانتظار نقلهن، مع أمتعتهن، إلى بيوتهن الجديدة.

لم ينشج الرجال. صافحوا ماغنوس، شاكرين، بذُلٍّ وصمت، مثل إنسان يعرف أنه ما يزال هناك ما يمتنّ له، الحياة مثلاً.

أرادت إنغريد أن تشكر آنيا والأطفال، لأنها من دونهم ما كانت ستصمد حتى تصل إلى هنا، وهذا أمر لا يستحقّ الشكر أبداً، وأصيبت بنوبة هلع جديدة، فخطفت المفتاح من يد هنريكسن عندما صاح اسم آنيا، وأومأ برأسه للرجلين الواقفين بجانبه.

سألها هنريكسن لماذا تُقحم نفسها في هذا الأمر، ثم تقدّم ليتفحّص العائلة، ويدقّق الأسماء، بسبب وجود خطأ في الأوراق، إذ إنه ينبغي فصل الفنلنديّين والساميّين عن النرويجيّين.

صرخت آنيا إنها لطالما كانت حضرية، لا بدوية، وهي زوجة فلّاح. فضحك هنريكسن ثانية، وتلفّت حوله طلباً لضحكٍ مؤازرٍ. لم يؤازره ماغنوس، لكنه قال: «لقد اختلطوا جيّداً، الآن، بعد هذه الرحلة».

صعدت إنغريد، وآنيا، والأطفال برفقة الرجلين، والأمهات المُرضعات، وابنتان صغيرتان يتيمتان من عرقٍ نقيّ، تجرّان كيس ثياب مشتركاً. تجاوزوا المتجر، حيث كانت مارغوت واثنان آخران واقفين خارجاً، في هذا البرد الشتوي القارس، يتفرّجون عليهم. شاهدت مارغوت إنغريد، فلوّحت لها.

لوّحت لها إنغريد أيضاً. ولاحظت أن ليس هناك أيّ جندي، أو أيّ مركبة عسكرية، ومعسكر الجيش كان مهجوراً مثل بيت القسّ.

«الآن، ستحصلين على بيت ممتاز للسكن»، قالت إنغريد بانفعال، ثم فتحت الباب، وطلبت من الرجلين أن يُحضرا بعض الحطب والفحم، ويوقدا النار في كل مدافئ البيت، وراحت تتنقّل من غرفة إلى أخرى، وفي إثرها الحاشية التي يغطّي ثيابها الثلج، وأطلعتهم على كل موجودات البيت التي ما تزال تتذكّرها، بأدق التفاصيل، دون أن يتسبب لها ذلك بأي ألم.

تلك هي المرة الأولى التي شاهدت فيها إنغريد الرضيعين؛ فخلال الرحلة بدت المرأتان حُبليَين، أما هنا وبعد أن ارتفعت درجة حرارة البيت، فقد جرّدتا الطفلين من ثيابهما الزائدة وبانت عيونهما الصافية، ورأساهما الورديّان الخاليان من الشعر، في بيتهم الجديد.

استقرّت المرأتان كلٌّ في غرفتها في الطابق الأول، حيث كان الأطفال من الجزر المجاورة الذين سيجري تعميدهم، ينامون أزواجاً. وعرفت أيضاً في أيّ علّيّة تجد مهود الأطفال. وأخذت آنيا إلى غرفة نوم القسّ، التي لم تكن زوجته تشاركه النوم فيها، ورغم ذلك فإنّ فيها السرير الأعرض. وفي غرفة زوجة القسّ وضعت الأختين الصغيرتين اليتيمتين وأرتهما اللُّحُف، والخزانة، والأدراج، وسألتهما ما إن كانتا تمتلكان غير كيس الملابس ذاك.

قالتا: «كلّا».

سألتهما ما إن كانتا شقيقتين.

قالت الأولى: «كلّا». لكن الثانية تردّدت.

حصل ميكل على الغرفة ذاتها التي نامت فيها إنغريد عندما كان

سيجري تعميدها. صادر أحد الرجلين غرفة مكتب القسّ، التي أصبح اسمها المكتبة، حيث توجد فيها أريكة جلد إنكليزية. واستقرّ الرجل الثاني في الجناح، الذي كان ينام فيه ضيوف القسّ. وبقي هناك غرفتا نوم شاغرتان.

فكّرت إنغريد في الأم، وطلبت من سارة وإيلين أن تنام كلٌّ منهما في غرفة. تبادلت البنتان النظر، ثم قالت سارة: «نريد أن نبقى معاً».

هزّت إنغريد رأسها، واستدعت الجميع إلى غرفة، طلبت منهم أن يجلسوا على الأسرّة، وشرحت لهم أنهم يستطيعون الشراء من المتجر بالنقود، وبالقسائم التموينية، التي حصلوا عليها من اللجنة -وقسائم أخرى سوف تُعطى لهم في أقرب فرصة- وأخبرتهم كيف كانت مارغوت تقول لهم ما فائدة النقود والقسائم إذا لم يكن لديها زُبدٌ. لكن كان لديها زُبد، ولهذا لم يثقوا بها، لأنها تفضِّل أن تبيع الزُّبد دون قسائم، وبسعر أعلى، هذا إن لم يكن الزبد قد نفد فعلاً، وإن نفد فعلاً، فهي، في كل الأحوال، تكون قد باعته بالنقود دون قسائم وبسعر أعلى من سعره العادي.

لم تفهم آنيا شيئاً.

لكن إحدى المرأتين المُرضعتين فهمت.

قالت إنغريد، مرة أخرى، إنهم عندما يتسوّقون، سواء كان ذلك سكّراً، أو طحيناً، أو زيت البارافين، فينبغي ألّا يستجيبوا للسعر الذي يُطلب منهم، بل عليهم أن يساوموا كثيراً، سواء كان الدفع بالنقود والقسائم التموينية، أم بالنقود فقط، وعلى الأخص عندما يدفعون نقوداً فقط. وعندما يشترون السمك من المركز التجاري، عليهم أن يدفعوا أكثر قليلاً مما يطلبه منهم الموظّف، وإن لم يقل لهم ذلك، وعليهم أيضاً ألّا يستخدموا قسائم

التموين وإلا فلن يحصلوا على سمك في المرة القادمة؛ أو بإمكانهم أن يشتروا مباشرة من الصيّادين، وليتذكّروا أن سمك الرنجة هو الأرخص، سعره زهيد جداً، لكنه قليل في هذا الوقت من السنة...

كانت إنغريد حاسمة ومتوتّرة، نظرت إلى سارة، بقلقٍ واضح، وقالت إنها ينبغي أن تبدأ بالذهاب إلى المدرسة فوراً. هزّت سارة رأسها. ثم نظرت إنغريد إلى آنيا وأعادت الكلام ذاته. فسألتها آنيا ما إن كانت لا تثق بها؟

تجاهلت إنغريد سؤال آنيا ونبرته، وسألت البنتين الصغيرتين عن أعمارهما. قالت إحداهما إنها في السابعة، بينما بقيت الأخرى صامتة، رغم أنها بدت أكبر سناً من الأولى.

«وأنت ينبغي أن تذهبي إلى المدرسة».

لم تُبدِ البنت أيّ استجابة. وكانت إنغريد على وشك أن تسألها عن اسمها، عندما تدخّلت إحدى المُرضعتين وقالت إنها تعرفهما، وإنها ستحرص على أن هذه الأكبر، واسمها نيلفي، ستذهب إلى المدرسة عندما تفتح المدرسة أبوابها؛ والثانية اسمها غونفور، وكلتاهما من قرية بالقرب من بيورنفاتن، لكنهما لم تذهبا إلى المنجم.

طلبت منها إنغريد أن توضّح أكثر.

قالت الأم المُرضعة إن أهالي شيركيناس اختبؤوا في منجم، عندما دُمِّرت المدينة، غير أن كثيرين، ومن بينهم عائلة نيلفي وغونفور، جرى نقلهم إلى الجنوب بقارب، لكن لم يعد الجميع، وهي لا تعرف السبب، وأن البنتين لم تقولا أيّ شيء...

ثم صاحت فجأة على إنغريد: «والآن ينبغي أن تحاولي معها لتخلع قبّعتها - فأنا لم أستطع ذلك!».

نقّلت إنغريد نظرتها المتسائلة بين المرأة، ونيلفي التي تشبّثت بقبّعتها بكلتا يديها.

«لماذا كل هذا اللغط؟!».

في هذه اللحظة، كان الكيل قد طفح بأحد الرجلين، وهو في قرابة الستين من عمره، غائر الخدّين، بلحية بيضاء، وفم كبير جداً على ما تبقى فيه من أسنان، وكان يرتجف، فبدأ بالتنحنح، ثم مدَّ ذراعه، وقال: «هذا يكفي!»، ثم انتزع القبّعة عن رأس البنت، ورماها في زاوية الغرفة. صرخت البنت، فرأسها أصلع وبه جَرَبٌ. شاهدتها إنغريد وهي تدور حول السرير راكضة، ثم تقبض على قبّعتها. انتظرتها إنغريد حتى لبست قبّعتها ثانية، وطلبت منها أن تتبعها.

«ألن نحصل على عمل؟» -صاح الرجل ذاته- «ينبغي أن نحصل على عمل».

نظرت إليه إنغريد.

«وإلا سنصاب بالجنون».

المرأة المُرضع، التي تحدّثت عن المنجم، أولتهم ظهرها وبدأت تُرضع وليدها. خرج الأطفال راكضين الواحد إثر الآخر. جرّدت آنيا أنتي من ثيابه. وقفت إنغريد، وقد قبضت بيدها على معصم نيلفي، وسألت الرجل ما إن كان مريضاً، لأنه لا يزال يرتجف. هزّ كتفيه. فقالت إنغريد إن عليه أن يسأل في المركز التجاري، فهناك لديهم عمل دوماً، أو أن يسأل في مصنع تعليب السمك.

قال إنه نجّار.

فقالت إنغريد إنه يعلم بالتأكيد كم هي ظروف العمل صعبة الآن، ثم

سحبت نيلفي وراءها ونزلتا إلى الحمّام. يوجد في الحمّام صنبور ماء جارٍ، جُرنان حجريّان، كلٌّ منهما مثبّت إلى حائط، كما يوجد موقد أيضاً. ملأت إنغريد سطل ماء ووضعته فوق الموقد، وقالت إنها صاحبة الكلمة العليا الآن؛ وإن على نيلفي أن تختار بين الاستحمام بالقبّعة، أو من دونها. بكت نيلفي، وقرّرت أخيراً، بعد قليل من الضغط، أن تستحمّ بالقبّعة.

عندما سَخَن الماء، أحنتها إنغريد فوق الجرن، وسكبت طاستي ماء ساخن فوق قبّعتها، ثم وضعت الطاسة جانباً، جرّدتها من القبّعة، ثبّتتها بين ركبتيها في وضعية الملزمة، بينما راحت تصبّ الماء على رأسها وتفركه بصابونة طرية.

قاومت نيلفي وصرخت، لكنها أصبحت أكثر هدوءاً مع كلّ طاسة ماء سكبتها إنغريد على رأسها. فركت إنغريد رأس نيلفي ثانية وثالثة. لم ترَ أثراً لقمل، وبدا رأس نيلفي الآن دون جرب، أيضاً، فقط تلك الخدوش الغريبة في رأسها.

لفَّت لها رأسها بمنشفة الصحون، تركت قبّعتها في الجرن، ثم غسلتها، على لوح الغسيل، بالصابونة ذاتها، بينما كانت نيلفي جالسة على المقعد الثاني وهي تتفرّج عليها، وكلتا يديها، بأصابعهما الطويلة والنحيلة، على المنشفة، التي بدت مثل عمامة فوق رأسها.

قالت إنغريد إنهما ستجفّفان القبّعة فوق الموقد في المطبخ، لن تستغرق وقتاً طويلاً، وفي هذه الأثناء ستجد لها قبّعة أخرى. أخذتها معها وصعدت إلى واحدة من غرف الأطفال، حيث توجد خزانة ملابس، ووجدت قبّعة زرقاء. لكن قبّعة نيلفي كانت حمراء. وهي تريد واحدة حمراء. بحثت إنغريد في الأدراج أيضاً، ووجدت قبّعة رمادية. هزّت نيلفي رأسها على

مضض، وأرادت أن تلبسها فوق منشفة الصحون. قالت إنغريد إنها تبدو جميلة. قالت غونفور، التي كانت واقفة بالباب، إنها تبدو غريبة. لم تهتمّ نيلفي لكلامها. أمسكت إنغريد أصابع نيلفي الرفيعة الجميلة، وجلست تتأملها، بدهشة وإعجاب، حتى سحبتها نيلفي من بين يديها بابتسامة خجولة، وسألتها عن اسمها.

أخبرتها إنغريد اسمها، وأنها تعيش في بارأوي، وسألتها عن اسمها الثاني، إضافةً إلى نيلفي. قالت إن اسمها الثاني هو أرفولا.

سألتها إنغريد لماذا لم تخبرهم بذلك من قبل، لأنه لا اسم لها، الآن، في قوائم لجنة التموين والإسكان.

قالت نيلفي إنها لا تعرف لماذا فعلت ذلك. وسألتها أين تقع بارأوي.

«هناك»، قالت إنغريد وأشارت صوب الحائط، فوق أحد السريرين، حيث عُلِّقت صورة راعي غنم مع عصاه وثلاث غنمات، جلست نيلفي تحدّق إليها.

قالت إنغريد إنها ستتفحّص غرفة المؤونة. تركت نيلفي ونزلت إلى الأسفل، ثم دخلت بين صفوف مرطبانات المربّيات والأطعمة المعلّبة، ثم جلست بالقرب من الرفّ السفلي، حيث كانت زوجة القس تحفظ القدور والمقالي النحاسية إلى جانب الجريش والطحين، وكان عليها أن تعترف أنها ما عادت قادرة على التسويف. فهي، علاوة على ذلك، منهكة، وعلى شفا البكاء؛ فحدّقت، دون أن ترى، في صندوق الخبز، والمناخل من كل الأحجام، وفكّرت في أصابع نيلفي، وتلك الحقيبة الزرقاء، بعلبة الكعك، وكيس لفائف الصوف، التي ما تزال هناك على متن سالتهامّر، التي ستكمل رحلتها.

هزّت رأسها وكتفيها، خرجت من غرفة المؤونة، أغلقت الباب وأعطت المفتاح للأم المرضعة، التي تعرف مسارب السوق السوداء، وسألتها عن اسمها.

«يوهانا».

يوهانا ماتيا هاتا، البالغة من العمر تسعة وعشرين عاماً، من غابات الصنوبر في تفيرّيلفدالين، أصبحت مسؤولة عن غرفة المؤونة ومفتاحها في بيت القسّ الثريّ، المطلّ على البحر؛ فسحبت خيطاً من تنّورتها، وربطت به المفتاح حول رقبتها، وتابعت إرضاع وليدها دون أن تنبس بكلمة، فأشاحت إنغريد وجهها بعيداً.

ودّعت إيلين وسارة بضمّتين سريعتين، وطلبت منهما أن تلعبا مع نيلفي وغونفور، كما حضّت نيلفي، مرة أخرى، على الالتحاق بالمدرسة، وسمعت آنيا تسألها ما خطبها، لكنها خرجت مسرعة تحت الثلج ينتابها شعورٌ مزعج بأنها قد تجاوزت خط اللاعودة، لقد شعرت به في مفاصلها، في ارتجاف ركبتيها.

أعطتها مارغوت كل ما أرادت من الزبد والسكّر، مقابل نقود وقسائم تموين، وقالت إنها تبدو في حالة جيّدة. لكن إنغريد خرجت مسرعة، دون أن تردّ عندما سألتها كيف هي أحوالها. دفعت عربة المشتريات أمامها نازلةً الطريق بأقصى سرعة. توقّفت قليلاً حينما لاح لها فانوس صاري سالتهامّر وبرج المراقبة من فوق سطح المركز التجاري. كانت تمشي على الثلج والجليد، بخطوات حذرة ومتشنجة، وحمل نير العربة الثقيل يضغط على ظهرها.

لقد حرّكوا الباخرة إلى الوراء، إلى جانب رصيف الميناء؛ وأمام

رصيف المركز التجاري وقفت سفينة صيد، لتفريغ حمولتها، ووراءها سفينتان تنتظران دوريهما. العيون التي رأتها وعرفتها، من فوق الرصيف، لوّح بعضها، وصاح بعضها الآخر؛ لوّحت إنغريد، ونزلت الدرجات الاثنتي عشرة إلى الرصيف الصغير بهدوء وحذر، وصاحت على سطح سالتهامّر الخاوي، إنها جاءت لتودّعهم.

لا جواب.

صاحت ثانية. سمعت ضحكاً من مكان فوقها، وعندما رفعت بصرها شاهدت ماغنوس في قمرة القيادة، تلك اللحية البنّية، الشعر، والعينين اللتين تستطلعان الطقس عالياً في الهواء. سطح الباخرة يلمع، وقد غُسِل حديثاً، وأُزيلت الخيمة من مكانها، وكذلك العمود الخشبي الكبير. وكان المحرّك يهدر.

صاحت إنغريد بأنها تتمنى لهم رحلة ميسَّرة إلى الشمال.

ردَّ ماغنوس بكلمات لم تفهم منها شيئاً. فصاحت: «ماذا قلت؟».

فصاح بصوت خشن فوق ضجيج المحرّك: «أغراضُك».

حقيبتها، وعلبة الكعك في كيس لفائف الصوف، في حجرة تخزين الطعوم. نظرت إلى صندوق مشترياتها، رفعته بسرعة إلى الباخرة، ثم صعدت وركضت إلى الوراء عندما حلَّ أولي حبل الربط الأمامي، وداس ماغنوس على دوّاسة المحرّك، فاندفعت مقدّمة الباخرة إلى الخارج. بمشاعر حيادية، راقبت إنغريد أولي يمشي إلى مؤخّرة القارب ويحلُّ حبل الربط الثاني، كلّ شيء يكرّر ذاته، ورغم أنها هنا بملء إرادتها، فهذا لا يهوّن الأمر، فلا عودة إلى الوراء بعد الآن، ولا عزاء في ذلك.

صعدت إنغريد الدرجتين إلى قمرة القيادة، وقالت إنها سترشده إلى الطريق.

«في هذا الاتجاه؟».

«كلّا».

صحّحت له الاتجاه قليلاً.

قال: «قلتِ أنكِ لا تستطيعين العودة إلى البيت؟».

«كلّا».

بعدئذٍ، حدّقت بثبات في الطريق الذي تحفظه غيباً، وقالت إنه سينام الليلة معها في بارأوي، لكن بشرط أن يستحمّ أولاً. صمت طويلاً، ثم سألها: «أين؟».

«في الجرن!».

قهقه. ثم صمت كلاهما.

أبحر بهم شمال غرب أوترهلومن، وحرث الماء وسط أسطول من طيور العيدر بين اللسان البحري الشمالي والميناء، وغمغم بضع كلمات إطراء على الرصيف الجديد. هذا الجبل من الصخر الوردي المنحوت يدوياً، والذي بنته أيدٍ أجنبية في وقتٍ ما في طفولة إنغريد، عندما كانت هناك حرب أيضاً. قالت إنغريد: «أجل، لقد كان رصيفاً بديعاً».

تركا القارب في عهدة أولي ورفيقه، الذي شُطب اسمه كلاجئ، وتمّ تجنيده على القارب بشكل دائم. جرى حديث بين الرجال، لم تسمعه إنغريد. صعدا نحو البيت المظلم، إنغريد في المقدّمة، مع حقيبتها وعلبة الكعك، وعيناها تحفران بقوّة في الثلج العميق، كأنها تفتّش من جديد عن آثار أقدام غير موجودة، ومن ورائها ماغنوس، مع مشترياتها وكيس لفائف

الصوف. دخلا إلى المطبخ البارد، الذي لا حياة فيه، ونجحت هنا أيضاً في أن تبقى عمياء.

أشعلت الفانوس، وأشعل ماغنوس الموقد، وهي تجيل بصرها في أرجاء المطبخ، لكنها لم تجد ما يخيف. عندما فرغ من إشعال الموقد، وقفت أمامه صامتة حتى شعر كلاهما بالإحراج، عندئذٍ بدأت تجرّده من ملابسه، رغم أن جوّ المطبخ ما زال بارداً، وتجاهلت بعض النكات المتوتّرة عن جرن الزنك الذي خدم أجيالاً في بارأوي، وحمّمته صامتة وهي تفكّر بنيلفي والماء، الجاري، المُطهِّر، المُهدّئ، البارد، الساخن، الزلق، الرطب، المالح... وفكّرت في الوقت نفسه في الصابونة التي لا ترغي، بالرائحة الكريهة والقذارة، حتى لم تعد تشمّ أيّ رائحة بشرية.

سألها: «لماذا تفعلين هذا؟».

عَرَّت جذعها العلوي، أرته ظهرها، وسألته كيف يرى الجراح فيه. قال إنها تتعافى بشكلٍ جيّد. بدّلت ماء الجرن، وأخبرته عن نيلفي وأصابعها، وراحت تتحدّث عن الماء، كأنها مدفوعة بفرحٍ تطهّري، بطقسٍ لا بدّ من تكراره ليؤتي ثمره، بينما ماغنوس يجلس في الكرسي الهزّاز ملفوفاً ببطانية، ويعيد سؤاله: «لماذا تفعلين ذلك؟».

«لأنني ينبغي أن أفعله».

سحبته وراءها إلى الطابق العلوي، إلى الصالة الشمالية، ونامت معه دون أن تقول أيّ كلمة، ما خلا الاستجابة لطلبه، الذي اعتقدت أن تكراره ثلاث مرات قد جعل منه شخصاً أفضل.

عندما نام، نهضت ونزلت إلى المطبخ واستحمّت مرة أخرى، لكن دون تفكير، ثم عادت إلى الصالة الجنوبية ونامت في ذلك السرير البارد،

ولم تستيقظ إلا في الهزيع الأخير من الليل، وكان نهارٌ شتوي آخر يضغط بقوّة على زجاج النافذة الأبيض. وكانت سالتهامّر قد غادرت بارأوي. تساءلت إنغريد أين عسى القطة كوشكا تكون؟ وأدركت أنه لا بدّ من أن يكون النسر قد صادها، وكانت تلك فكرة يمكن احتمالها. فعادت إلى النوم ثانية.

III

- 1 -

في أواخر الصيف الذي أكملت فيه إنغريد عامها العاشر، أخذ والدها العائلة كلّها إلى نيسهولمن لشراء التبن. تقع نيسهولمن على مقربة من البرّ الرئيس لدرجة أنها لا تبدو جزيرة. بدا الأمر كما لو أنهم خارجون في إجازة، سمَّتها أمها نزهة، واضطرّت أن تشرح لها ماذا تعني كلمة «نزهة»، وأصبح ذلك اليوم أحمر في روزنامةٍ كلّ أرقامها سوداء.

«لكن، أين سنضع التبن؟!».

«سنأخذ قاربين».

كان ذلك الصيف هو الأكثر رطوبة في ذاكرة البشر الحيّة. لكن في نهاية شهر آب حلّت موجة حرٍّ خانقة على اليابسة والبحر، سيَّحت العقول وأغشت الأبصار. خيَّم ضبابٌ كثيف فوق مروج سوداء متعفّنة، سكتت الطيور، أطلقت الطبيعة أنيناً غير مسموع، وسكن البحر مثل بلاطة لامعة.

كانت أمّها متحمّسة، ولم تتوقّف عن اللغو وهي تملأ صندوق لوفوتن بالطعام والحليب، والملابس المطرية التي تمنّوا ألّا يحتاجوها. ركبوا القارب الرباعي المجاديف، وقطروا وراءهم قارباً آخر. تبادلوا الأدوار في

التجديف، ووقفوا وتحرّكوا من جهة إلى أخرى، وضحكوا، وتحامقوا، في تلك الساعات التي استغرقتها الرحلة إلى نيسهولمن، حيث كان هانس بارأوي قد ساوم زوجين عجوزين على شراء محصول تبن قديم منهما، خصوصاً أنهما قد توقّفا عن تربية الماشية، لكنهما لم يتوقّفا عن الزراعة.

يسأل الفلّاح ما إن كانوا يريدون شرب القهوة.

فيشربونها في الخارج، فوق الحشيش. يأكلون ويدردشون، بينما إنغريد ولارس يلعبان مع الكلب في المزرعة. يكدّسون التبن في القارب، ويحزمونه.

وعندما ينتهون، لا يصيحون على الأولاد، بل يستلقون متكئين على مرافقهم، فوق الرمل، متكاسلين، وينظرون إلى المدى - إلى بارأوي.

يتذكّر هانس بارأوي أنه قد أحضر معه زجاجة كحول، يكرع منها الرجال أولاً، والنساء بعدهم. يخلعون ملابسهم ليسبحوا، وإذ لا غضاضة بالنسبة لطفل أن يسبح عارياً، يخلع لارس ثيابه بسرعة، بينما يستغرق الجد مارتن وقتاً أطول؛ حتى عندما يخلع ملابسه، لا يشاركهم السباحة، بل يجلس على الرمل مثل سمكة بيضاء، ثم ينهض ويمشي ببطء إلى ألسنة الماء الضحلة، يخوض فيها قليلاً ثم يبدأ بشتم الحشرات التي تلسع ظهره، ولا يستطيع أن يصلها بيديه الكبيرتين نحاسيّتي اللون. عندما يفرغ الآخرون من السباحة، يعود ويرتدي ثيابه معهم، ثم يجلسون على الشاطئ.

يشاهد الزوجان في المزرعة ما تفعله العائلة، فينزلان إلى الشاطئ، وينضمّان إليهم، ويجلبان معهما زجاجة مشروب أيضاً.

هذه رسمة طفل، الأخضر أخضر، والأزرق أزرق، لكن قنفذ البحر أحمر وهذا نادر الوجود، فهو أصفر وهّاجٌ يدوم انطباعه في الذاكرة طويلاً،

وهذه الرمال البيضاء. قد تكون نيسهولمن أكبر قليلاً من بارأوي، وقد تتسع لعائلتين أو ثلاث، لكنّ الجزيرتين -والحقّ يُقال- متشابهتان تماماً؛ وأهل بارأوي وسط أناس يشبهونهم، وهذه هي معجزة هذا النهار، إلى أن ينتهي ويضطرّون إلى العودة إلى بيتهم.

يجدّف هانس الآن، وهو راضٍ عن ضربات مجاديفه الكسولة. يرتدي سترة سوداء مع سلسلة ساعة من دون ساعة، ويرتدي أيضاً قبّعة قبطان لا يسمح له شقيقه أن يلبسها في لوفوتن. تتناوب باربرو وماريا على التجديف أيضاً. إنهما ترتديان أجمل ملابسهما، فستان أصفر، وفستان أزرق، وكالعادة، تربطان كنزتي صوف حول أكتافهما، ومجدافاهما مثل ملعقتين تغرفان بصمت من صلصة سميكة. ينزلق ظِلّا القاربين الطويلين على الجبال، وحبل القطر الطافي بينهما بهدوء، والسكون من حولهم لا يكسره سوى صوت مجدافي القارب الرباعي، الذي يسافر إلى الوراء باتجاه قارب القطر والصغيرين ومارتن العجوز النائم فوق التبن؛ يقول هانس بارأوي لماريا إنه ربما كان ينبغي أن ينجبا ولداً آخر، وهذه دعوة مراوغة من بحّار مُتمرِّسٍ إلى امرأة جميلة. فتقول ماريا إن لديهما لارس، وتلاحظ إنغريد كيف تبتسم باربرو وهي تنظر إلى أرضية القارب. وتلاحظ أيضاً أن لارس لا يسمع، لأنه نائم على زند جدّه، وتفكّر في أنها ينبغي أن تقتله.

تنهض فجأة، فتُكتَمُ الأصوات في القارب، وتلتفت أمها نحوها وتسألها ما إن كانت بردانة. تقول إنغريد: «كلّا». تبتسمان كلٌّ منهما للأخرى، في ضوء يزداد زرقة.

- 2 -

الآن يرتفع في البحر ضوء فوانيس تشبه دوّامات منوّمة، وميض صور غير واضحة، ومعها تشعر إنغريد بأول رعشة خوف تسري في جسدها، السمّ الشخصي الذي نجحت في كبحه حتى الآن - حتى وجدت نفسها مستلقية على ظهرها في سرير والديها في الصالة الشمالية، تغطّي وجهها بكلتا يديها، مليئة بالخوف الهائل ذاته. وفي الجدار إلى جانبها، باب الخزانة المخبّأ مفتوحٌ وقد أزاحت لحف العيدر، والبُسط من مكانها، لكنها لم تجد دفتر رسوماتها.

تجلس، وتحدّق في الفتحة، ثم تستلقي مرة أخرى.

لقد قطعت الحطب بفأس مُثلّمة، لأنها لا تستطيع وحدها أن تدير حجر الجلخ وتشحذ الفأس في الوقت نفسه، وقد خبزت الخبز وليس لديها حليب، ونظّفت الغرف التي لا ينام فيها أحد، وتفقّدت مخزون البطاطس واكتشفت أنه قد نجا من الصقيع. لقد جرفت الثلج من بين البيوت رغم أنه ليس لديها حيوانات ترعاها. وقد دارت الجزيرة كما يدور العقرب في الساعة دون أن تجد أيّ تغييرات أو ما تبحث عنه لتستعيد ذاتها ثانية.

تُغلق باب المخبأ وتقف وسط الغرفة متأملة. بعدئذٍ تذهب إلى الغرفة الأخرى، ترفع الأشياء بيديها وتزنها، طاولة السرير، صحن، صورة خروف، تداعب بأصابعها غطاء طاولة مطرّزاً، تفتح درجاً ثم تغلقه بهدوء، فيبدو أنه لا يتحرّك. تحدّق عبر النافذة حتى يتحوّل كلّ شيء إلى ماء، فتنزل إلى غرفة المؤونة وتبعد ثلاثة مرطبانات مربّى انكسر زجاجها بسبب الصقيع، تفصل الزجاج عن مربّى التوت، ترمي مربّى التوت، ثم تحمل الزجاج المكسور إلى حيث ستطمره حتى حلول الربيع، ثم تدخل الحظيرة، وتجلس على السلّم، حيث رأت ذات يوم ماءً ولم تفهم ماذا يعني وجوده هناك.

قارب فيه رجلان يضحكان.

إنه قارب دورية، والرجلان هما ضابط الشرطة هنريكسن والملازم الألماني هارغل. وقف هنريكسن متأرجحاً ورمى حبل الإرساء، لكن الرمية كانت قصيرة، قهقه هارغل ساخراً؛ خوضت إنغريد في الماء، وسحبتهما إلى الزلّاجات، فوقع هنريكسن إلى الأمام مع خبطة قوية على مقدّمة القارب، شاهدت سقوطه وسمعت لعناته، كما سمعت المزيد من قهقهات هارغل، في الخارج، وفي البيت أيضاً...

لقد عادا للتدقيق في أمرٍ، جاءا لاستجوابها، بسبب الشكّ، جاءا لينتزعا الحقيقة منها، إن دعت الضرورة ذلك، ومن أجل أمرٍ آخر، ما عادت تتذكّر ما هو.

تنهض عن سلّم الحظيرة، وتدخل إلى العلّيّة، فتجد المزيد من الثياب، فتُخرج القارب وتجدّف إلى الجانب الآخر من موتهولمن، وتفعل أمراً ما بينما لا شيء يجري داخلها، ولا بدّ من أن تعلّق آمالاً على أن رسالة

الوعظ التي كتبتها لسوزانا ستؤتي ثمارها، الرسالة التي كان ينبغي أن تكتبها للارس، فهي لا تستطيع أن تبقى وحدها، الآن أكثر من ذي قبل - ينزلق خيط الصيد فوق بكرته ويختفي في البحر، يظهر ثانية مع النترة الثانية، ومروحة من القطرات تستقرّ فوق القفّاز ومقعد القارب وحافته، لكنها لم تتحوّل إلى جليد.

حدّقت في قطرات الماء طويلاً، ثم لاحظت أنها تشعر بالدفء ليس بسبب الجهد الذي تبذله، بل لأن الريح قد غيّرت اتجاهها منذ فترة طويلة، لأن الثلج كان قد أصبح رطباً عندما مشت باتجاه الرصيف، وفي الجنوب عمود من الضباب بين البحر والسماء.

تجدّف داخلة إلى السقيفة، ترفع القارب، وتضعه في مكانه، تُغلق البوّابة، ثم تحمل صيدها وتصعد إلى المطبخ، تنظّف السمك، تفصل الكبد والبطارخ، ثم تطبخ وتأكل حتى يصبح صخب الريح لا يُحتمل.

تنام في المطبخ، وتغطّي رأسها بلحاف العيدر، تشعر باهتزاز البيت وتتلقّى ضربة على صدغها بعصا مطاطية غليظة تشبه ثعباناً أسود، وضربة أخرى على أذنها وعلى خدّها الثاني، وترى بضع ومضات بيضاء، ثم يخيّم صمتٌ يكسره صوت جريان ماءٍ بعيد، والماء غير نظيف، إنه بول، إنه بولها هي، تشعر بحرارته وتشمّ رائحتها النتنة - في منخريها المليئين بالدم...

لقد وجدوا دفتر رسوماتها.

كان المطر يسوط الجدران والأسقف. نهضت وتقيّأت، ثم عادت ونامت في المطبخ حتى غطّت الجزيرة طبقةٌ لامعة من الثلج البنّي.

نهضت وخرجت مع آخر عصفة ريح، شاهدت السماء تنجلي فوق الجبال في الشرق، وعين الشمس الرمداء في الأفق، في الجنوب، كانت في آخر الطريق. لو أنّ سوزانا ستأتي، فينبغي أن يكون الآن. لكن الأيام تمضي، والليالي أيضاً، وتختفي دونما أثر، لكن باربرو هي التي جاءت.

- 3 -

أدولف، من مالفيكا، وابنه دانيال أوصلا باربرو بقاربهما. وجلبا معهما كيس طحين، سطل حليب، وغنمة حاملاً. راقبت إنغريد القارب يقترب، لأكثر من ساعة، دون أن تفكّر في أي شيء، دون أيّ توقّعات.

شاهدت عمّتها تفشخ فوق حافة القارب، وتخوض في الماء وهي تعرج، وعندما تصعد الشاطئ تركع على ركبتيها وتقبّل تراب الجزيرة بانفعال. سمعت ضحك دانيال منها، كما رأت أدولف يرفع الغنمة فوق حافة القارب ويُنزلها الماء، فخاضت في الماء، ثم صعدت إلى اليابسة، ووقفت تنتفض مثل كلبٍ. ضحكت إنغريد دون ضحك، شدّت جذعها ونظرت إليهما مباشرة، فنظرا إليها، وبدا أنهما قد عرفاها، قالت لهما إنها سعيدة لرؤيتهما، وسألتهما عن تاريخ اليوم.

قالا إنه يوم الأربعاء، الأسبوع الثاني من شباط.

سمعت إنغريد أن باربرو قد دفعت ثمن الغنمة نقداً، وثمن الحليب والطحين، لكنهما يريدان استرداد السطل الفارغ.

حملا السطل إلى المطبخ، وأفرغا الحليب منه، بينما أخذت باربرو

تغني وتلوّح بيديها وقالت هللويا وجعلت من نفسها أضحوكة، فاضطرّت إنغريد أن تشيح وجهها.

سألت الرجلين ما إن كانا جائعين.

شكراها، وقالا إنهما جلبا طعاماً للطريق، لكن أدولف أراد أن يتحدّث إليها على انفراد، وبدا أنه بحاجة أن يستجمع شجاعته قبل أن يستطيع إخبارها أن قاربها موجود في سقيفته، وأنه لا يعرف ما إذا كانت تريد استرجاعه، أو متى؟

زرّت إنغريد عينيها وقالت إنها لا تعرف أيضاً. ما رأيه هو؟

«أعتقد أنه ليس بعد»، قال أدولف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لم تعلّق إنغريد.

أدولف من مالفيكا، لطالما كان ضمان الجزيرة على اليابسة، أومأ برأسه بضع مرات، وقال هذا كل شيء للآن، كلّا، أخرج من جيب قميصه ورقة مطوية وناولها لإنغريد. قرأت إنغريد ما خطّته بيدها: مناشدة لكلّ الناس الطيّبين أن يساعدوا هذا الرجل الذي ينبغي ألّا يموت، هكذا عبّرت عن نفسها.

قذفت ضفيرتها وراء ظهرها، وكانت قد ضفرت شعرها في ضفيرة واحدة هذه المرة، ثم نظرت إلى الرجل العجوز كما لو أنه اقتحم جزيرتها. نظر إلى ابنه، بانزعاج، وقال إنه أرادها أن تعرف ذلك الآن.

«أعرف ماذا؟».

«أن كل شيء على ما يرام».

ودّعهما بانحناءة، وسار إلى قاربه وهو يتمتم لابنه بشيءٍ عن الشراع.

دفعت إنغريد قاربهما عن الشاطئ، وانتظرت حتى رفعا الشراع، وملأته الريح، وجلس أدولف على مؤخّرة القارب ودفّة التوجيه تحت إبطه. لوّح دانيال مودّعاً.

وضعت باربرو الغنمة في الحظيرة، وحملت إنغريد كيس الطحين. وضعتا سطل الحليب في غرفة المؤونة، وعادت باربرو تبكي فرحاً، وحدّثتها عن الوضع الزريّ في المستشفى، والطعام، والممرّضات، والأطباء... بينما جلست إنغريد في الكرسي الهزّاز تستمع إلى صوت شخصٍ آخر، وشعرت بالشوق للقطّة كوشكا، بينما لا تزال تعصر الورقة في قبضتها، وتساءلت لماذا أعطاها إلى أول شخص قابله؟

هل لأنه لم يستطع قراءتها؟ هل لأنه لم يثق بها؟ وكم من الأسباب الأخرى التي لا تعرفها؟

بصخبٍ، وضعت باربرو مقلاةً على سطح الموقد، حرّكت ذراع مضخّة الماء، وانسلّت إلى غرفة المؤونة ورمت حراشف السمك وغلاصمه التي تركتها إنغريد في طاسةٍ هناك، وتساءلت ما إن كانت إنغريد قد جُنَّت لدرجة أنها نظّفت السمك داخل البيت؟

بدأت تطبخ. أعادت إنغريد طيّ الورقة، وشعرت أنه ينبغي عليها قول شيء، فقالت إنه ليس لديهما علف للغنمة. فقالت باربرو إنها يمكن أن ترعى العشب القديم الآن، بما أن الثلج قد بدأ يذوب في الحقول، وهم لم يجزّوه في الصيف، ويمكنهما أن تغليا أعشاب البحر ورؤوس السمك، تتركانها لترعى أعشاب البحر، ويمكنهما أن تشتريا تبناً.

قالت إنغريد إن لديهما أيضاً بعض الحشيش في المخزن في جيس

أوي، وأخذت باربرو استراحة من أعمال التنظيف المتعبة عند العودة إلى البيت، ثم نظرت إلى إنغريد بتقطيبة قلق بين حاجبيها وقالت: «لقد تغيّرتِ كثيراً».

«كيف؟».

«لقد أصبحتِ أجمل».

أرادت إنغريد أن تقول إنها لطالما كانت كذلك، لكن عمّتها بقيت واقفة، والرباط على وركها، تتأملها كما لو أنها متفاجئة. ثم تقدّمت منها، أمسكت بجديلتها وتفحّصتها، ثم تركتها، واستدارت عائدة إلى المطبخ وهي تهمهم منزعجة - وتذكّرت إنغريد في نوبة هياجها أين أخفت دفتر رسوماتها: حالما رأت الرجلين في القارب، هرعت إلى المخبأ وأخرجت منه دفتر رسوماتها، وراحت تركض في البيت كالمسعورة حتى وجدت مكاناً أقل أماناً، في نوبة جنونها تلك: تحت فراش سرير جدّها. لكن باربرو كانت تقف أمامها وفي يدها سطل البطاطس الفارغ، بابتسامتها المُستفِزّة.

انتزعت إنغريد سطل البطاطس من يدها، وخرجت في المطر إلى المخزن، فتحت الباب، وجثت على ركبتيها لتسمح للضوء بالمرور من فوق ظهرها، والتقطت حبات البطاطس كما لو أنها تلتقط بيوضاً من عشٍّ، وصفَّتها في السطل دائرياً وهي تعدُّها، وكانت واثقة جداً من اكتشافها حتى قبل أن تدخل وتضع سطل البطاطس على طاولة المطبخ، وتتابع سيرها إلى غرفة جدّها وترفع أحد جوانب الفراش وترى أن دفتر رسوماتها قد كان هناك حقاً.

ضمّته إلى صدرها، فتحته وشاهدت رسوماتها المدرسيّة: أكواز الصنوبر والأصداف، القصيدة الروسية غير المقروءة المؤلّفة من ثلاثة

أسطر متطابقة، وقفت تنقّل قدميها في مكانهما، وارتجفت من رأسها إلى قدميها، حتى شعرت أنه لا مجال للشك في أن الدفتر بين يديها، بعدئذٍ أسرعت إلى العلّيّة ووضعته تحت لحف العيدر في المخبأ الذي تنتمي إليه، هناك في الصالة الشمالية.

عندما نزلت، وجدت باربرو تقف أسفل الدرج، بوركها المربوط، تسألها: «من والده؟».

تابعت إنغريد نزولها، دفعت باربرو جانباً ومشت إلى المطبخ، وقالت عدّة مرات -بما يشبه الغمغمة- أن ليس شأن باربرو أيّ روح جهنمية هي والده، ثم استدارت واعترفت متردّدة أنه صائد حيتان من راينه، بينما باربرو واقفة تحدّق إليها كمن تبحث عن سببٍ للشكّ في روايتها.

سألتها عن اسم الرجل.

لم تردّ إنغريد.

هزّت باربرو رأسها متشكّكة، ثم استدارت ورفعت سمكة من الماء وانتظرت حتى اقتربت إنغريد منها، لتنظرا بدهشة إلى ألوان قوس قزح في لحم السمكة البيضاء تلك، فوجدتا أمراً مشتركاً بين العمل واستكشاف نقطة التوازن الخفية بين السمك المطبوخ المطهوّ جيّداً والمطهوّ كثيراً. وسألتها باربرو أين صادتها، فقالت إنغريد ربما بالقرب من سكوغهولمن، على حد علمها، فهي لا تذكر جيّداً.

«بالخيط والصنارة؟».

«نعم...».

نظرت إليها باربرو.

فسألتها إنغريد ما إن كان ينبغي أن ترميا الكبد وتقليا السمكة بالزبد،

خصوصاً أن باربرو قد عادت إلى البيت مع قسائمها ولديهما الآن حصّتان من التموين. بإمكانهما أن تحتفلا. أليس كذلك؟!

قالت باربرو إنها ستأكل الكبد، خصوصاً أنها لم تأكله منذ سنوات ويوم، وأنهما ستأكلان في صحون البورسلين، وستشربان عصير الكشمش.

قالت إنغريد إن عصير الكشمش قد نفد.

أجابت باربرو إن هذا مستحيل بالنظر إلى كميّات الشراب والمربّى التي صنعتها في الصيف الماضي.

قالت إنغريد إن المرطبانات قد انكسرت، أثناء غيابها، بسبب الجليد.

سألتها باربرو أين كانت.

فقالت إنغريد إنها كانت في العمل، في مصنع الأسماك. استدارت باربرو وحدّقت إليها، ثم سألتها ما إن كان في الجزيرة أناس طيلة الخريف. فقالت إنغريد «لا»، وأدركت أن دفتر الرسومات لم يظهر لتهدئة غثيانها فقط، بل جلب معه أيضاً بداية عتمة جديدة.

خرجت إنغريد ووقفت في المطر، طويلاً. وعندما عادت، كانت باربرو قد أعدّت الطاولة.

جفّفت إنغريد نفسها، وأكلتا صامتتين، غير أن باربرو أثنت على الطعام، وغنّت قبل الأكل وبعده. ولم تعلّق إنغريد على غنائها.

ارتدتا معطفيهما وخرجتا، وجدتا وتداً، ورسناً بحلقة حديدية، وضعتا الغنمة في أقرب حديقة، دقّتا الوتد في الأرض، وانتظرتا حتى بدأت الغنمة ترعى الحشيش البنّي. بعدئذٍ، عادتا إلى البيت.

أنجزتا بعض الأعمال المنزلية، ثم عادتا وغيّرتا مكان الوتد. فقالت

باربرو إنّه ليس هناك حاجة لربط الغنمة إلى الوتد، لأنه ليس هناك مكان تذهب إليه.

فقالت إنغريد إنها لن تقفز في البحر في أيّ حال من الأحوال.

ضحكتا معاً من ذلك.

عندما هبط الظلام، خرجتا وأعادتاها إلى الحظيرة، ووضعتا أمامها بعض التبن الجاف. لقد كانت أهمّ غنمة حصلتا عليها حتى الآن، ولو لم تكن غنمة، ربما أدخلتاها إلى البيت.

- 4 -

في شهر شباط يكون البحر فيروزيّ اللون والجزر بيضاء مثل قمم الجبال؛ لكن حوافها تبقى سوداء. والسماء قاسية مثل الجليد. لا تجدّف إنغريد إلى القرية، بل إلى ستانغهولمن، حيث يبيعها توماس العجوز كل ما تحتاجه من تبن. تجلس على حافة السرير بجوار زوجته، إنغا، طريحة الفراش، وتتحدّثان بلغة أهل الجزر وتشربان بديل القهوة.

تلاحظ إنغا أيضاً التغييرات التي طرأت على إنغريد، لكنها لا تسأل من هو والد الطفل. تسألها إنغريد كيف تستطيع أن ترى ما هو غير واضح بعد. تبتسم إنغا. وتخبرها أن جثثاً كثيرة وصلت إلى شاطئ ستانغهولمن، أيضاً، جمع الألمان بعضها، وسفينة الشحن بعضها الآخر. لكنها لا تعرف أيّ شيء عن تلك الكارثة، كما أنها لم تقرأ عنها في الصحيفة التي يجلبها توماس أحياناً.

وضعت إنغريد التبن في قاربها، ثم جدّفت عائدة.

تعود إلى ستانغهولمن، بعد أسبوع. تستقبلها إنغا وقد تعافت، وتقول إنها قد خدعت عزرائيل هذه المرة، أيضاً. يساعد الزوجان إنغريد في

تحميل التبن في القارب، ولا يسألان عن والد الطفل. لكن بعد أن يدخل توماس إلى البيت، تسألها إنغريد ما هو الحد الأدنى لعمر الخديج(*) كي يبقى حيّاً؟ تقول إنغا إن السؤال غريب، لكنها أخدجت اثنين من أولادها، وقد أخدجت أحدهما قبل شهرين، إن كان حسابها صحيحاً.

«وما زالت على قيد الحياة».

هكذا يمضي شهر شباط، دون أن تجدّف إنغريد إلى المركز التجاري، وتفعل باربرو ذلك.

تمضي إنغريد هذا اليوم مع الغنمة، وهي مرتابة في أن عمّتها تضمر أمراً، وتأمل أن يتمخض عنه شيءٌ ملموسٌ - فلا بدّ من حدوث شيء يفضي إلى آخر. عندما تعود باربرو عصر اليوم، تدقّق النظر في وجهها، دون أن تلاحظ شيئاً، سوى أن عمّتها قد واجهت بعض المتاعب مع مارغوت، وهذا ليس جديداً، فتسألها إنغريد ما إن كان لدى مارغوت أخبار.

«مثل ماذا؟» تقول باربرو بصراحة.

فتسألها إنغريد ما إن تحدّثت مع غير مارغوت. تقول باربرو «نعم»، مع ضابط الشرطة.

«مع هنريكسن؟».

لدى باربرو سرّ، وعندما يكون لديها سرٌّ تبدو سحنتها غبيّة أكثر من أيّ وقت. فتقول إنغريد: لكنه ما عاد ضابط شرطة.

تقول باربرو إنها تعرف ذلك.

(*) هو الجنين غير مكتمل النضج المولود قبل أوانه بولادة مبكرة. [م]

تسألها إنغريد ما إن رأت جنوداً، عربات عسكرية؟

تختفي سحنة الغباء عن وجه باربرو.

تقول: «الألمان في الحصن العسكري»، وتخبرها أنه على بارأوي أن تستقبل بعض المهجّرين من فينمارك، وأن هذا ما أخبرها به هنريكسن، وهو سيأتي لاحقاً ليحصل على توقيع إنغريد، باعتبارها مالكة الجزيرة.

تقول إنغريد إنهما ستتفقان على ذلك، وتسألها ما إن جلبت قطة من عند جيني وهانّا. فتقول باربرو إنها قد نسيت الأمر.

تقول إنغريد إن باربرو تنسى كثيراً هذه الأيام، لا بدّ من أنه بتأثير العمر، وتخرج لتجد ما تُشغل نفسها به، مثل ترتيب سقيفة القارب السويدية، حيث تجد بقايا حيوات كثيرة ما عادت أكثر من عبءٍ ستضطرّ أن تخوض في الثلج لتنقله إلى سقيفة لوفوتن القديمة، المُغلقة منذ زمن طويل، وكل ما فيها هو بقايا أشياء ما عادت موجودة. وتجد أشياء أخرى مع تقدّم النهار. لكنها، على الأقل، أعادت تنظيم السقيفة السويدية.

تعود إلى البيت وتجلس في الكرسي الهزّاز وهي تنظر إلى باربرو تطبخ الطعام. بعد أن تأكلا، تبدأ باربرو بنسج شبكة جديدة. تنام إنغريد في الكرسي، وتستيقظ على قرقعة عمّتها في الموقد. تشعر بريالتها فوق ذقنها. تقول لها باربرو أن تعود لنومها، بالنظر إلى وضعها. تعدُّ الغرز التي نسجتها عمّتها في الشبكة، ثم تصعد إلى العلّيّة وتستلقي، لكنها لا تنام.

لم يأتِ هنريكسن بطريقته المعهودة، على قارب شحن مُصادر، وبرفقته جنود، بل جاء وحده، بقاربه الآلي القديم، الذي ربطه بجانب الرصيف، وخوّض في الماء إلى اليابسة.

وقفت إنغريد وباربرو أمام نافذة المطبخ تشاهدانه وهو يجاهد صعوداً عبر أكوام الثلج. أرادت باربرو أن تخرج لمساعدته، لكن إنغريد منعتها، وتركته يصعد إلى الشرفة ويطرق الباب قبل أن تقول له: «تفضّل»، بصوتٍ خفيض جداً.

دخل، خلع قبّعته الفرو، وقفّازيه الجلديّين، أغلق الباب، وحدّق في الفراغ بعينين تشبهان قرحين في وجه أحمر منتفخ، متهالكاً كلياً بالمقارنة مع آخر مرّة رأته فيها إنغريد، وكانت على وشك أن تطلب منه الجلوس.

طلبت باربرو منه أن يجلس، وسألته ما إن كان يرغب بالقهوة. فجلس على أقرب كرسيّ إليه، وقال «نعم» خشنة دون أن ينظر إلى إنغريد.

سألته لماذا جاء بمفرده، رغم أنهم كانوا ثلاثة، في لجنة التوريد، على متن القارب. أليس كذلك؟

بدا أنه وجد السؤال ماكراً، نظر إلى الثلج على حافة النافذة دون أن يقول شيئاً، حتى أصبح الصمت لا يُحتمل، أدار جذعه المتصلّب، وغمغم قائلاً بصوت يكاد لا يُسمع إنهم قرّروا أن يستقبل سكّان بارأوي عائلة هاتّا، من فينمارك، أم وأربعة أطفال، يقيمون الآن في بيت القسّ، وقد حطّموا الأثاث، وكسروا زجاجاً وأقداحاً، ولا تستطيع اللجنة تحمّل تلك المسؤولية، وفي الأسبوع القادم ستصل دفعة لاجئين جدد، ويبدو أن لا نهاية لهذه الحرب اللعينة.

ضحكت إنغريد بعصبية وقالت إن عائلة هاتّا ينبغي أن تبقى حيث هي. تسمّرت باربرو، وركوة القهوة في يدها، ثم التفتت ونظرت إلى إنغريد بدهشة.

«لكن يمكنهم أن يقيموا هنا».

فصرخت إنغريد بانفعال: «لا يمكن أن يقيموا هنا!».

«لماذا؟».

«ليس لدينا نقود! وليس لدينا طعام!».

هزّت باربرو رأسها ووضعت فناجين القهوة على الطاولة، صبّت القهوة وتمتمت كلاماً غير مفهوم وهي تستدير عائدة، وتخبط الركوة على الموقد.

«وينبغي أن تذهب البنات إلى المدرسة»، قالت إنغريد بصراحة.

كان هنريكسن ينفخ على القهوة، ويتلفّت بحثاً عن السكّر، وعندما فقد الأمل، سكب القهوة في الصحفة وبدأ يرشفها، ثم مسح شاربيه بظاهر كفّه، وقال إن اللجنة هي من تقرّر، وعلى إنغريد أن تمتثل لذلك.

«كلّا»، قالت إنغريد.

نظر إليها، لأول مرّة، مباشرةً، وبدلاً من أن ينفجر غاضباً غرق في تداعياته، واحتارت إنغريد فيما إن كانت ترى رجلاً مذنباً يجلّله العار، وفي عينيه المريضتين نظرة ندم، أم أنها ترى تجسيداً للشيخوخة، أو الحرب، كما لو أنّ هنريكسن، أيضاً، قد تأثّر بالحرب.

«يمكن أن نستقبل الأولاد الثلاثة من هامّرفيست» -قالت إنغريد- «أو سكارفوغ، أولئك الموجودون في مولاندسفيكا».

نظر إليها هنريكسن بدهشة أكبر. فاستأنفت قائلة: «يمكنهم أن يركبوا البحر، ويصطادوا، وهم قادرون على العمل».

«وهؤلاء ينبغي أن يذهبوا إلى المدرسة»، قال هنريكسن.

لزمت إنغريد الصمت.

كرع هنريكسن قهوته كأنه قد حقّق نصراً كبيراً، ثم انحنى إلى الأمام بغرورٍ، وأخرج من جيبه ورقة مجعّدة ووضعها على الطاولة بينهما. عرفت إنغريد هذا النوع من الاستمارات، وقرأت إن اللجنة قد وجدت بارأوي مكاناً صالحاً لإيواءٍ مؤقّت لخمسة مهجّرين أو ثمانية... بينما أخذت تتساءل كيف يمكنها -دون أن تسأل- أن تعرف منه ما قد حصل لها عندما جاء هو وهارغل قبل عيد الميلاد، ما الذي فعلاه بها.

اعترف هنريكسن أن الأولاد الثلاثة ربما لا تسير أمورهم على ما يرام في مولاندسفيكا، ومَنْ تسيرُ أموره على ما يرام في هذا الزمان؟!

فسألته إنغريد ما هو الخطأ في هذا الزمان.

صرخ هنريكسن إنه لم يستطع قطّ أن يفهمها، القحبة!

سألته إنغريد: «أين كان الملازم، هارغل؟».

أجابها هنريكسن عن سؤالها: «في فورتيت في نوردأوي»، قبل أن يسألها أي نوع من الأسئلة هذا، بحقّ الجحيم.

طلبت منه إنغريد أن يغادر، وأنها لا تريد أن ترى وجهه هنا، مرةً أخرى.

طرقت باربرو ركوة القهوة على الموقد مرة أخرى. نهض هنريكسن، وهزّ رأسه بقوّة وكأنه يريد أن يتخلّص منه، ثم تناول قبّعته وقفّازيه عن الطاولة، وصفق الباب وراءه بقوّة وهو ما زال يلعن. وكانت إنغريد واقفة وهي تصرخ في إثره حتى تجاوز نافذة المطبخ، وشاهدتا ظهره الأسود يختفي وراء الثلج الذي راح يخوّض فيه بخطوات ثقيلة ومنهكة. وبعد انتظار طويل، سمعتا هدير المحرّك من بعيد يخبو مثل ضربات قلب ثقيلة، فابتعدتا عن النافذة.

أجلست باربرو إنغريد في الكرسي الهزّاز وسألتها لماذا تنبح كل هذا

النباح؟ شعرت إنغريد بيدٍ باردة على ساعدها، وبدأت تسرد ما قد جرى في الشتاء، وشعرت أن الكلمات التي تجري على لسانها تصبح أكثر فظاعة مما كانت، لكنها مختلفة أيضاً، وأنها تخصّ شخصاً آخر غيرها، وأنها قد بدأت تحدّث نفسها، كما يتحدّث سكّان الجزر إلى أنفسهم كي لا يجنّوا، قبل أن ينخفض صوتها وتذوي كل الأصوات في صمت طويل - كما اختفى أيضاً اليومان أو الثلاثة أيام قبل قدوم الرجلين، الأيام من ليلة مغادرته الجزيرة حتى لحظة وجداها؛ لم تدرك متى هبط الظلام، وهل جاء منه أو منها، أم من الفَقدِ الذي لا يبارح تفكيرها.

لقد تغيّرت قسمات باربرو، عندما كانت إنغريد تتحدّث؛ تعبير لم ترَه إنغريد من قبل، لكنها رغم ذلك أحسّت أنه لا بدّ كان هناك، لأنه لم يفاجئها اكتشافه، كما لو أن باربرو أيضاً لديها أسرار، ولديها القدرة على إخفائها أيضاً. وضعت يدها على ذراع عمّتها، لكن باربرو أبعدتها عنها. وفي تلك الليلة أيضاً، خرجت إنغريد إلى الحظيرة وجلست طويلاً مع الغنمة.

- 5 -

مع انبلاج صباح اليوم التالي، جدّفت باربرو إلى القرية، حتى دون كلمة وداع، وعادت عصر اليوم ذاته، ومعها مشتريات، من الواضح أنها لم تتغيّر، لكنها قالت بحماس إنهما ستذهبان بعد يومين مع ابن مارغوت، إلى الحصن العسكري، ليجلب من هناك قبّاناً معدنياً(*).

لم تسمع إنغريد بهذا الشيء.

«قبّان معدني؟!».

أجل، وباربرو لا تعرف عن هذا الشيء أكثر من اسمه، وستَذبحُ مارغوت غداً، والميزان ليس عندها فقد أعارته للألمان...

«ستَذبحُ في هذا الوقت؟!»، صرخت إنغريد بشكل عفوي.

«أجل، لأنه ليس لديها علف»، صاحت باربرو وهي تنظر إلى عوارض السقف - ألم تفكّر إنغريد في فعل أي شيء اليوم أيضاً، فقد كان عليهما أن تخبزا. أليس كذلك؟

(*) ميزان يُعلّق إليه جسم، أو حِملٍ، ويجري وزنه من الذراع الأقصر للرافعة، ثم يُحدَّد الوزن عن طريق تحريك ثقل موازن، رمّانة القبّان، على طول مقياس متدرّج على الذراع الأطول حتى يجري تحقيق التوازن. [م]

خرجت إنغريد وفكّرت في أن تجدّف إلى ستانغهولمن لتتحدّث إلى إنغا، أو أن تنصب الشِّباك، لكنها تقيّأت، ونظرت إلى القيء، وتساءلت ما الذي قد أكلته، فحرّكت القيء بأصابعها كأنها تبحث عن ذكرى ضائعة، حتى شعرت بحماقة فعلها، فدخلت إلى البيت، غسلت يديها وبدأت تقطّع عجينة الليفسر في دوائر منتظمة، ودموعها تنهمر، وبقيتا صامتتين.

«هل أنت قادرة على رحلة الغد؟»، سألتها باربرو قبل أن تخلدا إلى النوم.

فقالت إنغريد: «نعم».

استيقظتا قبل الفجر، قدّمتا للغنمة علف نهار كامل، وركبتا القارب.

لم يكن ابن مارغوت في عمر يسمح له بقيادة شاحنة، لكنه قادها رغم ذلك، فقد نقل براميل سمك الرنجة، أكياس طحين ومؤناً، وبشراً، إلى المقرّات العسكرية في الجزيرة الرئيسة.

جلست إنغريد وباربرو في المؤخّرة مع جيني وثلاث نساء أخريات سيعرضن شكاوى مختلفة؛ واحدة لديها شكوى على لجنة هنريكسن، وستطلب الثانية من الألمان أن يعيدوا لها القارب الذي طلبوه من زوجها، أو على الأقل أن يعيروها القارب في فصل الربيع. غير أن إنغريد لم تستطع أن تعرف ما الذي ستطلبه جيني، لأنها بقيت صامتة، وكانت بين يدي باربرو.

عندما وصلوا إلى بوّابة المعسكر، كان رتلٌ من الأسرى الروس، بلباس خاكي وعيون فارغة النظرات، يعبرون البوّابة في طريقهم إلى العمل في

شقّ الطرقات. خمسة أنصاف أسطوانات من الحديد المموّج تمتد نازلةً الحقل مثل أخاديد محراث عملاقة تحت، وعلى طول أسطح البرّاكات التي يذوب فوقها الثلج المتساقط حديثاً. وأمام مكتب البرق تقف سيارة جيب خضراء وعلى سقفها وأبوابها شارة الصليب الأحمر، ومن عادمها يتصاعد دخان رمادي.

انتظر ماركوس حتى مرَّ الرتل، فترجّل من السيارة، وتحدّث إلى جندي يلبس الزيّ الألماني الرسمي. تناقشا، وأشّرا بأيديهما واتفقا. بعدئذٍ عاد ماركوس وصاح على النسوة أن ينزلن ويلحقن به.

سرن في رتل واحد باتجاه كتلة جليد ضخمة، تبيّن أنها ملجأ خرساني، وهناك توقّف ماركوس أمام باب غير مطليّ، وطرق مرّتين، ثم انتظر حتى أطلّ جنديٌّ برأسه، وسأله بنرويجية ركيكة ماذا يريد. حدّثه ماركوس عن ميزان كان قد تلقّى وعداً باستلامه اليوم، لكنه لم يقل شيئاً عن النساء.

صاحت جيني إنهن يُردن أن يتحدّثن إلى الملازم هارغل، الرجل الطيّب.

فكّر الجندي قليلاً ثم فتح الباب.

كانت الأضواء، في الداخل، كهربائية، من مولّد ديزل صاخب، ورغم ذلك كان المكان معتماً، وقد احتاجوا إلى بعض الوقت لتتأقلم عيونهم من ضوء الثلج الأبيض إلى هذا الضوء الاصطناعي، الأصفر الشاحب.

ثمّة بابان مفتوحان، واحد في نهاية كلّ جدار، خرج من أحدهما رتلٌ من السجناء برؤوس محنيّة، مرّوا أمام طاولة عليها آلة كاتبة، بنادق، خُوَذٌ، هاتف، وأكوام من الأوراق المبعثرة. بجانب الطاولة كان يوجد أكبر قبّان على الجزيرة، وبجانبه الملازم ألبيرت إميل هارغل وجندي من الصليب

الأحمر. جلس أربعة سجناء على كفّة القبان، في وضعية الجنين. حرّك هارغل رمّانة القبّان بيده حتى توازنت كفّة القبان، وصاح: «مئتان وأربعون كيلو غراماً!».

دَوَّن جندي الصليب الأحمر الرقم، وقسّمه على أربعة، بصوتٍ مسموعٍ. نعم، تقريباً، قال الملازم، الذي لاحظ وجود ماركوس، في اللحظة ذاتها، فأشار له أن يقترب.

«شحم روسي»، قال هارغل بابتسامة عريضة، ثم أعاد رمّانة القبّان إلى الوراء فسقطت كفّة القبّان على الأرض.

نهض السجناء وساروا بخط متعرّج، واختفوا داخل الباب الثاني. نادوا على أربعة آخرين، خرجوا من الباب الأول، وجلسوا في كفّة القبّان، بالطريقة نفسها. وقام هارغل بإجراءات الوزن ذاتها، ثم صاح: «مئتان واثنان وعشرون كيلو غراماً».

انحنى هارغل إلى الأمام قليلاً، وهمس للجندي، الذي هزَّ رأسه، واستدار صوب جيني، الواقفة في أول الرتل، وسألها ماذا تريد النسوة؟

عرضت المرأة التي تريد استرجاع قارب زوجها، من مكانها، قضيّتها بصوتٍ حادٍّ، الأمر الذي اضطرّ إنغريد أن تشيح بوجهها إلى الجهة الأخرى. ابتسم الجندي قليلاً ثم ترجم ما قالته.

قال هارغل، وهو يوليهم ظهره، بالألمانية: «نعم، نعم، يمكنها أن تأخذه».

بدا أن شيئاً ما قد استفزّه، فاستدار ولاحظ وجود إنغريد. قال باللغة الألمانية:

«Ah, die Inselbewohnerin, geht es Ihnen besser?».

سأل المترجم إنغريد ما إن كانت أفضل الآن، فقالت إنغريد، مرّتين، إنها أفضل؛ وسألت المترجم، دون أن تنظر إلى هارغل، ما إن كانوا قد اكتشفوا شيئاً جديداً بخصوص الجثّة في حظيرتها.

لم يفهم المترجم كلامها، فكرّرت سؤالها وتلعثمت بالكلمات، بينما كان هارغل يتابعها باهتمام. قرّر المترجم أن ينقل كلامها بدقة، لكنه استغرق وقتاً لينجز هذه المهمة. فهم هارغل قصده.

هزّ هارغل رأسه وبرطم شيئاً ما. فقال المترجم إن من وجدوه في حظيرتها كان أسير حرب روسيّاً، وليس ضابطاً ألمانياً. شعرت إنغريد أنها تقترب أكثر من غايتها، لكن ليس بالقدر الذي تريد، فسألت بغمغمةٍ ما إن كان على متن السفينة ألمان أيضاً؟

«سفينة؟ أيّ سفينة؟!».

«ريجيل».

«أجل، كان هناك الكثير منهم».

«كم واحداً؟» سألت إنغريد بألمانية ركيكة.

«كيف لي أن أعرف؟ كانوا كُثراً! ألا تكفيكِ هذه الإجابة؟!».

استجمعت إنغريد قواها، وسألته لماذا ضربوها. فردَّ المترجم غاضباً، من عنده، إنّ كل من يخبّئ ناجياً من «ريجيل»، سواء كان فارّاً، أو روسياً، أو نرويجياً، عقوبته الإعدام.

«فارّاً؟».

تقدّمت باربرو خطوة أمام الرتل، وصاحت: «هي تريد أن تعرف ما إن كنتم قد ضاجعتموها؟».

سرَت شهقة بين النسوة في الرتل، احمرّ المترجم خجلاً، وأمرها أن تخرس. بقيت باربرو واقفة في مكانها. أعادت سؤالها، وأعاد المترجم جوابه غاضباً، بينما هارغل ينظر إليهما مستفسراً. استدار المترجم إلى هارغل وبدأ يهمس له، كما لو أنه يخبره سرّاً. فالتفت هارغل إليها وقد أشرق وجهه، وقال: «آه، أنت حامل؟! تهانيّ الحارة!».

فوجئت إنغريد بردّه. بعدئذٍ انفجرت ضاحكة. فتحوّلت ابتسامة هارغل إلى نظرة اهتمام، طوى ذراعيه فوق صدره وسأل ما إن كان لديها مزيد من الأسئلة؟

قالت إنغريد: «كلّا».

هزّ برأسه وقال: «لماذا تلبسين هذه الأسمال دوماً؟».

غمغم المترجم: «لا شيء يستحقّ الترجمة».

ثم نظر إلى النسوة وقال: «اختصرن في الكلام، فأنتن في ثكنة عسكرية لا في محكمة. أنتِ هناك؟».

صاحت المرأة، التي تريد أن تشتكي من هنريكسن، إن لجنة التوريد قد ملأت بيتها بالمهجّرين، الذين لا تمتلك مكاناً كافياً لهم ولا طعاماً أيضاً، وهي لديها ثلاثة أطفال صغار وأمٌّ عجوز بحاجة إلى رعايتها، وزوجها في لوفوتن.

بصوت حلقيّ بعيد، قال هارغل: «يا إلهي!».

شاهدت إنغريد، بصمت، أربعة سجناء هزيلين يجلسون على كفة الميزان من أجل توثيق أنهم أحياء، وسمعت رقماً ألمانياً واضحاً لوزنهم يُقسَم على أربعة، وشمّت رائحة القشّ الرطب، والعرق، والديزل، ورائحة الروث، وسمك الرنجة المتعفّن، بينما ينخر الشتاء فيهم عبر البابين

المفتوحين. سُلِّمت النقود، وحمل سجينان القبّان تحت الثلج المتساقط، ووضعاه في صندوق الشاحنة. بعدئذٍ، صعدت إنغريد وجلست بجانب باربرو، وظهرها إلى كبينة السائق، ووضعت القفّازات فوق بطنها غير الظاهر.

لقد جاءت إنغريد إلى هنا من قبل، برفقة والدها، في عربة حصان مستعارة، هي ركبت الحصان، ووالدها جلس في العربة، وراح يسألها ما إن كانت قادرة على رؤية التقاطع القادم، وما إن كانت الطريق سالكة.

لقد كانت مراقبته الخاصة، وأصابعها تتشبّث بعرف الحصان الأبيض الصلب، وهي تسمع صريف الأشرطة والأحزمة التي تصفع مؤخّرة الحصان المُتعرّقة، صيف تحوّل إلى دخان أبيض عندما صاحت باربرو في أذنها إنّ البرد لا يُحتمل.

رأت إنغريد نفسها تنزل نحو القارب وسط صخب عاصفة الثلج الجاف، بين هنريكسن وهارغل مثل غنمة تُقاد إلى المسلخ، وهي تنشج وترتجف، وفوق كتفيها بطانية، وأبحر بها القارب في يوم من أيام كانون الأول إلى المركز التجاري، حيث جرى استدعاء جيني، في صباح اليوم التالي لترافقها إلى الباخرة، حيث استلمتها امرأة أخرى؛ وذلك البخار الساخن في تلك الصالة المليئة بالدخان، حيث قابلت الطبيب إريك فالك يوهانسن، الذي أمال رأسه بطريقة غريبة ولم يُبدِ أيّ اهتمام بها قبل أن تخلع عنها طبقات الثياب الثلاث، ورفضت أن تتكلّم.

لماذا لم ترغب في الكلام؟

تساءلت إنغريد ما إن كانت تلك ثيابها.

عندئذٍ رأت أن المرأة التي رافقتها كانت إيفا صوفيا، التي سافرت إلى

الجنوب لتُحضرها، إضافةً إلى مريضتين أُخريين: وأمسكت إيفا صوفيا بيدها عبر صالة الباخرة، ونامت معها في الحجرة ذاتها، وقدّمت لها كرات السمك في حساء الكاري، وبطاطس مهروسة مع قشرها الأحمر، وخبز الشعير مع الزبد، رائحة البصل المقلي، هدير المحرّك الذي طال كلّ مسمار في هيكل السفينة... لقد عرفت إيفا صوفيا إنغريد لمدة خمسة أسابيع، بينما عرفتها إنغريد ثلاثة أسابيع فقط.

أرادت إنغريد أن تقف في صندوق الشاحنة، لكن باربرو منعتها - وسمعت إنغريد هارغل وهنريكسن يتشاجران بخصوص ما إن كانت تستحقّ أن يضاجعاها، خصوصاً أنها لن تتكلّم، حتى غضب هارغل في نهاية الأمر، وضرب هنريكسن بعصاه المطاطية السوداء على ساقه، هارغل هو من أنقذ حياتها.

سألت إنغريد جيني لماذا لم تعطها ثياباً أفضل مما تلبسه قبل أن تضعها على متن السفينة، قبل عيد الميلاد.

ابتسمت جيني، وقالت: «لأنك لم ترضي أن تخلعي ملابسك، أتذكرين ذلك؟!».

بالطبع، تتذكّر إنغريد ذلك، لكن: «هل كنت ألبس ثيابي؟!».

«بالتأكيد...».

«وكيف كان مظهري؟».

«لم يكن جيّداً، لا بدّ أنهم ضربوكِ...».

ساعدتها إيفا صوفيا على نزول المعبر المتجلّد إلى المدينة الغريبة، ثم إلى الحافلة التي أقلّتها إلى المستشفى، إلى جانب المريضتين الأخريين،

اللتين ما تزال غير قادرة على رؤيتهما، وهناك سجّلوها باسمها الحقيقي الذي هجّأته لهم بالشكل الصحيح، ومن ثم اقتيدت إلى الدوش الساخن، وبعدئذٍ وضعوها بين شراشف بيضاء، وهناك رأت آدا وسيغني، الامرأتين الكبيرتين بشعرهما الرمادي ذاته، واللتين لم توفّرهما الحرب أيضاً.

- 6 -

وقفن أمام المركز التجاري، وشاهدن ماركوس واثنين من عمّال المركز ينقلون القبّان إلى الداخل. تودّعت النساء الأخريات، وذهبت كلٌّ في طريقها. وقفت إنغريد تتلفّت حولها. ووقفت باربرو تنظر إليها متسائلة. قالت إنغريد: «ينبغي أن أكتب رسالة».

«حقاً...؟».

صعدتا التلّة إلى بيت القسّ، ووقفتا، في مدخل البيت، تنفضان الثلج إحداهما عن ثياب الأخرى عندما انفتح باب المطبخ وأطلّت سارة برأسها، وعندما شاهدت إنغريد ركضت إلى الداخل وهي تصيح.

كان المطبخ في حالة زريّة. «يا إلهي! ما هذا؟!» قالت إنغريد، فقالت باربرو: «عليهم اللعنة!». فرحت آنيا لرؤيتهما، وضمّت إنغريد بقوّة، ونظرت إليها بفضول كما لو أنها تتأكّد من أنها لا تحلم.

تخلّصت إنغريد من ضمّة آنيا وسألت عن ميكل، الذي اختبأ تحت طاولة ورفض أن يخرج، وأنتي، الذي رأته عبر باب غرفة الجلوس جالساً على الأرض وفي فمه نصف كوب من البورسلين. أما نيلفي وغونفور

فتجلسان كلٌّ منهما على كرسيّها وتأكلان بقايا طعام الغداء بأصابعهما، نيلفي تلبس قبّعتها القديمة، الحمراء، التي تغطّي أذنيها، ومن ثقبين فيها تظهر خصلات شعر بنّي قصيرة.

سألت إنغريد لماذا ليستا في المدرسة، وسمعت أن المعلّم مريض. حدّقت إنغريد إلى آنيا، فهزّت آنيا كتفيها. انحنت باربرو ونظرت إلى ميكل، وسألته ما الذي يفعله تحت الطاولة. خبّأ وجهه بيديه.

ثم جاءت إلين راكضة وأرادت أن تجلس في حضن إنغريد، التي كانت جالسة على الصندوق الخشبي الآن، وسألتها ما إن كان لديها كعك.

«لقد أكلتم منذ قليل»، قالت إنغريد وهي تنظر إلى الأطباق الفارغة على الطاولة، ثم أنزلتها من حضنها، وطلبت منها أن ترافقها لتكتب رسالة، وعندما دخلت إلى غرفة المكتب، شاهدت فراشين على الأريكتين الجلديّتين. فسألت: «من ينام هنا؟». دخلت سارة الغرفة وقالت إنها وإلين تنامان هنا لأن غرفتهما باردة جداً.

سألتهما إنغريد ما إن كانتا تعرفان إعداد القهوة. تبادلتا النظر صامتتين. فطلبت منهما أن تذهبا وتطلبا من أمهما أن تعدّ قهوة. خرجتا راكضتين. جلست إنغريد إلى مكتب القسّ، وجدت ورقة، وقلماً، وحبراً، وكتبت، عزيزتي إيفا صوفيا... وأنها قد وصلت إلى بيتها بسلام وأمان، وهي الآن قادرة على أن تكتب لها لتشكرها على كل ما قد تذكّرته مؤخّراً، الطعام على السفينة، الكتابة على الورقة على الحائط، وعلى صبرها الذي لا ينفد، كما شكرت آدا وسيغني اللتين سافرتا معها على السفينة، أليس كذلك؟

وينبغي أن تبلّغ تحياتها للطبيب إريك فالك.

لم تنسَ إنغريد أحداً منهم، وما عادت تنسى، لكن ما يزال هناك سؤال

عن الثياب، ما إذا كانت ثيابها، وما إن كانت ممزّقة أيضاً عندما استلمتها على متن القارب. حتى إذا استطاعت أن تجزم أن هارغل لم يستخدم القوّة معها، ما يزال هناك هنريكسن وعيناه اللتان تقدحان شرراً.

وضعت الرسالة في مظروف، ووجدت طوابع، ثم خرجت إلى المطبخ، وشربت القهوة وهي تتحدّث مع باربرو عن الطقس، وكم من العلف وضعتا أمام الغنمة.

قرّرتا أن تقضيا الليلة في بيت القسّ، فأخذت إنغريد الرسالة وذهبت إلى مارغوت.

طبخوا طعاماً، ونظّفوا الغرف، بمشاركة آنيا، والأم المرضعة يوهانا ماتيا، والأم الأخرى. كان الرجلان الآخران قد تركا البيت وينامان الآن في المركز التجاري. سألت إنغريد يوهانا ماتيا لماذا لا تشعل المدافئ في غرفة البنتين. قالت يوهانا ماتيا إن هنريكسن أمرها أن تقتصد في استخدام الوقود. فقالت إنغريد إنّ السقيفة مليئة بالحطب، كما أنّ أحداً لم يستخدم الفحم طيلة الشتاء، وأنها ينبغي أن تُشعل المدافئ في كل الغرف.

بدت يوهانا ماتيا متردّدة.

قالت إنغريد إنها ستأخذ منها المفتاح وتطردها من البيت. أذعنت يوهانا ماتيا واشترطت أن تجلب البنات الفحم ويشعلن المدفأة، وطلبت منها أن تلقي نظرة على طفلها، الذي يعاني من طفح جلدي.

شاهدت إنغريد وليداً موفور الصحة بخدّين ورديّين مكتنزين، وعمره ستة أشهر تقريباً. جسّت نبضه، ولاحظت أن حرارة جسمه طبيعية، فوضعته

في حضن باربرو. قرصت باربرو خدّه، ففتح عينيه وصرخ، فقالت باربرو إنه لا يعاني إلا من كونه سميناً.

ضحك الأولاد.

ضحكت يوهانا ماتيا، أيضاً.

قرّرت إنغريد أن تسألها ما إن كان هنريكسن يأتي إلى هنا أحياناً. لزمت يوهانا ماتيا الصمت بطريقة توحي بأنه غالباً ما يأتي إلى هنا. سألتها إنغريد ما إن قد أزعجها. تلفّتت يوهانا ماتيا، ولم تقل أيّ شيء. فقالت إنغريد إنه ما كان ينبغي أن تسمح له بذلك. فقالت يوهانا ماتيا إنه من السهل على إنغريد قول ذلك. قالت إنغريد إنّ هذا ليس صحيحاً، وإنه مجرّد عجوز قذر، وإنها لا تدين له بشيء، وينبغي أن تُقفل البابين الخارجيين في الليل. قالت يوهانا ماتيا إن قفل الأبواب ممنوع. هدّدتها إنغريد مرة أخرى بأنها ستطردها من البيت إن لم تفعل كما طلبت منها.

غالبت يوهانا ماتيا دموعها، وأدارت ظهرها لإنغريد ووجدت ما تشغل نفسها به.

أخذت إنغريد نيلفي إلى غرفة الجلوس، وطلبت منها أن تريها رأسها. بدا أن نيلفي كانت تنتظر طلباً كهذا، فخلعت قبّعتها فوراً. تحسّست إنغريد الخدوش التي كان شعر نيلفي الكثيف قد غطّاها كلياً، وقالت لنيلفي إنها تتمتّع برأس جميل، وليست بحاجة إلى ارتداء القبّعة، على الأقل في البيت. سألت نيلفي لماذا رأسها ليس مدوّراً مثل رؤوس الأطفال الآخرين. قالت إنغريد إنها لا تعرف، لكنها تعرف أن لا أحد يستطيع أن يختار شكل رأسه، وأن شكل الرأس لا يهمّ ما دام المرء يترك شعره يطول، ويحافظ على نظافته كي لا يتعفّن ويتساقط تحت قبّعة وسخة.

فكّرت نيلفي في كلام إنغريد.

سألتها إنغريد ما إن كان رأسها يؤلمها.

فقالت إنه لا يؤلمها.

وجدت إنغريد خيط صوف، فربطت عقدة وردية في خصلة من شعر نيلفي، وطلبت منها أن تنظر إلى نفسها في المرآة الكبيرة في المدخل. ذهبت نيلفي ونظرت في المرآة ثم عادت. سألتها إنغريد عن رأيها. فقالت إنها جميلة.

عادتا إلى المطبخ، وهناك طلبت إنغريد من باربرو أن تغنّي. تضرّجت باربرو خجلاً وقالت إن هذه أول مرّة تطلب منها ذلك. نظرت إليها إنغريد مذهولة. كلّا، لا تريد باربرو أن تغنّي. لكن سارة ألحّت عليها، وأومأ الآخرون تضامناً معها. أولتهم باربرو ظهرها وغنّت بحيث لا أحد يعرف ماذا سيفعل عندما تُنهي غنائها. تلفّتت يوهانا ماتيا حولها غير مصدّقة وقالت إنهم ينبغي أن يصفّقوا لها. أمسكت باربرو منشفة، وهشَّتهم بها كي يتوقّفوا، لكنهم صفّقوا على أيّ حال، فتضرّجت باربرو خجلاً، ولم تلبس نيلفي قبّعتها بعد ذلك.

غيّرتا شراشف السرير في غرفة المكتب، ونظّفتا الغرفتين اللتين كان ينام فيهما الرجلان، وقضتا الليلة في بيت القسّ.

في الصباح التالي، ذهبت إنغريد مع الصغار إلى المدرسة، وعرفت أنّ المدرّس كان مريضاً، فعادت مرتاحة، وقالت ليوهانا ماتيا إنها ستأتي كل أسبوع لزيارتهن وتطمئن عليهن، وفي تلك اللحظة شعرت أن ثمّة خطأً ما، خطأ لم تستطع أن تحدّده، لكنها تشعر به، وهو يشبه ما قد حدث في بارأوي، في الشتاء، وسألت نيلفي ما إن كانت راغبة بمرافقتها إلى بارأوي.

وجدت آنيا ويوهانا ماتيا الطلب غريباً، وتساءلتا ما إن حصلت إنغريد على إذنٍ من اللجنة؟

قبلت نيلفي العرض.

تجادلت نيلفي وغونفور على حصة كلٍّ منهما من الملابس في كيسهما المشترك. قالت إنغريد إنه توجد في بارأوي ملابس كثيرة، وجميلة أيضاً، ويكفيها أن تلبس ما يقيها برد الرحلة إلى هناك. فسألت نيلفي ما إن كان بوسع غونفور الذهاب أيضاً. وافقت إنغريد، لكن غونفور قالت إنها تريد أن تبقى مع سارة، ولم تجد نيلفي الأمر مزعجاً.

تساءلت إنغريد ما إن كانت تريد أن تمسك يدها في الطريق لشراء بعض الأشياء. فحسمت نيلفي الأمر وأمسكت بيد إنغريد ولم تفلتها قطّ، ولا حتى داخل المتجر عندما وقفتا عند طاولة البيع أمام مارغوت التي، بعد أن أتمّت أمور البيع، بدأت تهمس وتعبس وتكشّر، فطلبت منها إنغريد أن ترفع صوتها.

زادت مارغوت في تعابير وجهها، ثم طلبت من إنغريد أن ترافقها إلى المستودع. تركت إنغريد نيلفي بعهدة باربرو، ولحقت بمارغوت، التي همست لها أيضاً أن تسرع في استخدام النقود، التي عرفت مارغوت بطريقةٍ ما أن إنغريد قد حصلت عليها من القسّ مالبيرغيت، لأن هناك حدثاً جللاً سيحصل بين عشية وضحاها، وقد سمعت عن ذلك من ابنها، ليس لأنه يسلّم بضائع في الثكنة العسكرية، بل لأن لديه راديو أيضاً، وإن حدث الانهيار الكبير، فسوف تصبح النقود عديمة القيمة.

تردّدت إنغريد.

نفخت مارغوت صدرها ثم زفرت بقوّة، وغمغمت مستاءة من أن

إنغريد قد تسبّبت بالعديد من المتاعب في ما مضى، لكنها ليست حمقاء بالتأكيد.

تساءلت إنغريد ما إن كانت تُخدع، أم تحصل على نصيحة قيّمة غير مستحقة، لسببٍ غامض، لكنها لم تكن في عجلة لاكتشاف ذلك. فاستدارت وخرجت إلى صالة البيع، وصوت مارغوت يرنُّ في أذنيها: «سيأخذون كلّ شيء، وتذكّري عندئذٍ أنني قد حذّرتك!».

نزلن إلى الرصيف، ركبن القارب، وبدأن التجديف في طقس مثلج وهادئ، وتذكّرتا أنهما قد نسيتا القطة مرة أخرى - وضحكتا، لأن لديهما نيلفي الآن. عندما وصلن إلى الجزيرة، قدّمتا العلف للغنمة، هيّأتا غرفة طفولة إنغريد لنيلفي، أعطتاها الملابس الجديدة وأشياء أخرى، ومضى النهار كلّه في ذلك، وفي المساء نصبتا شبكتَي صيد.

- 7 -

شهر آذار هو الأقل فائدة من بين أشهر السنة. يرى سكّان الجزر الشمس تشرق وينعمون بالمزيد من الضوء، الذي يجعل الشتاء أكثر وضوحاً. ولا يقلُّ نيسان مكراً عنه، بل إنه أكثر غدراً. لكن طيور صائد المحار تأتي في نيسان، تبني أعشاشها، وتعلو أصواتها في السماء، وفوق الصخور. ويخلع سكّان الجزيرة طبقة من جواربهم وأوشحتهم، وتسرح الغنمة الكبيرة في الحدائق البنّية حول البيوت، وترعى العشب تحت هطل الثلج الذي لا يتوقّف، مثل أمل يهدّد باستنباط ابتسامتين أو ثلاث في العقل البشري؛ حتى إنهم، في نيسان، يشتمون ويبردون أكثر من شهر كانون الثاني، ورغم ذلك يخلعون وشاحاً آخر عن رؤوسهم، يحثّون الربيع على القدوم.

ويعلّقون بعض الأسماك على السقالة، حيث كانت ثياب السجين مُعلّقةً في الشتاء. الإخوة الثلاثة من سكارفوغ هم من علّق الأسماك، وتلاحظ إنغريد كيف أن المشهد اليومي يستقرّ فوق القديم دون إزاحته، وهذه أيضاً ساعة، دورة زمنية، تشير إلى الأمام وتمضي في طريقها.

لقد وصل الإخوة الثلاثة في مطلع شهر آذار، وأنزلوهم في السقيفة

السويدية. لديهم مدفأة خاصة هناك، لكنهم يتناولون الوجبات الرئيسة في البيت الكبير، ويلبسون ثياب الرجال الذين غادروا بارأوي. لكن، رغم أنهم كبروا في بحر أقسى من الذي اعتادت باربرو وإنغريد أن تبحرا فيه، غير أنهم مزيجٌ من أطفال ونجّارين ويحتاجون بعض الوقت ليتأقلموا مع القوارب، وعدّة الصيد وكلّ ما يميّز بارأوي عما يعرفونه. إنهم أقوياء في البحر، ولا يبردون أبداً.

في البداية ترافقهم إنغريد، وتُريهم كيف ينصبون الشِّباك، وكيف يصيدون بالخيط، كما تعلّمهم باربرو كيف يُصلحون الشِّباك ويرقّعونها. والشقيق الأكبر، أرنه، ذو العين الكفيفة، يعرف كيف يعتصر طاقة شقيقيه، ويقول متوعّداً، إذا ما تقاعسا في عملهما، إنّه سوف يعيدهما إلى هامّرفيست ذات يوم.

يشعر الشقيقان سفِرّي وهيلمر أنهما ينتميان إلى سكارفوغ، وأن هامّرفيست هي مسقط رأس والديهما فحسب.

حسنٌ، لكن هل يتذكّرون سكارفوغ حقاً؟

بالطبع يتذكّرونها.

لكن هل يتذكّرونها كما ينبغي؟

ينعش أرنه ذاكرتيهما، عن الجيران، والأقارب، والجبال السوداء شديدة الانحدار والتي تخضرّ سفوحها في الصيف. لكنه يشعر دوماً أن كلماته لا تلقى آذاناً مصغية. عندئذٍ ينظر إلى إنغريد التي تقول إنه يمكنهم أن يمكثوا في بارأوي بقدر ما يريدون، وإنها ستعمل الآن بنصيحة مارغوت وتنفق ما تبقى لديها من نقود على شراء كومة من الألواح الخشبية المُسَتَّفَة في ملاذ المركز التجاري منذ سنوات، على أمل أن تُستخدم في توسيع مصنع تعليب

الأسماك، التوسّع الذي لن يحصل أبداً، لأن إنغريد تعرف رئيس المصنع جيّداً. لقد رفض عرض شرائها مرتين، لكنها واثقة أنه سيوافق ذات يوم، وهذا اليوم ما عاد بعيداً - ستعيد بناء منازل كارفيكا، ستحوّل الأطلال إلى منازل، وستبدّد القلق والخرافات، وأخيراً ستكتب تلك الرسالة إلى ابن عمّتها لارس، في لوفوتن، وتطلب منه أن يعود، الرسالة التي كان ينبغي أن تكتبها منذ زمن طويل لدرجة أنها نسيت من أين جاءت ممانعتها، هذا النوع من النسيان الذي حتى الطبيب إريك فالك يعرف كيف يقدّره، تبدأ إنغريد بالمخاطرة، التي هي أيضاً أحد وجوه فقدان السيطرة.

في يوم لطيف الطقس، تجدّف هي وأرنه إلى مالفيكا ليجلبا القارب، وفي طريق العودة، يسأل أرنه ما إن كان سيتقاضى هو وشقيقاه نقوداً مقابل ما يفعلونه في بارأوي، وأنهم لم يتلقّوا نقوداً في مولاندسفيكا، بل مجرّد طعامٍ كاد ألّا يكفيهم.

تلاحظ إنغريد أنه استغرق قرابة شهر ليطرح هذا السؤال. فتضحك وتقول: جميعنا سنتقاضى أجراً ذات يوم، سيبيعون السمك في أقرب ما يمكن هذه السنة، وتأمل أن يكون في الوقت المناسب، لأنها كانت في المركز التجاري عند مارغوت، وشاهدت الأرفف مليئة بالبضائع، التي من المفترض أن تكون أكثر قيمة من النقود، في مثل هذه الأوقات.

سيتقاضى أرنه وشقيقاه ما يستحقّان.

سيجمعون البيض ويبيعونه، وريش العيدر أيضاً، لكن هذا لا يباع عادة قبل سنة أو عشر سنوات، وفي اللحظة التي يحصلون فيها على القيمة الحقيقية للريش. كان والدها يعرف سعر لحف العيدر، وتعرف إنغريد هذا

أيضاً، ولم يكن على هذه الأرض يوماً مثل هذه اللامساواة بين قيمة المنتج وأجر من ينتجه.

يفهم أرنه هذا الأمر.

تسأله إنغريد عن خططه.

يجدّف أرنه بقوّة، ولا يريد أن يتحدّث بالتفاصيل، إنه يراوغ، لكن المؤكّد هو أنهم سيعودون إلى فينمارك.

لم تعد عينه جمرة حمراء، بل قطعة زجاج كامد تعلّمت إنغريد قراءتها جيّداً. فتقول إنه لا شيء هناك في فينمارك. فيقول إذا كان الوضع كما قالت، بالنسبة للنقود، فهذا يعني أن الحرب ستضع أوزارها قريباً، وعندئذٍ يمكن بناء كلّ ما هو خراب الآن.

تقول إنغريد إن مسألة انتهاء الحرب الآن هي مجرّد أمنيات.

«لا بأس»، يقول أرنه ويستمرّ بالتجديف بذراعيه الضخمتين، ويخطر لإنغريد أن تسأله عن تاريخ ميلاد شقيقيه. فيسألها عن سبب اهتمامها بتاريخ ميلادهما.

«مجرّد فضول»، تقول إنغريد.

قبل أن يصلا إلى بارأوي، تحمل نفسها على سؤاله ما إن كان يتعهّد ببناء البيوت في كارفيكا، بما أنه نجّار، وتقول إنها ستدفع له مقابل ذلك، أيضاً.

فيسألها: «وستدفعين نقوداً لا قيمة لها؟!».

تضحك إنغريد.

لكنها لا تضحك كثيراً هذا الربيع، ولا تضحك ضحكاً مجلجلاً أيضاً،

لأن لديهم في البيت مخلوقاً هادئاً وغامضاً. إنها نيلفي التي لم تغادر الجزيرة بعد، وهي صموتة ويصعب فهمها، رغم أنها لا تترك يد إنغريد، وتجيب «كلّا» كلّما سألوها ما إن كانت تفتقد غونفور. ولم تُعِدها إنغريد إلى بيت القسّ عندما بدأت المدرسة أيضاً، للسبب غير المفهوم نفسه الذي جعلها تجلبها معها إلى بارأوي.

ينمو شعر نيلفي الكثيف والجميل. وتغسله إنغريد وتضفره في ضفائر صغيرة. وتستعيض نيلفي عن القبّعة بوشاحٍ للرأس. شفاه نيلفي رقيقة، وأسنانها بيضاء، منتظمة، وجميلة، ولديها هالتان زرقاوان على جانبي خشميها وتكبران كل يوم، رغم أن إنغريد تحاول جهدها أن تتجاهل وجودهما.

تقول باربرو إنّ هناك شيئاً غريباً في هذه البنت.

تقول إنغريد إنّ نيلفي كما ينبغي أن تكون؛ وتقول في نفسها إنها تشبهني تماماً، ألا ترين ذلك أيتها الكلبة الغبيّة؟!

تضعان عقارب ساعة الحائط، التي جرى إصلاحها، كيفما اتفق، لتشير إلى الساعة الثالثة، مثلاً، وتقرأان في كتب إنغريد المدرسية القديمة حتى الساعة الرابعة؛ بعدئذٍ تكتبان الأحرف الأبجدية حتى الساعة الخامسة؛ وترسمان الأصداف التي تقول إنغريد إنها أجمل ما يمكن أن تجده على الجزيرة؛ والغريب في الأمر هو أنهما تجمعانها رغم أنها عديمة القيمة، أيضاً، في الواقع يكاد لا يوجد ما هو أقل قيمة منها في الجزيرة كلها، حتى نيلفي تشعر بغرابة ذلك.

تقول نيلفي إنها تحب طبخ باربرو، رغم أنهم يعتقدون أنها لا تأكل كفاية؛ وتعمل مع إنغريد على إصلاح أعشاش طيور العيدر، كما تساعد

في شقّ الأسماك، التي يصيدها الإخوة الثلاثة، وربطها، ثم ينظّفونها ويعلّقونها على سقالة التجفيف. لكنها تفعل ذلك بشكل أفضل عندما يساعدها أحدهم. ورغم أنها تحرز تقدّماً في استخدام الأرقام والأحرف والكلمات، ترى إنغريد أن استجابتها لكثير من الأسئلة -مثل ما إن كانت تتذكّر والديها، أو شيئاً عن الرحلة من شيركيناس إلى فينمارك؟- تكون في أنها تريد أن تستلقي وتنام، حتى لو كان الوقت منتصف النهار. كما ترى أن نوعاً من الكسل هو ما يجعلها تشعر بالضجر -عندما لا يكون هناك مجال للضجر- بدلاً من أن تغضب، وعلى الرغم من أن إنغريد تستطيع أن تتحمّل المزيد مما لا تزال ذاكرتها تستعيده، تصلها رسالة من إيفا صوفيا، تقول فيها إن ثيابها كانت سليمة عندما وصلت، كما تتذكّر، ومن يتذكّر جيّداً؟ ولا تحصل إنغريد منها على إجابات مؤكّدة كما كانت تتمنى، وأصبحت الهالتان حول خشمي نيلفي أكثر وضوحاً مع تأخّر قدوم الربيع.

تتساءل إنغريد ما إن كانت ستأخذها لتنام معها في الصالة الشمالية، لتراقبها على مدار الساعة، وترى ما إذا كان ينبغي أن تأخذها إلى الطبيب، لكنها تؤجّل الأمر.

تمشي طيور العيدر متثاقلة على الشاطئ، وتضع النوارس الكبيرة أولى بيوضها، التي تختبرانها في الماء، وتضعانها بين طبقات من الرمل الرطب في أنصاف براميل، وتبدأ النوارس الصغيرة بوضع بيوضها أيضاً. تحب نيلفي هذا العمل، وتحب حمل البيوض الدافئة في يدها، ولا تتوقّف إنغريد عن التفتيش في رأسها ولمس الخدوش لترى ما إن اختفت أم لا.

تقول نيلفي، ذات يوم، إن والديها متوفّيان.

لا تعرف إنغريد ماذا تقول، فتسألها كيف عرفت ذلك، فتبتسم نيلفي ابتسامة باهتة. تبنيان ثلاثة أعشاش عيدر جديدة من الأحجار الإردوازية التي جمعتاها عن الشاطئ الغربي، ونظّفتاها جيّداً، كلّ عشّ يتألّف من جدارين وسقف، وتفرشانها بالقشّ الجافّ من العام الماضي، وفي الصباح التالي يجدون نيلفي ميتة في السرير.

تستلقي إنغريد بجانبها في السرير حتى تبرد، حتى إنها لا تسمع باربرو عندما تدخل لإخراجها من السرير، وتصيح بها إن رائحة الغرفة نتنة، لأن الإفرازات تخرج من فتحات الطفلة.

لقد خبرت إنغريد هذه الحالة من قبل، إنه من المحال أن تعيش بعد موت أحدٍ ما. في المساء تنهض إنغريد، تطرد الجميع من البيت، تحمل نيلفي وتنزل، تحمّمها في المطبخ، جسد طفولي أبيض لا خدش فيه، ثم تُلبسها ثياباً جميلة كانت تلبسها في طفولتها.

وفي أثناء الليل يصنع أرنه وشقيقاه نعشاً لها، ويضعون النعش على حاملين من حوامل القارب حتى يدفنوها بالقرب من جَدَّي إنغريد، في مقبرة الأبرشية بالقرب من البحر، ولأنه لا يوجد قسّ في القرية، يؤدّي مراسم الدفن قبطان عجوز من فينمارك.

اسمه لوكاس فارا، يقف في حرّ الشمس، التي تسطع اليوم على نحو غير مفهوم، ويتحدّث عن نعمة الجمال ولعنة الحياة، واللافت للنظر أن لديه كحّة ورعٍ.

يفكّرون في أن يكتبوا على شاهدة القبر «نيلفي بارأوي»، لأنهم اكتشفوا أن أرفولا ليس اسمها الحقيقي، بل هو اسم غونفور، ولم يجدوا نسبتها في

أوراق هنريكسن، ولا تاريخ ميلادها أيضاً، فيحذفون أيضاً تاريخ وفاتها، ويكتبون: «هنا ترقد نيلفي في أرض غريبة، وتاريخ مجهول».

لا شكّ في أن نيلفي هي إحدى ضحايا الحرب أيضاً، ويُخيِّم حزنٌ أثقل من الدموع على الواقفين بصمت حول نعشها، باستثناء هيلمر، الذي يبكي كإنسان؛ هيلمر الذي اعتاد أن يشاكس نيلفي لأنها لم تكن قادرة على تشفية السمك. وقد يرجع ذلك أيضاً إلى أنهما متقاربان في العمر قليلاً، ولأنهما من المدينة ذاتها، المدينة التي ما عاد لها وجود، والتي يذكرها الكابتن فارا في رثائه لنيلفي؛ فهو من مدينة فادسو القريبة من فرانغرفيورد، حيث عاش الفنلنديّون والنرويجيّون مئات السنين كإخوة، ويعتبر أنه ينتمي إلى كليهما، كما يقول إنه يعرف كلمة يونانية واحدة فقط، الأمر الذي أفزع الآخرين لأنهم كانوا ينتظرون سماع كلمة فنلنديّة، لكنها أهم من كلّ الكلمات، وهي كلمة «أنجيلوس»، وتعني ملائكة، ويختم كلامه بأن الذكرى الحزينة لفقدانهم أرضهم الآن ستلحق نيلفي في قبرها، وفي السماء. يواسي الآخرون هيلمر، الذي يختبئ وراء شقيقيه هرباً من مواساة لا يريدها. يطلب منهم أرنه أن يتركوه في سلام، ويجدّفون عائدين إلى بارأوي في قاربين.

- 8 -

موت نيلفي هو نوع من الموت العميق الذي يجعل الأحياء غير قادرين على العودة إلى حياتهم السابقة، بالنسبة لمن اعتقدوا أنه كان لديهم حياة، موت عميق وشخصي، بخلاف كل ما يمكن أن يقارنوه به. فيستيقظون متأخرين، ويدورون في البيت دون أن يفعلوا شيئاً. ويطول الأمر الطعام أيضاً، بسبب صدمة باربرو، فيأكلون فتات الخبز وبقايا الطعام، وفوق ذلك كلّه، يفقدون الأمل بقدوم الربيع والسلام.

في هذا الوقت تكتشف إنغريد النوم، تستلقي في السرير بجسدها الذي تنمو فيه حياة جديدة، بينما هي تحلم بشيء يمكن احتماله، وترى صوراً مشرقة، وذكريات، وأحداثاً مضحكة يمكن أن تجعلها تبتسم في نومها. ثم تستيقظ مثل المجنونة، تجلس على المبولة، وتعود إلى السرير ثانية، إلى تلك الأحلام المحتملة، وهكذا يمكن أن تنشأ علاقة حب بين النوم والموت.

عندما تتعافى باربرو من الصدمة، تسأل إنغريد ما إن كانتا قد قرّرتا أن تتركا كلّ شيء ينهار هنا، تدير إنغريد ظهرها بازدراء، ولا تتحرّك إلا عندما

يدخل سفَرّي الغرفة، صباح اليوم التالي، بوجه متوهّج حمرةً، ويقول لها إن الغنمة قد وضعت ثلاثة حملان، بصحة جيّدة، وثلاثتها إناث.

تقول إنغريد، وعيناها مغمضتان، إنه صبي رائع، لكنه ينبغي أن يخرج الآن، لأنها تريد أن تنهض من السرير وترتدي ثيابها فهي عارية تماماً. يزداد وجهه حمرةً، لكنه لا يتزحزح من مكانه. فتنهض إنغريد وترتدي ملابسها ببطء شديد، ثم تنزل إلى الحظيرة وهو يلحق بها. لا يشبه سفَرّي شقيقيه لكنه ثرثار، وحيوي ومرح، كأنه خُلق ليتألّق على شقيقيه، ويساعدهما في الحسابات الكبيرة؛ وهو لا يشبههما على الإطلاق، فهو أشقر، وهما أسمران.

تتفحّص إنغريد الحملان الجديدة، وتتحدّث مع باربرو عن الحليب وحلمات الغنمة، قبل أن تذهب إلى الجزء الجنوبي من الجزيرة، والطنين يملأ أذنيها، تحت شمس باردة، وتجد أن طيور العيدر قد عشّشت في البيوت الثلاثة التي بنتها نيلفي، كما عشّشت في البيوت الأخرى أيضاً، إنه ربيعٌ كريم.

تعود وتسأل باربرو ما إن حدث أن عشّشت طيور العيدر في كل البيوت. لا تذكر باربرو ذلك، ولا تحاول أن تتذكّر، فتقول إنغريد إنها هي لا تتذكّر أيضاً.

تأكل أكثر مما كانت تأكله في الفترة السابقة، وتقول إن سفَرّي لن يذهب مع شقيقيه إلى الصيد، لأنه سيجدّف بها إلى ستانغهولمن. يقول أرنه إنهم لم يخرجوا إلى الصيد منذ أكثر من أسبوع. فتقول إنغريد إنه الوقت المناسب ليخرجا إلى الصيد ثانية. يُشرق وجه سفَرّي من جديد. لكن إنغريد لا تجلس بجانبه على مقعد التجديف، بل في مؤخّرة القارب

ويداها فوق بطنها، وما يزال الطنين في أذنيها، وتعمى عن أشعة الشمس والبحر الهادئ اللذين انتظروهما طويلاً لدرجة أنهم نسوهما.

تسأل سفَرّي ما إن كان يفكّر في العودة إلى فينمارك؟

سفَرّي في الثانية عشرة من عمره، ويقول إنه يرغب في ذلك.

في ستانغهولمن، تشتري إنغريد الغنمتين اللتين ما يزال توماس وإنغا يحتفظان بهما، كما تشتري الحملان الأربعة حديثة الولادة، ولفافتَي أسلاك لسقالات التجفيف، ومحراثهما الجديد نسبياً. وتقول لهما إنه من الضروري أن يستعملا النقود فوراً. فيخبرها توماس أنه يعلم ذلك جيّداً، وأنه قد شاهد مستودع مارغوت؛ وسيصل قريباً ابنه أتلي ويأخذهما ليعيشا بقية حياتهما في مكان وسط البلاد، لم تسمع إنغريد عنه من قبل، وهو سعيد بهذه الزيارة التي سمحت له أن يصافحها مودّعاً قبل أن يسافر.

تصافح إنغريد زوجته إنغا، أيضاً.

يجدّف سفَرّي في طريق العودة أيضاً، بينما تفكّر إنغريد، والطنين ما يزال في أذنيها، في أن تخلع ملابسها وتقف عاريةً في القارب، في هذا البحر الهادئ، إنها مثل لطمة فكرة، قبل أن تلوّح مودّعةً الزوجين العجوزين للمرة الأخيرة، وتشعر أن روسيَّها قد مات أيضاً، ألكسندر، الشاب المهندس من لينينغراد، لقد قُتل، ولن تراه أبداً.

يجفل أحد الحملان من صراخها ويحاول أن يقفز في البحر، لكن إنغريد تمسكه من قوائمه، وتضع رأسه في حضنها، ولا تخجل من تمتمة كلمات تخزيها. يَصُمُّ سفَرّي أذنيه ويتابع تجديفه ببراعة.

بعد أن تصل إلى البيت بسلام، تتساءل إنغريد عن سبب تحمّلها لهذا اليوم أيضاً.

عندما يعود الإخوة من البحر، تتفقّد إنغريد غلّة الصيد، وتصغي إلى أرنه الذي يقول لها إنهم بحاجة إلى أربع شباك أخرى. فتقول له إنغريد أن يطلب من باربرو تجهيزها لهم، فهي لديها وفرة في الشِّباك، كما تطلب منه أن يجدّف إلى ستانغهولمن عندما يفرغون من تنظيف السمك، لجلب المحراث، الذي لم يكن له مكان في القارب عندما ذهبت هناك مع سفَرّي. بعدئذٍ تصعد إلى غرفتها وتستلقي في السرير، وما يزال الطنين في أذنيها، وتحلم بأشياء يمكن احتمالها، أشياء مختلفة، وابتسامة محيّرة على وجه تعتقد أنها تعرفه، لكنه لا يكون الوجه ذاته دوماً، والابتسامة تختفي وتظهر من جديد، وما عاد النوم ملاذاً لها.

لكنها لا تنهض من السرير.

تستلقي في السرير وتتعفّن مستيقظة، حتى يجلس على حافة سريرها، ذات صباح، شخصٌ لا تُميِّزه: إنها سوزانا، وأشعة الشمس الذهبية في إطارات النافذة في الشمال الشرقي، وهذا يعني أن الوقت مساء، ما لم يكن صباحاً، وبالتالي تكون إنغريد في الجهة الخطأ من البيت. تجلس في السرير، وتنظر حولها.

سوزانا فتاة جمالها لافت للنظر، لا أحد يستطيع أن يحدّد مكوّنات هذا الجمال، أو أن يحدّد بدقّة مكمن جاذبيتها، التي طالما تمتّعت بها. الآن، تبدو مرهقة وقلقة، ولديها خصلات شعر مجعّدة بلون القنّب في شعرها الزاهي، أحمر شفاهها قانٍ، وقد برز أحد أسنانها الأمامية إلى الأمام قليلاً، وهي ترتدي فستاناً أبيض مطرّزاً بأزهار صفراء، وأغصان تنّوب خضراء صغيرة؛ تبتسم لها إنغريد: «أخيراً أتيتِ؟!».

«نعم، لقد وصلت سوزانا!»، تقول، ثم تضيف: «لقد مات هتلر!».

وفي الغرفة مخلوقٌ غريب آخر؛ طفل صغير في السابعة أو الثامنة من عمره، بثياب سفر جميلة، وحذاء لامع لا كعب له، وشعره أشقر زاهٍ ومسرّح بعناية كأنه ذاهب إلى العمادة، وعلى وجهه تعابير القلق مثل أمه. «هذا فريدريك!»، تقول سوزانا.

تبتسم إنغريد لفريدريك، وتقول: «كيف حالك يا صغيري؟!».

ينظر فريدريك إلى أمه مستفهماً، لكن سوزانا لا تهتم بترجمة ما قالته إنغريد. تسمع إنغريد صخب مطارق من بعيد، فتشخص بنظرها إلى النافذة وتسأل عن مصدر هذا الصخب البعيد.

الصبيان يبنون بيتاً، تقول سوزانا وتنظر في أرجاء الغرفة التي ترعرعت فيها، في تلك السنوات التي حاولت فيها إنغريد أن تكون أمّاً لها، وحاولت سوزانا أن تكون ابنتها.

«لقد وصلت المواد، إذاً!»، تقول إنغريد.

«لا بدّ أنها وصلت، لأنهم يعملون على بناء بيتٍ، على أيّ حال، وفي كارفيكا، من بين كلّ الأماكن».

تنهض إنغريد من السرير. تغضّ سوزانا بصرها، رغم أن إنغريد لم تكن عارية كما كانت عندما أيقظها سفَرّي، ولم يكن أمامها خيار آخر. ترتدي ثوباً فوق منامتها، وتبدو أكثر شحوباً من سوزانا. تنزلان إلى المطبخ حيث باربرو صاحبة السلطة المطلقة.

يُشرق وجه باربرو، وتقول لإنغريد إن سوزانا لم تتوقّف عن ضمّها، وقرصها في بطنها، فتضمّها سوزانا مرة أخرى.

لا تنال إنغريد أيّ ضمّة.

لقد عملت سوزانا في مقسم هاتف، وتستطيع أن تُقلِّد كل اللهجات، وأخطاء الكلام، والأصوات، وتقول: «من المفهوم أن تضطر إنغريد إلى ملازمة الفراش، في هذا الوضع المقلق هنا».

تستخدم سوزانا كلمات مثل «ساحر»، «يا إلهي»، «الخبز المقرمش»، لكنها تستطيع أيضاً -وهذا يتوقّف على جلسائها- أن تتحدّث اللغة اليومية العادية.

تقدّم لها باربرو القهوة في فنجان من البورسلين البولندي، الذي تتذكّره سوزانا بشهقة وترفعه في الضوء، بينما تظهر على جبينها الجميل تعابير قلق واضح وتغمغم كلمة لا تفهمانها.

تقول إنغريد إنهم حصلوا على طقم السفرة هذا من أمها، زيزينيا، عندما جاءت سوزانا وشقيقها فليكس إلى بارأوي. لكن الزائرة الجديدة لا تتذكّره، فتضع الفنجان من يدها وتقول إن لديها هدايا العودة إلى الوطن، ثم تفتح حقيبة لم تنتبه إنغريد إلى وجودها.

أربعة كيلوغرامات من القهوة، وشيئاً تسمّيه ملعقة كشط(*)، ومكواتين، على الطاولة، إحداهما كهربائية، لأنه كما تعلم لا يوجد لديهم مكواة في بارأوي، بما أنه لا يوجد إلا النساء هنا، هيه، هيه!

تقول إنغريد إنه لا يوجد كهرباء حتى في الجزيرة الرئيسة، لكن كابل المكواة يبدو جيّداً، وهو يشبه حبل الشراع. فتقول سوزانا إن بوسعهما

(*) ملعقة تنتهي بقطعة من السيليكون مستطيلة الشكل، تُستعمل لكشط ما في أواني الطعام، بشكل تام، بحيث لا يضيع شيء من المادة الموجودة داخلها، خصوصاً المواد التي تعلق على الوعاء. [م]

قطع الكابل بالكمّاشة، وتسخين المكواة على الموقد مثل مكواة الحديد القديمة - وهكذا تصبح لكلّ منهما مكواتها الخاصة. وتصبح ملعقة الكشط الهدية الأهم، بعد أن شرحت لهما سوزانا طريقة استعمالها.

في جوّ الترحيب بهذه القادمة الجديدة، ترفع أمام وجهها يداً طُليت أظافرها الخمسة بطلاء أحمر، وتقول لإنغريد إنها ترغب في رؤية بارأوي في هذا الطقس الجميل، لأنها متشوّقة جداً ولا تطيق صبراً، ويمكن أن يبقى فريدريك عند خالته باربرو. أليس كذلك؟!

تتبادل باربرو وإنغريد النظرات، والصبي الصغير يأكل بسكويت القرفة بالزبد، الذي جلبه أهل المدينة الظرفاء معهم. وما إن تجتازا الفناء حتى تنفجر سوزانا بتنهّدات عنيفة: «الوضع مروّع هنا!».

تنظر إليها إنغريد بصمت.

«مروّعٌ جداً!» -تصرخ من قلب مكروب- «لا أستطيع أن أتصوّرها بهذا الشكل المخيف...».

في حين ترى إنغريد أن الجزيرة لم تكن في يوم من الأيام أفضل مما هي عليه الآن. تصاب بصدمة، إمّا من كلام سوزانا المفاجئ، وإمّا من انفعال داخلي عميق نتج عنه. فتولي ظهرها لسوزانا وأظافرها المطلية، وتصعد التلّة إلى كارفيكا، وترى أرنه، وهيلمر، وسفَرّي يثبّتون آخر دعامة خشبية في جدار الأساس. كلّهم يلبسون وزرات عمل كانت لأبيها أو لابن عمتها، أُعيدت خياطتها جزئياً أو كلياً؛ وقد استخدموا حفر الأساس المحفورة في الصخر قديماً، بعد أن أزالوا الأساس القديم، وبدؤوا بأساس جديد، والعمل دقيق ومتقن، وهم يستعملون براغي جديدة.

ينظر إليها أرنه مستفسراً عن سبب قدومها، وشقيقاه أيضاً. تنظر إنغريد

إلى الحشيش حول البيوت الجديدة، وقد داسته أقدامهم وحوّلته إلى دروب وممرّات مستوية، وأن الإخوة قد أعدّوا قطعة الأرض للبناء، وتبدو كأنها مسكونة، فتنحني وتضع كلتا يديها حول الدعامة الخشبية، وتحاول رفعها بكلّ ما أوتيت من قوّة، لكنها لا تتزحزح من مكانها.

- 9 -

لم تعد بارأوي مخيفة. تستيقظ سوزانا وقد استعادت طبيعتها بعد نوم ليلة واحدة في الصالة الجنوبية، بينما نام فريدريك في غرفة طفولة إنغريد، في السرير الذي مات عليه مخلوق صغير قبل مدة قصيرة، لكن لا أحد يأتي على ذكر ذلك.

يتبيَّن أن لدى سوزانا في حقيبتها الأميركية ثياباً تناسب بارأوي والبحر وقلقها الخاص، الذي لم يُعرف له تفسيرٌ بعد. إنها كائن حيّ بين الأموات، شخصية مزدوجة، سيّدة مدنية أنيقة لبقة تقول في لحظة «بمنتهى البساطة»، وفي اللحظة التالية تعرف كيف تدقّق أعمال البناء في كارفيكا وتستخدم مصطلحات محلّيّة؛ تستطيع تشفية الأسماك، وإصلاح الشِّباك، وجزّ صوف الأغنام، العمل الذي كان ينبغي أن ينجزوه منذ زمن طويل، والآن يضعون الصوف في أكياس، ويثرثرون بكسلٍ عن مقدار الأجر الذي سيتقاضونه مقابل هذا العمل، هل هو مُجزٍ أم قليل، هذا إن نسينا بأيّ عملة سيتقاضونه، وما إن كانوا سيحتفظون بها.

تُثمِّن سوزانا عالياً جلوسها هنا وهي تشمّ أصابعها، وترفع رأسها

وتذرف دمعة، يتجاهلها الجميع. ويبتسمون بصمت من شجارها مع ابنها الفاشل، فريدريك المدني الذي لا ينفع لشيء على الإطلاق، ويطالب بشروحات عمّا هي السمكة، والقارب، والبحر، وطيور العيدر، رغم أنها أمور لا يهتمّ بها على الإطلاق. ولا يكفُّ عن السؤال ما إن كانوا قادرين على فعل شيء آخر، لا أحد منهم يعرف ما هو، ويرتجف دون خجل، كأنه على المسرح، عندما تُجبره أمه على مسك أحشاء السمك، الذي يصيده يومياً الإخوة سكارفوغ، وتصرخ فيهم في الوقت نفسه لماذا لم ينظّفوه في البحر؛ فيتجاهلون سؤالها بابتسامة عريضة.

يضعون غلّة الصيد الكبيرة في قفّة ويرفعونها إلى الرصيف، ثم يصعدون السلّم ويقفون حولها، وينظرون بإعجاب إلى محاولة فريدريك المثيرة للشفقة وهو يمسك السكّين بيده المرتجفة، ويستمع إلى إرشادات أمه. تقول إنغريد لسوزانا إنه عديم الفائدة مثلما كان شقيقك، فيليكس، عندما جاء إلى هنا، ألا تذكرين ذلك؟

كلّا، لا تتذكّر سوزانا ذلك.

«لا، كيف ستذكرين ذلك وقد كان عمرك ثلاث سنوات، وكنت غير قادرة على المشي حينذاك!».

«أنا لا أتذكّر شيئاً من هذا كلّه»، تقول سوزانا، وتضع إصبعاً على صدر هيلمر وتقول: «إن مهمّته من الآن فصاعداً هي أن يُعلّم ابنها كلّ شيء».

ينظر هيلمر إلى أرنه. يهزُّ أرنه رأسه. يمسك هيلمر سكّيناً، وسمكة قدٌّ تزن قرابة ثلاثة كيلوغرامات، يضغط بسبابته اليسرى عين السمكة، وبإبهامه تحت الغلاصم، فيبرز بطنها الأبيض الطباشيري إلى الخارج، ويقول لفريدريك إنّ دمها ينزف من هنا، وهذا ما ينبغي فعله في البحر،

لكن ليس إخراج الأحشاء، ثم يضع رأس السكّين تحت الغلاصم بقليل ويسحبه حتى فتحة الشرج، فتخرج الأحشاء دفعة واحدة وتبقى معلّقة بخيط رفيع، فيقطع عظم الغلاصم، يضع السكّين فوق الرقبة ويضرب بقوّة، ثم يعالجها بحركتين ويفصل الرأس، ويرميه جانباً. يرفع السمكة عالياً ويضع إصبعين في أعلى الشقّ، ثم يسحبهما إلى الأسفل، فتندلق الأحشاء خارجاً. يسأل إنغريد ما إن كانت تريد الكبد. تقول إنغريد إنها لا تريده لأن لونه أحمر، فالفصل ربيع الآن. ويشرح هيلمر لفريدريك كيف أن السمك الذي سيجفّفونه، مثل هذه، ينبغي ألّا يفتحوه بشكل كامل. يضع السمكة بقرب واحدة أخرى، نظيفة وبالحجم نفسه، على طاولة التنظيف، يتناول حبل ربط من تحت الطاولة، يربطه حول ذيلي السمكتين ويلفّه ثلاث مرّات، ثم يرفع السمكتين بيده. تقول إنغريد إنه كان ينبغي أن ينتهوا من عملية التجفيف منذ زمن طويل، لأن الحر شديد الآن، لكنهم لا يستطيعون تشفِيتَه أيضاً.

تقول سوزانا: «لقد نسيت أن تغسلها».

يتضرّج وجه هيلمر حمرةً، ويُغطِّسُ السمكتين في دلو التنظيف، ويحرّكهما في الماء الأحمر، ويرفعهما ويغطّسهما عدة مرات، ثم يرفعهما عالياً أمام ضحكات الجميع.

ويشاركهم فريدريك الضحك أيضاً، ويرفع نظرة متسائلة نحو أمه، التي تقول: «إنه دورك الآن. وعلّمه أيضاً كيف يقطع اللسان، لأننا سنأكل ألسنة مقليّة اليوم!».

لكن لا أحد منهم يعرف كيف يفعل ذلك.

للمرّة الأولى في هذا الشتاء، تدخل إنغريد إلى السقيفة الجديدة، وتنظر

إلى السماء البيضاء عبر فتحات السقف الإردوازي المحطّم، وتلاحظ أنه لا وجود لأيّ أثر على الأرضية الحجرية سوى آثار الماء النظيف، تجد صندوق السنابل، فتحمله وتخرج إلى سوزانا كي تُري الفتية كيف يقطعون ألسنة القدِّ.

تضحك إنغريد منبهرة.

سوزانا بارعة في قطع الألسن.

يحاولون، كلٌّ بدوره، يُعلّقون رأس السمكة على السنبلة، يفتحون فمها، ثم يقلّدون طريقة سوزانا في القطع، فينفصل الرأس عن اللسان الذي يبقى عالقاً في السنبلة. ينجح كل واحد منهم بطريقته. وكذلك ينجح فريدريك، الذي يحصل على إرشادات كثيرة من أمه، لأنه يتردّد في وضع أصابعه في عيني السمكة، فيفلت الرأس من قبضته، لكنه ينال إطراءً أكثر مما يستحقّ، لأنه يركّز على العمل بدقّة بدلاً من السرعة، ولا يهتمّ بالجمع بين الاثنين معاً، كما فعل الإخوة الفنلنديّون.

تقف إنغريد وتتأملهم حتى يفرغوا من العمل، ويبدؤوا بتعليق الأسماك.

بعد أن دارت حول السقيفة كأنها قنبلة لم تنفجر، تدخلها، وتنظر حولها دون أن تشمّ أيّ رائحة سوى رائحة الأسماك، والبحر، والقطران، والأعشاب البحرية العفنة، ورائحة العفونة التي تنتمي إلى المكان، وكانت نظراتها خاوية ولا مبالية طيلة الوقت.

تسأل أرنه ما إن كان مستعدّاً لإصلاح السقف، فلديهم ما يكفي من الحجر الإردوازي، وسلّمٌ للسقف أيضاً، مُلقى هناك بين العشب، حيث ينبغي ألّا يكون، فلا بدّ أن الريح قد رمته من مكانه على الجدار؛ وعندما

تحمل صندوق ألسنة القدّ، تسمع باربرو تصيح نحو سقالة التجفيف: «علّقوا على الأوتاد أيضاً!».

يحتاج فريدريك إلى ترجمة لهذا الكلام. تصعد إنغريد إلى البيت، وفي أذنيها صوت عمّتها: «غطّوها بواقية الشمس!».

لم يُسهِّل كلامها الأمر، لكنه أضحكهم على الأقل. وإنغريد أكثر قوة الآن، بعد هذه الزيارة الناجحة إلى السقيفة، التي ساعدتها في تأمل ذكرى نيلفي التي لن تفارقها، وأن لا أحد عاش ومات مثل نيلفي. ويخطر لها، عندما تقف في المطبخ لإعداد الغداء، في نهاية هذا اليوم المعقول نسبياً -بطاطس وألسنة سمك مقلية- أنها لا تعرف شيئاً عن حياة نيلفي، بل تعرف عن موتها فقط، وتعرف أنها لهذا السبب لن تفارق ذاكرتها، بل ستعاودها مثل صدمة، وندم شديد، وشيء آخر أكثر أهمية يتعلّق بعالم إنغريد الداخلي المظلم. لكنها وحدها في المطبخ الآن وغير مرئية، لأن عمّتها باربرو في الخارج، لكنها تسمع صوتها عبر النافذة التي فتحتها كي تخرج رائحة القلي وتدخل رائحة الربيع، تُقلِّب الألسنة في الطحين الأبيض قبل أن تقليها بالزبد، ثم ترتّبها في الطبق بحيث تشكّل ما يشبه مخروطاً وسط الطبق، وفي هذا الوقت تكون البطاطس جاهزة أيضاً.

- 10 -

بارأوي أرض الصمت، والكبار فيها لا يعلّمون الصغار، هم يتصرّفون والصغار يقلّدونهم. والفتية الفنلنديّون ماهرون مثل أهل بارأوي، وهم قليلو الكلام، علّمتهم الحياة كيف يستخدمون أيديهم، وأين يضعون أقدامهم، بينما يسأل فريدريك لماذا عليه أن يضرب الإزميل بالمطرقة. سؤال لا جواب له، لأنه هذه هي العلاقة بين هاتين الأداتين - هكذا، لا شيء تقريباً يُنجزُ بالكلام.

يُشاع أن فريدريك قد تلقى بعض الدروس على البيانو، وهذه أمارة أخرى على عجزه عن التأقلم. تقول باربرو إن البيانو رائع، وقد سمعت أنغامه في المستشفى، وفي الكنيسة لديهم أرغن، بمفاتيح، وحقيقةُ أن هذه آلة تتطلّب براعة في اليدين تشير إلى أن فريدريك يُعامل باستخفاف أكبر مما يستحقّ. لكن في اليوم التالي يدخل إلى المطبخ راكضاً، مبلّلاً بالماء، وهو يصرخ، ثم يرتمي في حضن أمه.

تقول سوزانا: «المنوال ذاته كل يوم!».

«لقد ضربني!»، يصرخ ابنها.

«من ضربك؟!».

«هو، هو!».

يشير، دون أن ينظر، باتجاه الإخوة الفنلنديّين، الذين دخلوا وراءه إلى المطبخ، واصطفّوا مثل المتّهمين. لقد ضربه هيلمر، الفتى المسؤول عن تعليمه، لكن ثلاثتهم رموه في البحر.

«بصراحة، لم يكن أمامنا خيار آخر!»، يقول أرنه.

قبل أن تهاجمهم سوزانا، تتدخّل إنغريد، وتسأل عن السبب.

حتى فريدريك لا يريد ذكر السبب، وعيناه لا تتورّمان من كثرة البكاء فحسب، بل لقد بدأتا تميلان إلى اللون الأزرق. تلحّ سوزانا على معرفة السبب، فيضطرّون في النهاية إلى إخبارها أن فريدريك قد رمى أدواته في البحر، لأنه كسول ولا يريد أن يعمل.

يصرخ فريدريك إنه لم يرمِها، بل أفلتت من يديه، المطرقة وبرغيين، أم كانوا ثلاثة؟ ويبقى الإخوة الفنلنديّون صامتين، مثل جنود في محكمة، حتى تنظر سوزانا إلى ابنها، الذي يسيطر فجأة على نحيبه، وينظر إليها بقلقٍ، بانتظار حكمها.

تقول سوزانا: «بإمكانك أن تسبح».

تنحني باربرو فوق حوض المجلى، وتضحك ضحكة خافتة، بينما لا تغيّر الوجوه الأخرى قسماتها.

«لكني لا أستطيع الغوص!».

«بل تستطيع».

«لكن الماء بارد!».

«إن كنت قد رميت أدواتك في البحر، لسببٍ ما، فعليك أن تغطس وتستعيدها. تعال معي!».

تجرّه إلى الخارج. يلحق بها الآخرون، عبر الحديقة نزولاً إلى كارفيكا، كما تلحق بهم باربرو دون أن تكفّ عن الضحك. يشير هيلمر إلى مكان في البحر أمام الصخرة البارزة، التي ستصبح واحدة من أحجار أساس الرصيف الجديد. ينظر فريدريك إلى أمه متوسّلاً. لكن الشمس مشرقة، ولا مجال للرحمة. ينزل إلى الشاطئ، ويخوض في الأعشاب البحرية، وما إن تغمر المياه كاحليه، حتى يبدأ بالعواء إن الماء بارد، بارد...

يزفر أرنه بقوّة، وينظر إلى إنغريد. تومئ إنغريد. يخلع حذاءه، وينزع سترة العمل، يزيح فريدريك جانباً، ويغطس في الماء، ويغيب طويلاً.

يراقبونه وهو يغطس في الماء الأخضر، مثل طائر أبيض، حتى يختفي كلياً. ثم يخرج من تحت الماء، ثانية، والمطرقة في يده، لكن دون البراغي، يتسلّق الصخر وهو غير قادر على الكلام، وشفتاه زرقاوان، ويقف مرتجفاً بين أعشاب البحر، وجسده كتلة من الأوتار والعضلات، نموذج مثالي من رسومات ليوناردو دافنشي التشريحية، المعلّقة في كل غرفة من غرف المدارس على طول الساحل. ترمي عليه إنغريد البطانية التي كانت قد جلبتها معها، وتطلب منه أن يخلع سرواله، ومن شقيقيه أن يضرباه.

يتحوّل الأمر إلى لعب وشجار بلكمات صغيرة وكبيرة حتى يستعيد أرنه صوته، ويطلب منهم أن يغربوا عن وجهه. يبقون واقفين ويتفرّجون عليه وهو يجفّف جسده ويخلع سرواله تحت البطانية. ويلحقون به، كأنهم في موكب، صاعدين الطريق، التي وطئتها أقدام الفتية الثلاثة، إلى كارفيكا، حيث نادراً ما يأتي الآخرون، حتى في الوقت الحالي. يجدون صعوبة في

تقبّل الفكرة، لكنهم يتغيّرون، ويقبلون تدريجياً أنه قد يأتي الخير حتى من اللعنة، لكنهم يسمعون جميعاً سوزانا وهي تنعت ابنها بالأحمق.

تتوقّف إنغريد وتنظر إليها. تطرق سوزانا أرضاً، وتقول: «حسنٌ، حسنٌ!».

تتابع سيرها وابنها في أعقابها. ويسمعها الجميع تقول له: «كروكيه». لكنهم لا يفهمون معنى الكلمة.

مساء اليوم ذاته، يرى أرنه إنغريد تبحث عن الحملان في الحديقة الجنوبية، فيقول لها إنه يوجد قارب في قعر البحر، مقابل الصخرة في كارفيكا.

تحدّق إليه إنغريد، وتسأله لماذا يخبرها بذلك الآن، وبعيداً عن سمع الآخرين. يهزّ كتفيه.

«نظرك ثاقب»، تقول إنغريد.

يقول أرنه نعم، وإن ما تبقّى من بصره لا تشوبه شائبة، وإن كان قد وجد المطرقة، ولم يجد البراغي. تقول إنغريد إن هذا غير مهمّ، وتطلب منه أن يجلس على العشب، بينما تبقى هي واقفة، تحسّباً كي لا يراهما أحدٌ من البيوت.

يفعل ما تطلبه منه.

تخبره إنغريد عن نوع القارب، ومن أين جاء، وما جاء به. تقول ذلك كلّه دون أن يرمش لها جفن، كما في لحظات السعادة في المستشفى، أو عندما أخبرت باربرو بذلك. الشيء الوحيد الذي لم تتحدّث عنه هو

الحب، وهذه لحسن الحظ ليست كلمتها، بل كلمة الطبيب. وفي النهاية، تطلب من أرنه ألّا يحدّث أحداً عما سمع، فهذا الأمر لا يعنيهم.

يهزّ رأسه كمن يدرك أنها تخفي شيئاً، لكنه يرضى بأن يُؤتمن على نصف سرٍّ. لكن نظرته تُشعِرُها بأنه يتساءل ما إن حان الوقت ليسألها ما إن تزوّجت قبل الآن، أو ما إن كان لديها شريك، لأن بطنها كبيرة الآن، وكأن لهذه الحال علاقة بالقارب في قعر كارفيكا. عندئذٍ، تستدير وتمشي صوب البيوت.

- 11 -

حدث شيء للجزيرة عندما خرج أرنه مثل الفون(*) من البحر البارد، تكّة في ساعة أكبر بكثير من تلك الساعة، المشوّشة باستمرار، المعلّقة على الجدار في المنزل: تهبّ العاصفة الثلجية الأخيرة، تغطّي البراعم الخضراء المتفتّحة حديثاً، ثم تختفي في غضون دقائق قليلة، القوارب المُقَطرَنَة الملقاة على الأرض وبطونها مفتوحة للهواء ينبغي حمايتها الآن من أشعة الشمس بالأقمشة المشمّعة، فالربيع لا يزحف خلسة، بل يطبق على رقابهم بلا رحمة، مثل الصيف.

ينتهي الإخوة من بناء جدار، يُفلَح حقل البطاطس بالمحراث الجديد، الذي يجرّه كلٌّ من باربرو وأرنه، بينما يزرع الآخرون بذار موسم الخريف، وظهورهم محنيّة فوق تربة بنّيّة يتصاعد البخار منها، ويشربون القهوة، ويأكلون في الهواء الطلق.

(*) phaunos: مخلوق أسطوري، يظهر في الأساطير الرومانية نصف بشري ونصف ماعز، الرجل الماعز. وفي الأسطورة اليونانية ينتمي إلى سواتس، وهي مخلوقات ذات قدمين، لها أرجل ماعز وذيله، ورأس رجلٍ وجذعه وذراعاه. استعارت هذه المخلوقات مظهرها من الساتير Satyrs، الذين استعاروا مظهرهم من الإله بان Pan من مجمع الآلهة اليونانية. كانوا رموز السلام والخصوبة، وزعيمهم: Silenus. [م]

يبذل فريدريك جهوداً كبيرة، لكنها غير كافية. وتهتم إنغريد بالأغنام، وبأعشاش طيور العيدر، وتراقب الأسماك المجفّفة بقلق بالغ بعد أن شاهدت الديدان والحشرات. وسوزانا لا تتردّد في مغازلة أرنه، تسأله لماذا لا يرى بالعين الثانية، عندئذٍ سيراها بشكل أفضل، في فستانها الجديد، وتسأله متى سيسمح لها أن تقصّ له شعره الطويل الذي يجعله يبدو كفتاة.

تضطرّ إنغريد، الأكثر اتزاناً، أن تنأى بنفسها لكن ليس أبعد من أن تستطيع من موقعها، على التلّة فوق الخليج، متابعة حديثهما؛ أرنه فوق السلّم مقابل جدار آخر، وسوزانا تصيح من على الأرض، وترى إنغريد لأول مرة ابتسامة على وجه أرنه، الذي وفقاً لكلامه، يكمل السابعة عشرة في الأسبوع القادم. فقد استجاب أخيراً لسؤالها عن تاريخ ميلاد كلٍّ منهم؛ فإنغريد تشعر أن هذه الأيام مهمّة، لأن يوم ميلاد الشخص حقٌّ للجميع، وقد علّمت هذه التواريخ في التقويم. لقد أتمّت سوزانا الثانية والعشرين، وأتمّ فريدريك السابعة، وهو قادر على القراءة حسب قول أمه.

بينما هم واقفون هناك كلٌّ يستمتع بطقس الربيع بطريقته الرائعة، يدوّي انفجارٌ كبير في السماء، بوق ضباب من سفر موسى الرابع؛ ينفصل عن اليابسة طودٌ كبير، أسود وأبيض، وينزلق بهدوء على سطح الفيورد الساكن، يبدو أنه قادم من جهة المركز التجاري، إنه السفينة الساحلية، التي في الأوقات العادية وغير العادية تقوم بهذه الرحلة على الجانب الداخلي من البر الرئيس، سفينة خارج مسارها، وهي ترفع الأعلام النرويجية ليس فقط على الصواري، والمداخن، والدرابزين، وعلى مقدّمة السفينة ومؤخّرتها، بل إنها ترفرف أيضاً فوق كل الأسلاك والحبال، مثل شجرة عيد ميلاد بكلّ زينتها، ولا تتوقّف عن إطلاق صافرتها، فتصمت الأغنام والطيور، وتقف

مع سكّان الجزيرة على الصخور، وتحدّق إلى هذه السفينة العملاقة التي تنزلق مقتربة من بارأوي أكثر مما تجرّأ عليه أيّ مخلوق مماثل. وعلى طول درابزين السفينة، وقف رتلٌ من الناس، متلاصقين، وهم يلوّحون بالقبّعات، بالقُلنسوات، والمرافق، والرُّكَب، كأنهم يسخرون من سكّان الجزيرة، رهط من الناس، جُنّ جنونهم، في حفلة سكر عائمة، مميّزة، إنهم يحتفلون بشروق عهد جديد، واليوم هو العاشر من أيار.

يتسمّر سكّان بارأوي في أماكنهم صامتين، وعندما تختفي السفينة، يشعرون أنها تُخلّف وراءها خسارة فادحة، رغم أنهم لم يفهموا ما قد شاهدوه، ولم يلوّحوا للسفينة ومحتفليها إلا بعد أن اختفوا، ويستمرّون بالتلويح حتى يشعروا أنهم أغبياء. لكن لا شكّ في أنهم قد شهدوا وحياً، شيئاً جدّد الحياة في الجزيرة وأهلها، وأدخلهم جميعاً في ثرثرة محمومة. تركض إنغريد وتُحضر المنظار، الذي يربك نظرات الجميع، وتنظر إلى تلك السفينة الكبيرة التي تدخل في الأفق، وتصبح مثل نقطة سوداء تحت القمر الشاحب.

بعد ذلك لم تعد بارأوي صامتة، ولا مغلقة، ويبدأ الجميع بالتحدّث في وقت واحد عما شاهدوه ولم يفهموه، وتصيح باربرو إنهم ينبغي أن يحتفلوا بذبح حمل، وأكل اللحم الطازج.

يصيحون ويهلّلون مؤيّدين الاقتراح قبل أن يتسنّى لإنغريد أن تفكّر في الأمر كفاية. تعطيهم موافقتها، فيُذبَح الحمل، ويُسلخ، ويُطهى، ويستمرّون في الكلام دفعةً واحدة وهم يأكلونه في غرفة المعيشة، وكأن الشتاء والحرب قد انتهيا، ويناقشون التغييرات، والاحتمالات التي قد تترتّب على ذلك، في السماء وعلى الأرض.

وبينما كانوا ينتظرون، متخَمين، الطبق الذي تعدّه سوزانا، وتسمّيه تحلية، ويسمّيه بعضهم حساء، هو حساء أيضاً، وهو عبارة عن مرق أحمر فيه جريش الساغو(*)، والزبيب، تطوف عينا إنغريد الغرفة وتستقرّان على الجدار، عند لوحة لسفينة شراعية، اشتراها والدها في ما مضى وعلّقها هناك، فيطفر من عينيها سيل دموع، دون نحيب، بكاء صامت. لا أحد يعرف السبب، ولا هي أيضاً، فيقول أرنه إنها تفكّر في نيلفي من جديد.

تضع سوزانا سلطانية الحساء على الطاولة، وتسأل: «من تكون نيلفي؟». لا أحد يجيبها.

تكرّر سوزانا سؤالها وهي تسكب الحساء، وتوزّع الأطباق حول الطاولة. تنهض إنغريد وتضع يدها على كتف أرنه، كما لو أنه ابنها، ثم تخرج إلى حديقة الأثداء، تحت رذاذ مطر مفاجئ، وتجلس بالقرب من الغنمة الأولى، التي أطلقت عليها اسم ليا، تيمّناً باسم شخصية توراتية عاشت في ظلّ أختها، لكنها بوركت بذرّيّة أكثر. تدفن إنغريد وجهها في صوف الغنمة الرطب؛ حتى تهدأ، بعدئذٍ تعود وتجفّف وجهها، وتجلس إلى الطاولة حيث ما زالوا يناقشون ما تعنيه السفينة، ويضحكون دون حساب.

لكن إنغريد ما تزال عالقة في قول أرنه في أنها تفكّر في نيلفي، لأنها تفكّر فيها فعلاً، غير أنها وببساطة تفكّر في المهندس من لينينغراد، وتشعر الآن أنه ينبغي أن يكون حيّاً، وهذا ما هزّها في الصميم، إلى جانب الجنين الذي ينمو في أحشائها، وهي تشعر بركلاته الآن، ومن الآن فصاعداً لن تذرف دمعة واحدة.

(*) الساغو هو نوع من النشاء يُستخرج من لبّ بعض سيقان النخيل الاستوائية، وهو نشاء أساسي في بعض مناطق إندونيسيا وماليزيا وبابوا غينيا الجديدة. [م]

- 12 -

متردّدة، تترك إنغريد أرنه يجدّف بها إلى المركز التجاري. تجلس في مؤخّرة القارب، بطانية فوق كتفيها ويداها فوق بطنها. وهذه رحلة غريبة، لأنه نادراً ما أبحر سكّان بارأوي إلى أي مكان دون هدف محدّد، والآن لا الذين بقوا في الجزيرة، ولا المجدّف نفسه يعرف الهدف من هذه الرحلة. وقد اصطحبا فريدريك معهما، لأن أرنه لم يرغب في تركه مع شقيقيه، وفريدريك لا يعاني من دوار البحر، ولن يجدّف أيضاً.

في المركز التجاري، يسمعان أن الحرب قد انتهت فعلاً، وأنه يجري استبدال العملة الحالية، والعالم يقوم من الرماد، مرّةً أخرى. ومدير المركز التجاري جديد أيضاً، شابّ من وسط البلاد، حيويّ ونشيط، شعره خشن، وعيناه كبيرتان جداً، ما لم يكن وجهه صغيراً جداً. يقول لهما أن يجلبا كل ما لديهما من بيض، سمك، ريش العيدر، لأنّ الحفاظ على سير عجلة الاقتصاد اليوم أهمُّ من أيّ وقت مضى.

والأسعار؟

هناك أشياء لا تتغيّر أبداً.

خرج الألمان على عجل؛ وقام المُحرِّرون، الإنكليز، برمي كل المدفعية والسلاح الثقيل في البحر، كي يشتري النرويجيّون سلاحاً جديداً من إنكلترا عندما يستقرّون ويقفون على أرجلهم مرّة أخرى. بالمناسبة، لا وجود للبريطانيين أيضاً. فقط رجال، ونسوة، وأطفال نرويجيّون خرجوا من بيوتهم، ويبدون في ضوء الشمس بيضاً وقد استحمّوا حديثاً. وهناك مزاد، في المستودع القديم، تُباع فيه كلّ مخلّفات الألمان، خزائن عفنة الرائحة، وأثاث مكاتب مبقّع بالزبد، وأدراج مليئة بكرات النفتالين، ومبرايات أقلام الرصاص، وأختام مطاطية تحمل رمز نسر الرايخ الثالث؛ ومصابيح أرضية، وكنبات مفردة، وملابس غير صالحة للاستعمال. حتى العجلات المطاطية لعربات المدافع تُباع في المزاد، وهذه يمكن قصّها بمقاسات معيّنة وصنع نعال أحذية منها. وهناك أيضاً خيول، الخيول التي استولى عليها الألمان عندما وصلوا، وهي الآن أكبر خمس سنوات، وقد أنهكتها أهوال الحرب؛ تقف هناك محدّقة في قذارتها. يعرفها أصحابها القدامى، ويتضح بالملموس، أن أسماءها النرويجيّة توقظها ببطء من سباتها، عندما تُنطقُ لأسباب عملية وعاطفية.

كانت إنغريد ترتدي فستاناً أخذته من سوزانا، فستان مناسب يمنحها شعوراً داخلياً بأنها لا تبدو غريبة، لا في نظر نفسها ولا للآخرين أيضاً. وتفكّر في أن تشتري حصاناً بنقود لا تملك منها شيئاً، لكنها تنشغل عن ذلك بمشهد الصخب الجماعي: جوّ احتفالي سلمي، وكلّ الوجوه التي تميّزها من جديد تحمل تعابير ترقّب حَذِر. وقد انتقلت آنيا من بيت القسّ، مع أطفالها الأربعة وغونفور، إلى بيت كبير يملكه أحد ربابنة الصيد في القرية، لقد عرفت إنغريد هذا الرجل منذ أيام المدرسة، لم ينجح قط في العثور على زوجة، لكن يبدو أنه قد وجدها الآن، إنه يلبس قبّعة عريضة

الحواف، ويحمل أنتي على ذراعه، وباليد الأخرى يوزّع أكياس سكاكر على بقية أفراد العصابة. وتهمس آنيا في أذن إنغريد إن صحة زوجها لم تتحسّن بعد، وقد تلقّت رسالة بخصوص هذا الأمر.

تضع آنيا الرسالة في يد إنغريد. تُميِّز إنغريد خطّ الطبيب إريك فالك، تتذكّر شيئاً ثم تنساه في اللحظة ذاتها، إذ إنها تلاحظ أن الأطفال ما عادوا خجلين، يصافحونها، وكلّهم يلبسون ثياباً جميلة ويتغذّون جيّداً، أولاد السلام، مليئون بحياة واعدة. وفي اللحظة التي تفكّر فيها أن تسأل غونفور عن شيء يتعلّق بنيلفي، وأرنه يتابعها بنظراته، كالعادة: وكأنه قد أصبح حارسها الشخصي، وفريدريك لا يزحزح نظره عن الخيول، تتخذ إنغريد قراراً يقلقها منذ أن تملّكتها أحاسيس غريبة عن حياة المهندس وموته.

تغادر إنغريد هذا التجمّع الصاخب، وتصعد الطريق الأبيض وراء بيت القس، وفي إثرها أرنه وفريدريك؛ ثم تنعطف نحو بيتٍ مطليٍّ باللون الأحمر يملكه الرجل الذي كان زعيم القرية ذات يوم، رجل طويل وضخم.

لا أحد يجيب على طَرْقات إنغريد على الباب، غير أن صوتاً من ذاكرتها البعيدة يحثّها على فتح الباب والدخول؛ ترى بيتاً في فوضى زريّة، بيت لا امرأة فيه، ورجل ينام جالساً وجذعه العلوي على طاولة المطبخ المليئة بأطباق وأقداح قذرة، ببقايا ما كان يتفاخر به يوماً، ويبدو كمن يريد أن يدفن نفسه بينها. وعندما يراها يغمغم مستاءً بالعبارة التي غمغم بها يوم رآها على متن سالتهامّر: «أهذه أنت؟!».

تطمئنها حالة عجزه هذه فتجلس، بينما يبقى أرنه وفريدريك واقفين يبحثان عما يستحقّ التحديق فيه. تسأله ما إن كان ما يزال يحتفظ ببعض الأوراق من عمله كرئيس للّجنة التموين والإسكان.

يجيبها بـ«كلّا» حاسمة، ويحدّق إليها حتى لا يبقى مكان للأمل، ثم يحاول محاولةً يائسة الوقوف والتحرّك باتجاه خزانة أدراج مدفونة تحت كومة من الثياب والسترات. فتنهض إنغريد وترمي الثياب جانباً، وتسحب أول درج، وتسمع منه «كلّا» مستاءة، فتفتح الدرج الثاني وترى فيه خمسة أعمدة من بطاقات مفهرسة، آخر بقايا النظام.

فيقول إنّ عليها البحث بنفسها، لأنه لن يفعل هو ذلك.

تقلّب بأصابعها البطاقات حسب التسلسل الأبجدي، وتجد واحدة تشبه بطاقة بريدية دون طوابع، وقد كُتب عليها بخربشة يدوية اسم جادفيجا من مينهامن. لا ذِكر فيها للكنية، لتاريخ الميلاد، لمكان الميلاد، لمكان الإقامة السابق أو العمر، بل فقط أنها كانت مهجّرة، وأنها تسكن عند عائلة أبيلسين في فينمارك، إلى جانب الصبيّين، اللذين تتذكّر إنغريد أنها رأتهما برفقتها في مطبخ سالتهامرّ، وكذلك القبطان، لوكاس فارا، الذي أقام مراسم جنازة نيلفي؛ في البطاقة ذاتها، لكنها وجدت تاريخ ميلاد الصبيَّين، وهما في الخامسة عشرة تقريباً، وليسا شقيقين.

تعرف إنغريد أن عائلة أبيلسين تعيش في أقصى جنوب الجزيرة الرئيسة، لكنها، رغم ذلك، تسأل، وتسمع للمرة الأخيرة ذلك الصوت الذي فقد كل سلطاته. يقول هنريكسن: «كيف أعرف بحق الجحيم؟». إنغريد التي تمنّت له الموت وسوء الخاتمة، طيلة الأشهر الستة الماضية، تقرّر أنه ميت سلفاً، أو أنه في وضع زريّ لدرجة أنه بدأ يثير شفقتها. تضع الكرت تحت فستانها، وتخرج مسرعة.

يصيح هنريكسن وراءها، إنه قد أنقذ حياتها، وإنها ينبغي أن تشهد له...

تعود إنغريد إلى القرية، ثانيةً، تتجاوز المزاد، وتدخل إلى المركز

التجاري، حيث لا وجود لمارغوت، لكن إحدى مساعداتها تقول إن ماركوس السيارة -كما أصبح لقبه خلال السنة الماضية- قد طُرد من المتجر، وإلى الأبد كما يبدو، وإن كانت تريد واسطة نقل، فعليها أن تركب سيارة الألبان، أو جرّاراً أيضاً. لا تخبر إنغريد أرنه عما تنوي فعله، ولا يسألها هو، وفريدريك لا يهتم، بل يطلب من إنغريد أن تشتري له سكاكر، موجودة في قطرميز زجاجي على الطاولة هناك.

ترفض إنغريد طلبه، لكنها تتوقّف وتسأله ما إن أكل شوكولاتة من قبل؟

فيؤكّد لها أنه أكلها من قبل.

تسأله إنغريد: «أين؟».

يصمت، ويبدو أنه يبحث عن إجابة ترضيها. لكن إنغريد تنسى الأمر كلّه.

ياكوب أبيلسين، في فينفيكا، رجل أرمل، وقد صاد السمك مع جدّها ووالدها، يتذكّر الصيد معهما في قوارب التجديف، ولا يتوقّف عن الحديث عنهما لدى رؤيته إنغريد. إلى جانبه في هذه المزرعة جيّدة الإدارة، ستّ جليسات، وإحداهن خادمة في منتصف العمر تجلس صامتة، ويبدو أنها تفكّر في أن تصبح سيّدة المنزل، هذا إن لم تكن قد أصبحت سيّدته. الصبيّان من فينمارك يزرعان البطاطس في حقل حُرِثَ حديثاً، وجادفيجا تجلس في كرسي هزّاز في أشعة الشمس التي تدخل عبر زجاج نافذة كبيرة في غرفة الجلوس، حيث تنام في سلام وفمها مفتوح، وتستيقظ عندما تلمس تلك المرأة ركبتها وتخبرها أن لديهم ضيوفاً، وتسألهم ما إن كانوا يرغبون في القهوة؟

«نعم، شكراً»، تقول إنغريد.

تستغرق جادفيجا وقتاً طويلاً للوصول إليهم، وتضع القهوة على الطاولة قبل أن تضع إنغريد في حضن جادفيجا الورقة التي انتزعتها من دفتر رسوماتها، والتي مكتوب فيها ثلاثة أسطر من الشعر. تحمل جادفيجا الورقة بعيداً عن عينيها، تحدّق فيها، ثم تبتسم، وجهها كتلة تجاعيد بيضاء.

«كلّ هذه الأسطر تقول أحبّك».

تحرّك إصبعاً ثخيناً متتبّعة الأسطر التالية، وتقول: «تسع مرّات».

«العبارة ذاتها؟» -تسأل إنغريد- «تسع مرّات؟!».

تعدُّ جادفيجا، وتقول: «أجل، تسع مرات»، ثم تحمل فنجانها، تنظر فيه، وترفعه إلى شفتيها.

تسأل إنغريد: «لا شيء آخر، اسم، عنوان...؟».

«كلّا».

لقد نُظّفت النافذة حديثاً، وهي صافية كالماء، تستطيع أن ترى عبرها على مدّ النظر. تسقط ورقة بيضاء أمام نظرها، الحقول خضراء تتمايل مع نسائم الصيف، ووراء الحقول يمتد البحر ذاته ويختفي في الأسطر المتشابهة، تسع عبارات حبّ، دون أن يخبرها ما تريد معرفته فعلاً، وفوق ذلك كلّه بابتسامة ساخرة.

تسقط ورقة أخرى أمام عينيها وأصابعها ترتجف وهي تطوي الورقة وتلوّح بها أمام النافذة، كأنها تلوّح لشخصٍ يقف في الخارج. تشرب جادفيجا قهوتها وتنظر إليها بهدوء.

تلمس إنغريد ركبة جادفيجا وتشكرها. تخرج إلى حرّ الصيف، وتشعر بحاجة إلى القيام بجولة حول البيت، تمرّ بالمجلخة، ومخزن الحطب

والتورف، وبمجرفة مغروسة في الأرض مكسورة النِّصاب، وفي الفناء ترى أرنه وفريدريك واقفين مع الصبيين يضحكون من شيءٍ ما، كما ترى العجوز أبيلسين، وغليونه بين شفتيه مُنصتاً إلى القبطان، لوكاس فارا، يشرح بإسهاب سبب عودته إلى بيته.

تسرع إنغريد في الانضمام إليهما، وتقول إن الحكومة الجديدة، أيضاً، تمنعهم من العودة إلى بيوتهم الآن، وقد قرأت هذا القرار في المركز التجاري. يشخر فارا ساخراً، ويقول إنه لا يبالي بقرار الحكومة، وإنه سيعود إلى بيته، حتى لو سيراً على قدميه، فالمسافة لا تزيد عن مئتي ميل على أيّ حال.

يضحك الآخرون. لكن القبطان قد تسلّم رسالة، مؤخّراً، وهو يثق بمضمونها، تقول إن ثلث مدينته قد نجا من الدمار، بضمن ذلك حظيرته الصغيرة، أي إنه يمكن أن ينام فيها بينما يعيد بناء بيت المزرعة، والوقت الآن صيف والشمس لا تغيب.

يضحك ياكوب، يبعد غليونه جانباً، ويقول: «أعتقد أنه من الأفضل لك أن تبقى هنا، أيها الرجل العجوز!».

«هنا، كأنني في مركز لإعالة فقراء الفلّاحين!».

«ماذا؟ ألا تحصلون على ما يكفي من الطعام؟!».

«بماذا تهذيان؟»، تصيح الخادمة عن شرفة المنزل.

«إنه يشكو من نوعية الطعام»، يصيح ياكوب.

تصيح بشيء لا يسمعونه، ثم تدخل وتصفق الباب وراءها.

تختفي ابتسامة ياكوب، ويقول: «ليس لديك من تعود إليه، هناك».

يبدو فارا على وشك أن ينفجر، لكنه يكرّر قوله إنه من العار أن يعمل

هنا في أرض رجل غريب، في الوقت الذي يملك فيه أرضاً ينبغي أن يعمل فيها.

«أوه، فلتذهب إلى الجحيم إذاً!»، يقول ياكوب، ثم يلتفت إلى الصبيَّين ويسألهما: «ألم تحصلا على عُرى بطاطس لزراعتها؟».

تقول إنغريد إنهم ينبغي أن يعودوا. يأخذهم ياكوب قسطاً من الطريق على جرّاره، ويتابع حديثه عن البحر وسنوات الصيد في لوفوتن، حكايات لا مكان لها في ذاكرة إنغريد. حتى إنها لا تكلّف نفسها عناء السؤال عن تحطّم السفينة، كما لو أنه لم يعد لها مكان في ذاكرتها أيضاً، وعندما يركبون مقطورة الجرّار، ينفلت لسان فريدريك من عقاله أيضاً، كأن السلام قد أثّر فيه أيضاً، فيسأل عن فينمارك، وعن سكارفوغ.

يخبره أرنه. فيسأله عن الحرب والحرائق؛ يقول أرنه إنه لم يبقَ إلا الرماد. يزداد حماس فريدريك مع كل سؤال، ويتكاسل أرنه في كل إجابة. وعندما ينزلون متجاوزين المركز التجاري - ولم يتسوّقوا بعد لأن إنغريد نسيت أن تتسوّق، يعودون أدراجهم صعوداً ويتسوّقون، بسرعة.

عندما ينزلون الطريق إلى الرصيف، يقول أرنه إن مواد البناء لديهم ستنفد قريباً.

كانت إنغريد تتوقّع منه قول شيء آخر، فتقول إنها تعرف ذلك.

ثلاثة جدران -يقول أرنه- أحدها بألواح خشبية، إضافة إلى دعائم السقف، فماذا ستفعل حيال ذلك؟

تقول إنها لا تعرف، وهذا يتوقّف عليه هو.

يسألها ماذا تعني.

«أنتم سترحلون. أليس كذلك؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

يقول أرنه إن هذه هي رغبته بكلّ وضوح، لكن يبدو جليّاً أنها هي من يقرّر دوماً. تلزم إنغريد الصمت.

في الطريق إلى البيت يزداد كلام فريدريك، ويخبرهم عن والده، الذي لم يذكر اسمه لا هو ولا سوزانا؛ ومن الواضح أن والده ما يزال على قيد الحياة ويعمل في التجارة، يبيع أشياء لا يستطيع فريدريك شرحها، لكن يتبيّن أنه نادراً ما كان موجوداً، أو أنه لم يعد موجوداً.

يسأله أرنه عن السبب.

فيقول فريدريك لأنه مشغول دوماً.

يسأل أرنه: «ما الذي يشغله؟».

يقول فريدريك إنه يعمل أشياء مهمة. لا يفهم أرنه أي شيء منه أيضاً، وينتقل فريدريك إلى الدفاع عن والده الغائب، الذي يعرف أنه فقد حظوته لدى أمه، بعدئذٍ يظهر زوج أمه، وهو ألماني اسمه أرمين، ونادراً ما كان يراه أيضاً.

«أرمين؟»، يسأل أرنه.

يتلوّى فريدريك فوق المقعد، ولا يجد ملاذاً، رغم أن إنغريد تقول إن أرمين رجل لطيف بالتأكيد.

ينظر فريدريك متوسّلاً إلى أرنه، الذي ينحني فوق المجدافين، ويجدّف بأقصى سرعته، ويسأل ما إن كان عازف البيانو سيتعلّم التجديف في أقرب وقت؟

بالتأكيد، يستطيع فريدريك أن يجدّف.

ينتقل فريدريك إلى المقعد بجانبه، ويجدّفان بطريقة متعرّجة، تحت الرذاذ الذي يهطل فجأة فوق البحر المجعّد، ونظرات إنغريد التي تتابع ما

يجري بينهما، وهي تعدّ نقودها، وترتّب ذاكرتها في محاولة للهروب من أمر على وشك أن يسيطر على تفكيرها.

عندما يُدخلون القارب إلى السقيفة، يقول أرنه لفريدريك: «ها قد نجوت اليوم أيضاً»، ثم يضع المشتريات في صندوق سمك، يرفعه فوق كتفه ويصعد إلى البيت.

تأخذ إنغريد بيد فريدريك وتقول له إنه سيكون سعيداً جداً في بارأوي، لكن ينبغي ألّا يفكّر في أبويه، وألّا يتحدّث عنهما أبداً. يقول فريدريك إنه لن يفعل ذلك، وإن بارأوي مكان رائع. فتقول إنغريد بصوتٍ عالٍ إن السلام لا يختلف كثيراً عن الحرب، وتصعد إلى الصالة الشمالية؛ تُخرج الورقة ذات الأسطر التسعة وهي تفكّر في إحراقها.

لكن كيف ستحرقها في الصالة الشمالية؟ لا يوجد موقد هنا.

تبقى في الصالة الشمالية، لأنها يجب أن تكون وحيدة، تقرأ الورقة مرّة أخرى، ولا تنزل من الصالة في هذا اليوم. تستلقي تحت لحاف العيدر، وتعرف من جديد أنه ميت؛ تستطيع أن تشعر به في جسدها، شلل مضاعف، كبير وصغير، مثل سلك فولاذي يهتزّ عبر حياتها كلّها.

لكنها تنهض، تقف أمام النافذة، وتنظر إلى الشمال، عبر الحقول والبحر، إلى أوترهولمن، وتشعر فجأة أنها ينبغي أن تبقى على قيد الحياة في نهاية المطاف، حيّة أو ميّتة، إنها لا تقوى على أن تموت، حسب مكان وجودها في هذه الغرفة، حيث تمضي الليل كله تمشي جيئةً وذهاباً، وتشعر الآن أنها لن تبدّلها أبداً، مهما كان الشتاء بارداً. ستبقى سوزانا في الصالة الجنوبية.

- 13 -

مع حلول السلام يعود القسّ يوهانس مالبيرغيت. لا أحد يعرف أين كان، وبما أنه من ذوي المراتب المحلّيّة فلا أحد يجرؤ على مساءلته، وقد هرم إلى درجة أنه لم يتبقَّ منه سوى صوته.

بالمقابل، يصدح صوته مدوّياً، بعد أن يحمله ابناه الأصغران، ويضعانه على كنبة فوق منصّة المذبح، أمام ميكروفون ومكبّر صوت ألماني، من مخلّفات الحرب. فيعتقد سكّان القرية أنهم يستمعون إلى خطاب من راديو لندن، الذي كان ممنوعاً، ويكادون يصفّقون. ويسلّط القسُّ الضوء من جديد على السؤال الذي أربكه طيلة حياته، وكان سؤالاً محورياً في كلّ العِظات التي كتبها: هل الإنسان عظيم أم وضيع؟

وللمرّة الأولى، أيضاً، يفهمون قصده، لأنه قد خلص إلى نتيجة: إنّ الإنسان عظيم.

يتساءلون، للوهلة الأولى، ما إن كانت الحرب أفقدته رجاحة عقله، لكنه يسوق كلمات مؤثّرة لتبرير إجابته مثل: مخلص، ثابت، والجبال الشاهقة، وذرات الرمال التي لا تندثر، ويجد بينها مكاناً لحشر يسوع

وقيامته، وصعوده إلى السماء، رغم أنه ليس عيد الفصح، ولا عيد العنصرة، بل هو الأحد الأول بعد عيد يوحنا المعمدان؛ وأمثاله البالية عن الملح، والأرخبيلات، والجزر التي تنتعش وتتلألأ فجأة كما لو أنها نُحتت في الصخر.

ويصرخ في خاتمة يعتبرها عظيمة: لا شكّ في أن الكثيرين منكم على دراية بالتطوّرات في مختلف أنحاء العالم؛ ومن هذا المنظور فنحن الموجودون هنا على الهامش الرمادي من العالم محظوظون، رغم أن البعض قد يعتبر هذا هراء، قد تبدو الرؤية مشوّشة، لكن فكّروا في الأمر قليلاً، وتبيّنوا ما إن كنتم ستدركون الحقيقة في كلام هذا الحكيم، بالطبع لا أقصد شخصي، بل الله.

يعلو ضجيج في غرفة الكنيسة، الحضور كبير، فقد عاد الناجون كلّهم تقريباً. تلتقي إنغريد، من جديد، نيللي زميلة الدراسة، التي قضت الشتاء في هافستاين، وعائلتها، كما تلتقي جيني وهانّا مع قططهما، وآنيا وأولادها أيضاً، لقد هجرت ربّان الصيد، ولديها بطاقة سفر على متن السفينة الساحلية، غير أنها لن تعود إلى بيتها، بل إلى معسكر إيواء حيث ستلتقي زوجها، الذي يُفترض أنه قد استعاد صحّته على أيّ حال. تبدو حزينة قليلاً، لكنها خرجت من خراب الحرب والعمر الذي يصعب تحديده بين العشرين والستين، وتبدو الآن أقرب إلى عمرها المدوّن في أوراق هنريكسن، تسعة وعشرون. تقول إنغريد إنها لن تنساهم أبداً، ولن ينسوها أيضاً، ويجب أن يكتبوا لها.

تسألها آنيا عن أحوالها.

تنظر إليها إنغريد وتقول إنها لا تعرف، وتضع يدها على رأس سارة.

تطلب إنغريد أن تتحدّث إلى القسّ. يحمله ابناه خارج الكنيسة، ويضعانه في المقعد الجانبي من درّاجة نارية ألمانية، اشترياها من المزاد، ويدفعانها بعيداً بين القبور بحيث يكون الحديث خاصاً بناءً على طلب إنغريد.

تعترف إنغريد للقسّ أنها حامل، كأنه لم يلاحظ ذلك من ثيابها الصيفية الخفيفة، وتطلب ألّا يكون هناك ما يصم الطفل، والقسّ هو أفضل من يضمن ذلك.

يباركه الكاهن بحركة رشيقة من يده، دون أن يسأل عن الأب، أيضاً. فتقول إنغريد، بدافع حرصها للبقاء على الجانب الآمن، إن الأب كان مقاوماً، وقد لجأ إلى جزيرتها.

«هل هو على قيد الحياة؟»، يسأل القسّ مالبيرغيت.

تهزّ إنغريد رأسها. ويشكّ القسّ في ذلك، يوجد الكثير من الأطفال دون أب هنا، فهذه ليست بلداً زراعياً، حيث يجلس الرجال مع نسائهم وأطفالهم آمنين في بيوتهم على مدار العام، وإنّ إنغريد ينبغي أن تكون سعيدة بهذه الهبة، حياة جديدة، ويسألها ما إن كانت اختارت الاسم؟

«ألكسندر».

يقول القسّ إنه ليس اسماً شائعاً هنا. توافقه إنغريد الرأي.

«وإن كانت طفلة؟».

«كايا».

«أجل، هذا اسم جدّتك».

يعدها أن يبقى حياً حتى يُعمِّد المولود.

لدى مالبيرغيت ما يناقشه مع إنغريد، أيضاً. يدسّ يده المرتجفة في

جيب سترته، ويُخرج محفظة نقود، ويناولها إلى إنغريد. تتراجع إنغريد إلى الوراء. فيقول بصوتٍ عالٍ إنها ينبغي أن تأخذها. لكنها ما عادت تلك الفتاة في التاسعة عشرة، وتتذكّر النقود والرسالة البغيضة، التي أرسلها إلى المستشفى، والتي تتذكّر مضمونها، وتقول إنها، في نهاية المطاف، تريد منه تفسيراً لتلك العلاقة الغريبة بينه وبين والدها. فتتوقّف المحادثة هنا.

بما أن يوهانس مالبيرغيت لا يستطيع أن يصرخ طلباً للمساعدة، أيضاً، يبدّدان هذا التوقّف بالنظر إلى القبور من حولهما، يقرأان الأسماء المعروفة وغير المعروفة لهما على شواهد القبور والصلبان، وبالنظر إلى الزهور البرّيّة، والمروج المنحدرة باتجاه البحر، والتي يغطّيها العشب الطويل الآن؛ ورغم أن وجهها يتضرّج حمرةً تكرّر إنغريد سؤالها.

دون أن ينظر في وجهها، يقول مالبيرغيت إنه في ما مضى اقترض نقوداً من بنك القرية، بنك الادخار سيّئ الصيت، لمساعدة أحد أبنائه الكثيرين، الذي لم يكن صالحاً نوعاً ما، هذا اعتراف، وقد مات الآن. وقد رهن بارأوي مقابل القرض، ودفع لوالدها مبلغاً زهيداً لقاء ذلك، وكانت المسؤولية كلّها على عاتق والدها.

«كانت بارأوي ضمانة القرض؟».

«نعم، بطريقةٍ ما».

«لكن القسّ يملك عقارات أيضاً. أليس كذلك؟»، تسأل إنغريد.

أجل، يمتلك عقارات، لكن... لقد كان ذلك ديناً عليه، وقد حصلت على نصف الدين عندما كانت في المستشفى، والآن تحصل على النصف الآخر. هل تفهم ما يقوله لها؟

«كلّا»، تقول إنغريد، لكنها يمكن أن تأخذ النقود كقرضٍ.

«قرض؟».

«نعم».

«إنها نقودكِ».

«أهي نقود قديمة أم جديدة؟».

يضحك القسّ متبرّماً ويسألها ما إن كانت تأمل في أن يموت قريباً؟

تسأله إنغريد ما إن كان هذا ما تمنّاه هو لوالدها، فيمتقع وجهه استياءً وغضباً، ويغمغم إن النقود، على أيّ حال، صالحة للاستعمال في المركز التجاري لدى مارغوت، وبالمناسبة فقد عاد ابنها الآن، ويرحّب به الناس كوطني صالح ومقاوم أيضاً.

تضع إنغريد النقود تحت سترتها الصوفية، وهي على وشك أن تقول إنه قد جاء في الوقت المناسب، لكنها تتذكّر أنه في الواقع لم يأتِ في الوقت المناسب، بل جاء، الآن، متأخّراً، كعادته.

ينظر يوهانس مالبيرغيت إلى الناس الذين تجمّعوا أمام الكنيسة في مجموعات وكلّهم يلبسون الأسود، وأصواتهم الخفيضة أمام بيت الله ستعلو وتعلو كلّما ابتعدوا عنه، وتتحوّل إلى ضحكات صاخبة بمجرّد أن تصبح المسافة كافية. يرفع القسّ ذراعه في محاولة للفت انتباه ابنيه، لكنهما لا يريانه. فتضطر إنغريد لمناداتهما، فيأتيان مهرولين، بينما يقول العجوز إنه سُرَّ كثيراً بسماع غناء باربرو اليوم، صوتها رائع.

«لكنها لا تعرف الكلمات، أليس كذلك؟!».

«كلّا».

«بالطبع، لا تعرفها».

تسرع إنغريد في الانضمام إلى الآخرين، الذين يتساءلون عما دار بينها وبين القسّ.

هي نفسها لا تعرف بالتحديد، وتقول إنه يتعلّق بعمادة الطفل.

مساءً، في بارأوي، تأخذ باربرو في نزهة عبر الحدائق إلى الجنوب، وتخبرها عن النقود، لقد عدَّتها، وهي مماثلة للمبلغ الذي أرسله لها في المستشفى، والذي أنفقته على شراء مواد البناء في كارفيكا، والأغنام، والطعام، والمحراث، وأشياء أخرى، لكنها لا تُصرّح عن المبلغ، وبدلاً من ذلك تسأل عمّتها ما إن كانت تعتقد أن سوزانا قد جاءت لتختبئ في بارأوي؟

تُفاجأ باربرو بالسؤال.

تسألها إنغريد ما إن كان فريدريك أخبرها عن والده، فهو لا يفارقها تقريباً، هذا إن أغفلنا زوج أمه، أو عمّه؟

«كلّا»، تقول باربرو، وتغمغم إن سوزانا لم تتحدّث عن ذلك أيضاً.

تقول إنغريد إنه ألماني.

«من هو الألماني؟»، تسأل باربرو.

«زوج أمه».

يزداد تشوّش باربرو. وتقول: «كانت في الرابعة عشرة عندما غادرت».

«لقد حلَّ السلام الآن»، تقول إنغريد بصوتٍ عالٍ.

«هذا ما تعتقدينه أنت»، تقول باربرو، وتسألها ما إن كان هذا يعني أنه قد حان الوقت لإعادة بناء تلك المنارة الغبية، هناك، مرة أخرى؟

تنظر إنغريد صوب المنارة، ثم تقول لتهدئتها إنه قد حان الوقت أيضاً لكتابة الرسالة.

«أيّ رسالة؟».

«إلى لارس. سنبقى وحيدات هنا، ثلاث نساء، وصبيّ سيبدأ المدرسة قريباً».

تقول باربرو: «لكن الفنلنديّين هنا»، وتخجل فجأة، الأمر الذي يجعل إنغريد متأهّبة.

فتقول، ربما ننجح في إبقاء الإخوة الثلاثة حتى ننتهي من حصاد التبن، إن كنا محظوظين. بماذا تفكّر باربرو؟

سرعان ما تنطق باربرو - لقد كُتِبَتْ الرسالة.

«ماذا؟!».

لقد كتبتها سوزانا، تحت إشراف باربرو، وقد أملت عليها باربرو بضع كلمات أيضاً؛ وقد أُرسلت الرسالة، لكن ليس إلى لارس، بل إلى فيليكس، فهما يصطادان معاً منذ سنوات، وإن كان هناك من يستطيع أن يحثّ لارس على العودة إلى الجنوب، مرّة أخرى، فهو فيليكس. لقد أرسلها أرنه منذ بضعة أسابيع.

«ماذا فعل أرنه؟!».

تستدير باربرو، تدفع ذراعيها إلى الأمام وهي تصرخ، فوق البرسيم الرطب وزهور الحوذان، فقد سئمت من تذمّر إنغريد، وتمشي وسط العشب الطويل الذي يبلغ ركبتها وهي تؤرجح قبضتيها عن جانبيها مثل نوّاسين حول فخذيها.

تنتظر إنغريد حتى تختفي باربرو داخل باب الشرفة، تأخذ نفساً عميقاً،

ثم تمشي بخطوات بطيئة صوب المنحدرات في الغرب، وتتبع الصخور الزلقة شمالاً، متجاوزةً أوتاد مربط المرساة، والشِّباك التي لم تعد موجودة في مكانها، وتصل إلى السقيفة السويدية، حيث ثبّت الإخوة سكارسفوغ خطّافاً حديدياً إلى عمود، وراحوا يعلّمون فريدريك كيف يُدخل كرات الزجاج في حبل العوّامات.

تشعر إنغريد أنها تقتحم أمراً ما، وجه فريدريك الطفولي المنتفخ ونظرته الساذجة التي ما تزال غريبة عن المكان، هيلمر وسفَرّي اللذين يجلسان القرفصاء كلٌّ منهما فوق حبله، وقد أسندا مرفقيهما على ركبتيهما، ويحرّكان أصابعهما كأنهما يفتقدان صلاة. يقف فريدريك وبين يديه الصغيرتين كرة زجاجية يحاول أن يُدخلها في مكانها في حبل العوّامات، وهو أيضاً ينظر إليها متسائلاً.

تأخذ إنغريد أرنه إلى وراء السقيفة، وتضع إصبعين في جيب صدر قميصه المغسول حديثاً وتشدّها، كأنها تريد أن تجذبه إليها، ثم تدفعه بعيداً عنها، وتسأله ما إن كان بوسعه البقاء في بارأوي إلى ما بعد حصاد التبن؟

ينظر أرنه في عينيها ويمدّ ذراعه أيضاً، ثم يمرّر رؤوس أصابعه على زندها، الجوّ بارد في المساء والندى يتلألأ على الشعر والجلد، يقول إنه لا يعرف بما يفكّر شقيقاه، فهما لم يتحدّثا عن فينمارك منذ فترة طويلة، لقد بدأا ينسيانها، فهما صغيران.

تسأله إنغريد ماذا يريد، فهي بحاجةٍ إلى إجابة واضحة.

يسحب يده عن زندها، ويقول إنه لا يعرف أيضاً.

فتقول إنغريد إنه يعرف بالتأكيد.

فيقول: «نعم».

تدير له ظهرها وتسير بضع خطوات، ثم تلتفت وتقول له إن بوسعه أن يصعد إليها في الصالة الشمالية في الليل، لكنها لا تهتمّ بأن تعرف ما إن فهم قصدها أم لا. تنادي على فريدريك، تأخذه ويصعدان إلى البيت معاً؛ هناك تقول لباربرو إنهم حسناً فعلوا بكتابة الرسالة إلى فيليكس، ويبقى أن ينجح هو في إقناع لارس، اللّهم آمين! ثم تربّت على خدّ سوزانا. تسأل سوزانا ماذا تقصد بذلك، لكن يبدو أنها تتساءل ما إن كانت تستحقّ ذلك. تأخذ إنغريد معها ماءً وتصعد إلى الصالة الشمالية دون أن تأكل أو تغتسل، ثم تأوي إلى الفراش وجسدها يرتعش من برد الشتاء، الصقيع نفسه، لكنه ليس الدفء نفسه.

عندما يلفّ الظلام كلّ شيء، وينام الجميع، ينسلّ أرنه حافياً ويصعد إليها في الصالة الشمالية. تطلب منه أن يقف وراءها ويلجها برفق حرصاً على سلامه الجنين. إنه متحمّس وشديد الانتصاب، ولا يستغرق وقتاً طويلاً. تقول له إنه لا يستطيع أن ينام في الصالة الشمالية، لكنها تأمل أن يبقى هو وشقيقاه في الجزيرة حتى نهاية الفصل، إلى أن ينجزوا كلّ العمل على الجزيرة. يقول شيئاً، لكنها لا تسمعه، يبدو لها مثل صوت الشمِّ، لكنها لا تسأله. يطوّق بطنها بيديه، دافئتين وخشنتين مثل قشرة مكسورة حول بيضة كبيرة. وعندما ينسلّ خارجاً بهدوء مثلما جاء، تشعر بالشوق إلى يديه، لكنها تغطّ في نوم سريع ودون أحلام.

- 14 -

لن يكون الحصاد منتظماً هذا الصيف، فالأرض بورٌ منذ أن حصدتها باربرو وإنغريد قبل عامين من هذا الموسم، وكان المحصول ضئيلاً بالمقارنة مع السنوات السابقة، مع أنهما كانتا وحيدتين حينئذٍ، وحاولتا الحفاظ على تقاليد رجال بارأوي، واستأجرتا عمّالاً من هافستاين، لكنهم لم يعملوا بإخلاص مثل رجال بارأوي.

الآن، الجزّازة معطّلة، وتصدأ لأنها تُركت بين الأسوار الحجرية، والمنجل يثلم بسرعة بسبب العشب القديم، وهكذا يشتمون أكثر مما يحصدون، ويضطرّون إلى جزّ التبن من منتصف الساق. لا تستطيع إنغريد احتمال ذلك، فتنتقل إلى الخطوة التالية وتبيع ريش العيدر في غير وقته، وهذا خرقٌ للتقاليد، لكنها لا تجرؤ على مسّ مال القسّ، لأنها ما تزال عاجزة عن فهم مصدره.

لا تكتفي فقط ببيع محصول السنة، كيسين من ريش العيدر، بل تبيع أيضاً واحداً من الأكياس القديمة في المخزن. ثم تذهب إلى أدولف -المستعدّ دوماً للمساعدة- الذي يشحن لها ليس حصاناً واحداً، بل اثنين، غير أنه لا يحضر شخصياً، بل يرسل ابنه، دانيال، الذي يعرف كيف يقول

لأهل بارأوي إن جزيرتهم سفينة تغرق، أيُّ بؤس هذا! يقول -عندما يرى العشب المجزوز مُكوَّماً على سقالات التجفيف مثل القشّ، وأدنى هبّة ريح تذروه، وينبغي جمعه ثانية وتعليقه على السقالات من جديد- إنهم لن يستطيعوا حراثة كل الحدائق مرة أخرى، غير أنه يستطيع أن يجلب لهم مشطاً وركّاشة تقتلع كل العشب القديم، وعندئذٍ عليهم أن يجمعوا هذا العشب، والحجارة، بأيديهم، ويضعوا ذاك القرف في حفرة بعيدة هناك. ويقول ضاحكاً إنه يأمل أن تنمو شجرة هناك ذات يوم.

حالما يجمعون التبن، وينقلون السقالات إلى مكان بعيد، يبدؤون العمل الذي لم يُعمَل به سابقاً في بارأوي. ودانيال لا يرى ما بين يديه فقط، بل ما قد يأتي لاحقاً. إنه شابٌّ مرح، متهوّر، وبعيد النظر، في الخامسة والعشرين من عمره، ويعمل بلا كلل على مدار الساعة مقابل أجرٍ مُجزٍ وعدته به إنغريد سرّاً. لكنه عندما يفكّر في جلب ثلاثة عمّال، يعرفهم شخصياً، من هافستاين، تطلب منه إنغريد أن يحاول أولاً جلب الشابين -المهجّرَين- المقيمين في مزرعة أبيلسين، في فينفيكا، لأنه سيكون سعيداً في التخلّص منهما بعد أن انتهى من جني محصوله. ما تزال إنغريد تتذكّر وصف والدها لياكوب بأنه رجل جيّد، لكنه بخيل.

يبحر دانيال ويعود وحده: يقول لإنغريد إن الشابّين لن يأتيا دون جادفيجا. فتقول إنغريد: «ليأتِ الثلاثة إذاً!».

وعندما يسألها دانيال ماذا سيفعلان بذلك القبطان العجوز، لوكاس فارا، تضحك إنغريد وتقول إنه ربما طابت له الإقامة عند ياكوب، لكنه مُرحّبٌ به أيضاً إن أراد المجيء.

يُبحر دانيال ثانية، ويعود بالشابين وجادفيجا، التي يحملانها على نقّالة

من الأغصان إلى البيت، ويضعانها في المطبخ على الكرسي الهزّاز. تتلفّت جادفيجا حولها، وتقول إنه بيت جميل، وتسأل ما إن كان لديهم قهوة؟

لقد استقر لوكاس فارا، فعلاً، عند أبيلسين، وقد أُصيبت قدمه الآن، الأمر الذي لم يجعله أقلّ تذمُّراً.

اسما الشابّين: بنيامين، ويورغن، أعمارهما ستة عشر، وسبعة عشر عاماً. يقولان لإنغريد إنهما لن يمكثا طويلاً في بارأوي، لأنهما عرفا أنه قد عُثر على والديهما وأشقائهما، وهم موجودون في معسكر إيواء مؤقّت في محيط مدينة هاشتا، بانتظار أن تسمح لهم الحكومة بالعودة إلى بيتهم، وهما يفكّران في لقائهم في المعسكر.

يقول لهم دانيال إن إنغريد ستؤمّن نقلهما إلى الشمال، وتدفع لهما مقابل العمل، إذا ما أجّلا سفرهما شهراً آخر.

يفكّران في الأمر.

«وماذا عنّا نحن؟»، يسأل أرنه.

«وأنتما أيضاً»، تقول إنغريد، ثم تضيف -رغم أنها لا تعرف- إن قارب بارأوي الثاني سيصل من لوفوتن في غضون أسابيع، عندئذٍ يمكن أن ينقلهم إلى أقرب مرفأ لسفن النقل.

ينظران أحدهما إلى الآخر، وإلى دانيال أيضاً، ثم يهزّان رأسيهما، لكنهما لا يقولان «نعم» واضحة.

لدى بنيامين ويورغن ثياب، وعدّة عمل، لم يعد ياكوب بحاجة إليها، أما جادفيجا فتحصل على بعض ثياب باربرو القديمة، وتنام في سرير العجوز مارتن، في الغرفة الصغيرة داخل غرفة الجلوس، حيث يمكنها أن تمشي دون مساعدة أحد. تُمضي الأيام على الكرسي الهزّاز في المطبخ،

إلى جانب باربرو، وتفاجئها كلّما استيقظت من قيلولتها بذكريات صغيرة سخيفة من عالمٍ لم يسمع به أحدٌ من قبل، وتسأل باربرو كم ولداً لديها.

«ولد، وحيد».

لدى جادفيجا خمسة أولاد. ترفع يدها وتُريها أصابعها الخمس. تسألها باربرو أين هم؟

تغمض جادفيجا عينيها.

في مطلع شهر أيلول، تبدو ثلاثٌ من الحدائق وكأنها ليست حقولاً حُرثت حديثاً فقط، بل إنها جُبلت من الحب أيضاً. ينقلون الأغنام إلى جيس أوي، ويبدؤون العمل في حديقة أخرى، بينما باربرو تخبز وتطبخ للجميع. توكل إنغريد مزيداً من الصلاحيات لكلٍّ من دانيال وأرنه، وتتفرّغ هي لقطف التوت، وصناعة المربّيات، والعصائر، وتحسب كيف سيكفي المحصول القادم لهذا العدد من الأغنام، تحسب كمية التبن وعدد الحيوانات، ومنها البقرة التي لا يمتلكونها بعد، وتنتهي إلى أنه ربما يكون كافياً، هذه الكلمة «ربما»، هي تعويذة كلّ صيّاد - مزارع في حياته الإيمانية الخطيرة.

بما أنه لم يظهر أيّ قارب في الأفق، وقد انتهوا من استصلاح الحديقة الرابعة، توافق إنغريد على اقتراح دانيال البدء بحديقة أخرى. دانيال مسرور من وجوده في بارأوي، وتعتقد إنغريد أن لهذا علاقة بسوزانا، التي تعمل بكلّ طاقتها، محنيّة الظهر، في الحدائق مع الصِّبية، وتلتقط العشب والأحجار، دون أن تتذمّر؛ وسينظّفون أيضاً حظيرة الأبقار من الوحل، المتراكم هناك، فلم يتبقَّ الكثير، يقول دانيال ضاحكاً.

في هذا الوقت سمعت إنغريد من سوزانا حكايتها مع زوجيها. كان الأول نرويجياً نازياً، والثاني، أرمين، ضابط صفّ ألماني انتحر بطلق ناري لأنه ضُبط يسرق قسائم التموين والطعام من أجلها هي وفريدريك، وآخرين غيرهما، من المستودع الذي كان مسؤولاً عنه. وهي ليست متزوّجة من أيٍّ منهما. تسألها إنغريد ما إن كانت هذه هي كل الحقيقة.

تتثاءب سوزانا، ويبدو أنها صحيحة من زاوية خارجة عن القانون مثل سوزانا.

تسألها إنغريد لماذا لم تذكر شيئاً عن فريدريك في رسائلها؟ فتجيبها سوزانا إنها لم تشعر بضرورة ذلك، خصوصاً أن والده لم يرغب في الحديث عنه. تكتفي إنغريد بهذه الإجابة، وتنتقل إلى موضوع آخر. تسألها بأي اسم عرّفت سوزانا نفسها طيلة تلك السنوات؟ وهل استخدمت كنية بارأوي، أم توميسين؟

«توميسين»، تقول سوزانا.

تقول إنغريد إنه ربما عليها أن تتوقّف عن استعمال كنية توميسين، وأن تستخدم بدلاً منها بارأوي، لأنها، على أيّ حال، قد استخدمت هذا الاسم عندما سجّلت فريدريك في المدرسة.

«نعم، في المدرسة...».

تهزّ سوزانا رأسها ببطء.

تستدرك إنغريد قائلة، إنها ينبغي أن تبقى مع فريدريك في هافستاين في الأسبوع الأول من المدرسة، وبوسعها الإقامة عند نيللي، التي لا بدّ أنّ سوزانا تتذكّرها، وقد رتّبت إنغريد الأمر معها، أيضاً.

«تلك التّأتاءة؟!».

«نعم، تلك التّأتاءة».

لم تكن تلك الفكرة الرئيسة التي شغلت سوزانا، بل مجرّد ملاحظة عابرة. فالأمر المهم بالنسبة لها هو أن تعرف لماذا هي مضطرّة أن تبقى مع فريدريك في هافستاين؟

إنغريد ليست مضطرة أن تجيب عن هذا السؤال، لأنه على الرغم من أنه قد أصبح نصف رجل في العمل في الحقل، وتوقّف عن رمي عدّة العمل في البحر، فإن فريدريك يبقى فريدريك.

هكذا تبحر الأم وابنها في قارب، ذات صباح مشمس، نقيّ كالزجاج، وضباب غير مرئي يجعل عيونهم ترمش وتنظر بعيداً، وقد وصلا متأخّرين أسبوعين، وهذا من تقاليد سكّان بارأوي، أيضاً.

بينما كانت سوزانا وفريدريك في هافستاين، تخرُّ إنغريد على ركبتيها، لقد جاءها المخاض، لم تخطئ في عدّ الأيام وحسابها، والمخاض قريب جداً من حسابها، وكل شيء يتوقّف على طريقة المرء في النظر إليه. ولا ترغب إنغريد في أن يراها الآخرون في هذه الوضعية، فتضع من يدها نصف سطل من التوت بحرصٍ بين العشب، وتنزل مترنّحة إلى سقيفة القارب، وتدفع قارباً على الزلّاجات إلى الماء، وتنجح في الصعود إليه، تمسك المجدافين وتبدأ بالتجديف، لكن ما إن تبتعد عن اليابسة مسافة عشر قامات أو اثنتي عشرة قامة، حتى تخرّ في أرضية القارب، ويجلب صراخها الآخرين.

يأتي الجميع راكضين. تستطيع أن تراهم، من فوق حافة القارب المطليّة حديثاً، يصطفّون بجانب بعضهم ويشخصون بعيونهم إليها في

القارب، لم يكن في بارأوي من قبل فتيانٌ مراهقون، غرباء، كما هو الحال اليوم، سبعة فتية. ترى إنغريد رؤوسهم، أحجامها المختلفة، ألوان شعرها وأطوالها، عبر ضباب أخضر، بينما أنفاسها تعلو وتهبط كأن في داخلها مضخّة. وبين الفتية تقف باربرو، فاغرة فمها، وتلوّح بذراعيها كما لو أنها تلقي تحية يائسة؛ والسماء رمادية، اليوم، والبحر أبيض مثل مرج من الثلج.

كانت ولادة صعبة ووحشية، وإن انتهت بسرعة. فقد جثت إنغريد على ركبتيها وسط القارب، كما قالت لها باربرو. وخلع أرنه، مرة أخرى، ثيابه، وسبح إليها. يصعد القارب. لكنه لا يحتمل رؤية دمٍ بشريٍّ في المكان الذي أدمى فيه آلاف الأسماك من قبل، كما لا يحتمل النظر في وجه إنغريد طباشيريّ اللون، فيغمض عينيه ويجدّف عائداً بالقارب، ثم يقفز إلى الشاطئ، ويركض إلى جنوب الجزيرة، وشقيقاه ينظران إليه مشدوهين. ثم يلحقان به راكضين، ويلحق بهما بنيامين ويورغن أيضاً.

يُخرج دانيال وباربرو إنغريد والوليد من القارب، ويصعدان بهما إلى البيت. تقطع باربرو حبل سرّة الجنين، ثم تربطه وتوقف النزيف. تعي إنغريد كل ما يجري حولها، وتسمع صراخ المولود، وتطالب برؤيته.

تعرف باربرو جيّداً ما تفعله، وتقول إن عيون المواليد الجدد ليس لها لون محدّد، لكنها سرعان ما تكتسب لونها الخاص؛ إنها تدرك أيضاً ما تتحدّث عنه. وتلاحظ إنغريد أنها لم تعد تنشج أيضاً، ولديها الصبر الكافي لتنتظر، لأن المولود أنثى، وسيكون اسمها كايا، كما تستطيع أن ترى قسماتها بوضوح، إنها قسمات الروسيّ، ولون عينيها بلون آلاف عيون الأبرياء الذين قُتلوا على متن سفينة العبيد، ريجيل، التي نسيها الجميع، ووالد الطفلة قد قُتِلَ أيضاً، إنها ترى ذلك الآن، إن كايا ابنة ريجيل.

- 15 -

لا يحب الله أهل الساحل بقدر ما يحب أهل المناطق الداخلية والمدن؛ حتى إنه ينساهم فترات طويلة، فينسونه هم أيضاً. ربما يتلون صلاةً قصيرة قبل الطعام، أو يزفرون زفرة امتنان وهم يشربون فنجان قهوة، لكن ما إن يتذكّرهم بنعمته مرّة، حتى تعرف الأيدي والعيون أين تتجه بالشكر له. إنغريد لا تشبك أصابعها وترفع عينيها إلى السماء، بل إنها تعرف أخيراً، مثل شلّال من الضوء في حلكة الليل، أنه إن لم يكن هناك معنى في أي شيء في هذه السنة المرعبة التي عاشتها، فقد ظهر الآن معنى، شعاع أمل من السماء البلّورية، ولا تغفل عيناها ولا أذناها عن أدنى صوت أو حركة من طفلتها، لا عندما تكون نائمة ولا عندما تكون مستيقظة، والنور في كلّ زوايا المكان، على مدار الساعة، رغم أن الخريف على الأبواب.

تتساءل باربرو ما الذي كانت تفعله إنغريد في القارب عندما جاءها المخاض؟ وكذلك تتساءل إنغريد. تعلّمها باربرو كيف تُرضع الطفلة، والطريقة الأمثل لتحفيضها. تتركها إنغريد تقوم بهذا العمل، وجادفيجا تراقبها وتهزّ برأسها إعجاباً. باربرو رائعة؛ وقد بدأت الآن تغنّي كلّ يوم

أيضاً، ليس فقط بناءً على طلب جادفيجا، بل من أجل الطفلة والعشب الذي سينمو في الحدائق الخمس، ذات التربة السوداء، في الأعوام القادمة، ومن أجل ابنها الذي سيعود إلى البيت قريباً، وكذلك من أجل إنغريد التي استعادت نصفها المشوّش؛ ولا يهمّ كم تبكي الطفلة، خصوصاً في الليل، فبكاؤها زئير الغد الذي يهدر في آذانهم.

تدفع إنغريد المال لدانيال، الذي يتقاسمه مع الآخرين، وفقاً لصيغة، متفق عليها، تمنحه الحقّ في أجرٍ أعلى من الجميع، ثم يغادر الجزيرة مع الحصانين وأدوات عمله، على متن القارب الجديد، الذي استأجرته إنغريد مقابل كلّ المال الذي جنته من بيع ريش العيدر الأخير. يلوّح دانيال الذي يبتعد، ويلوّح الواقفون على الرصيف، وحزنهم لا يستطيع أن يمنع حلول سلامٍ مؤقّت على الجزيرة، سلام لا يشوّشه سوى حنين الفنلنديّين المستمرّ لوطنهم، أو حنين أرنه على الأقل، ورذاذ مطر خفيف، ونسر يحطّ على صخرة بالقرب من الأغنام.

لقد حان وقت إعادة ترتيب الأولويات.

يجدون المفتاح، وينطلقون: إنغريد مع الطفلة المربوطة إلى بطنها في واحد من شالات أمها الملوّنة، وباربرو في فستان الكنيسة، الذي تلبسه حتى في الأيام العادية. يفتحون سقيفة لوفوتن، ويُخرجون الصناديق الثلاثة إلى ضوء النهار، ويتأملونها بعيون ناقدة. صناديق قديمة جداً وبالية، والطلاء الذي طُليت به ذات يوم قد تحوّل إلى طبقة من الغبار.

أحد الصناديق كان لوالدها، والثاني لجدّها، والثالث لجدّ جدّها، وعليه الحرفان الأوّلان من اسم والدها: H. B، هانس بارأوي، وتاريخ

1831، وكان الصندوق الأكبر والأفضل بين الثلاثة. لقد ابتلع البحر الجدَّ الأكبر، وهو في ريعان شبابه، وقبل أن يتعلّم ابنه استعمال المجاديف.

تطلبان من أرنه، وشقيقيه، أن يحملوا الصندوق الأكبر إلى البيت، وأن يضعوه في غرفة الجلوس. ويحمل بنيامين ويورغن صندوق مارتن بارأوي، الذي يحمل تاريخ 1864. يسأل أرنه عما سيفعلان بهذه الصناديق. يضعون صندوقي لوفوتن على الأرضية حيث كانت طاولة الطعام، التي طُلبَ منهما أن يضعاها بجانب جدار الحجرة، والكراسي من حولها مثل مراقبين بُكمٍ، والوقت أواخر شهر أيلول.

إنه موسم سمك الرنجة الآن، وكلّ شيء يتوقّف مرة أخرى.

تقرّر إنغريد أن يملّحوا سمك الرنجة بأنفسهم، بدلاً من أن يدفعوا كلفة تمليحه في المركز التجاري. يوافق أرنه وبنيامين على الفكرة.

يبحرون بقاربين إلى المركز التجاري، ويشترون براميل وملحاً، بالدَّين، فيسجّلها على حسابهم المدير الجديد، ذو المظهر الغريب والذي باعته إنغريد ريش العيدر، ويساومونه حتى يحصلوا على أدنى سعر ممكن، وهم يحتاجون إلى أنصاف براميل، لأن الرافعة لديهم لا يمكن أن ترفع براميل كاملة. وفي عصر اليوم ذاته، يسدّون وفقاً لتعليمات إنغريد المضيقَ بين مولتهولمن والجزيرة الصخرية بالشِّباك، كما يضعون الشِّباك إلى الغرب من الصخرة الأخرى، على شكل قمع، كما اعتادوا أن يفعلوا من قبل.

لكن، على الرغم من أنهم يشاهدون أسراب الطيور مثل أعاصير بحرية فوق البحر في الشمال والغرب، وحتى بالقرب من الصخور، لا يعلق سمكٌ في الشِّباك قبل مرور أكثر من أسبوع. عندئذٍ تمتلئ الشِّباك بالأسماك تحت نور القمر الجديد؛ ويضطرّون إلى سحبها بالقوارب، ويفقدون نصف

الكمّية. وعلى الرغم من ذلك يملؤون ثلاثة عشر نصف برميل من أسماك الرنجة، وكلها أسماك كبيرة. تطلب منهم إنغريد أن يقطعوا رؤوسها بدلاً من شقّها.

يعود فريدريك بارأوي من المدرسة. يوكلون إليه مهمّة جلب الماء وتحضير المحلول الملحيّ، الذي يُصبّ في البراميل عندما توضع بجانبهم، وقد ثقب أرنه براميل الملء في الشرائط المعدنية المربوطة حول وسطها. تفكّر إنغريد أنه كان ينبغي أن يُركِّبوا مضخّة ماء على الرصيف، توفّر عليهم مشقّة حمل الماء من البحر أو رفعه بالرافعة إلى براميل غسل السمك. لا جديد في الأمر، لطالما امتلكت بارأوي كل شيء ونقصها شيء مهمّ.

ما تزال إنغريد تحمل كايا في الوشاح فوق بطنها وهي تعمل، وسرعان ما ستحملها وراء ظهرها. تبكي كايا وتصرخ عندما تُنزلها إنغريد، فهي تحبّ الحركة.

يشترون مزيداً من البراميل والملح، ويصنعون المزيد من أنصاف البراميل. وفي عصر أحد الأيام بينما إنغريد وسوزانا تقفان على الرصيف، بمريول العمل، تُقطّعان الرنجة، ترتّبانها في البراميل وترشّان الملح فوقها، تسمعان أصواتاً، لا تُخطئها الأذن، في الشمال، وتشاهدان، قبل أن تظهر السفينة بوضوح، مدخنةً بيضاء ضخمة بعلامتها المميّزة، حزام بطن أسود، وهي تبحر صوب أوترهولمن، وهذه ليست بارأوي الثانية، التي ينتظرونها منذ أن أُرسلت الرسالة الحاسمة، إنها سالتهامّر.

وحدها إنغريد تعرفها.

تغسلان أيديهما، وتقفان على الرصيف جنباً إلى جنب، وتضع إنغريد يديها تحت الشال لتدفّئهما من حرارة طفلتها، التي تضحك وتنظر إليها بعيون ريجيل.

ترى سوزانا شكلاً مألوفاً يقف على قوس القارب وحبل المرسى في يده، فتبدأ بالقفز في مكانها وهي تصيح، ويداها أمام فمها، بينما تقف إنغريد ساكنة ولا تحرّك حتى إصبعاً، بينما يلقي لارس الحبل إلى الرصيف، فيتلقّاه هيلمر ويضع أنشوطته في المربط، ويتناول يورغن حبل المرسى الخلفي.

«أهذا أنت؟!»، تصيح سوزانا من فوق الرصيف.

ينزل لارس إلى سطح المركب دون أن يردّ عليها. رجل في أوج شبابه، وقد وخط الشيب شعره، وجسده أكثر قوة وامتلاءً مما تتذكّره إنغريد، لكنه رشيق وسريع الحركة. يقف أمام نافذة قمرة القيادة، التي تُنزل، ويمدّ ماغنوس مانفيك رأسه عبرها، وينظر خطفاً إلى الرصيف حيث تقف إنغريد، التي تحيّيه بهزّة خفيفة من رأسها، وتصيخ السمع إلى ما يقوله لارس قبل أن يختفي الرأس ثانية، وتتوقّف السفينة.

يرفع لارس درج السفينة على سطح القارب، ثم يصيح في باب المقصورة. تنطّ بنتان صغيرتان، عبر الباب، بفستانين، وسترتين، وجوارب قصيرة متشابهة، ولديهما أيضاً الشعر نفسه، والطول نفسه، والحركات نفسها. تلتفتان وترفعان رأسيهما تجاوباً مع إشارة لارس، وتنظران إلى إنغريد وسوزانا اللتين تلوّحان وتبتسمان لهما. تخرج وراءهما امرأة بثياب سوداء. إنها أطول قليلاً من لارس، لكن بشعر أسود، وتلبس شالاً أبيض وأصفر يبدو مثل الحرير في ضوء الخريف. ويخرج من حجرة التخزين

شابّان صغيران، تعرف إنغريد أحدهما، إنه أولي، ومعهما صبيّ في الثامنة أو التاسعة من عمره، تخمّن إنغريد أنه، هانس، ابن لارس. تلوّح له، لكنه لا يردّ التحية، وتصيح سوزانا: «أين فيليكس؟!».

«في البحر» -يقول لارس- «يصيد بالأشراك».

يرفع لارس أحد غطاءَي العنبر، ويساعده ماغنوس -الذي كان قد نزل إلى سطح السفينة- برفع الغطاء الآخر. تسمعهما إنغريد يناقشان أيّ الرافعات يستخدمان، كما تسمع ضحكاتهما القصيرة أيضاً. يشغّل ماغنوس السفينة مرة أخرى. ثم يخرج من المقصورة صبيّ صغير وامرأة تلبس تنّورة حمراء، وسترة صوفية حمراء بياقة سميكة أكثر حمرة، وتلبس شالاً أيضاً. تقف المرأتان وتنظران حولهما. وتتدخّل المرأة ذات الثياب السوداء في شيء يرفعه ماغنوس بالرافعة، وتُشرف على رفع طاولة مكتب من عنبر السفينة دون أذيّة، وتبقى معلّقة في الهواء متأرجحة، بينما لارس يتحكّم بالرافعة الحبلية ثم ينقلها باتجاه الرصيف، وسوزانا تصيح: «أين يصيد؟».

«في تور إيفرسون»، يقول لارس دون أن يرفع بصره عن المكتب، الذي يُنزله على الرصيف بهدوء عند قدمي إنغريد، فيقف هناك بفخامته تحت نظر إنغريد التي ترى أن قائمتيه عبارة عن خزانتي أدراج مثل تلك التي اشتراها والدها في إحدى لحظات جنونه، فتفهم أنهم قد جاؤوا ليبقوا.

تفكّ إنغريد حزامي الربط وترميهما تحت الطاولة بحيث يستطيع لارس أن يسحبهما، ويُنزلهما ثانية إلى العنبر، الذي يُخرِج منه صناديق، وأكياساً، وأسرّة، وفُرشاً، وكراسيّ وطاولة، في تنوّعٍ مثير للإعجاب، ويضعها على الرصيف الحجري بهدوء وترتيب كأنه يؤثّث بيتين: غرفتا

جلوس، ستّ غرف نوم، ومطبخان، يهطل رذاذ مطر، فتضع المرأة ذات الثياب السوداء، التي صعدت إلى الرصيف الآن، أغطية مشمّع فوق طاولة المكتب، وتقدّم نفسها على أنها، هانّا، زوجة فيليكس.

تلاحظ إنغريد أنها، مثل المرأتين الفنلنديّتين، تخفي طفلاً في شال تحت ثيابها، طفل عمره شهر واحد، زوجة فيليكس وطفلها الثالث، أوسكار. تضع سوزانا إصبعها في فمه، وتلاحظ أن البنتين التوءمين هما، أيضاً، ابنتا شقيقها فيليكس. تجثو على ركبتيها وتساعدهما على الصعود إلى الرصيف، وتطري، بلهجتها المدنيّة، على ثيابهما الجميلة وشعرهما المجعّد، وتصافحهما، تسألهما عن اسميهما، وتقول اسمها، ثم تنادي على فريدريك، الذي لم يبالِ بما يجري على الرصيف، وهو في طريقه لملء سطلين آخرين من مياه البحر، لأنهم بحاجة إلى المياه المالحة في ثلاثة براميل على الأقل.

تشبه هانّا إحدى عمّات إنغريد، التي عاشت بينهم عندما كانوا يمرّون في أزمة، جدّية جداً ومتزمّتة، إنه مكتوب على محيّاها، امرأة قوية لكنها لن تكون قادرة على البقاء إذا ما مات زوجها، هذا ما تراه إنغريد بوضوح، وتجده مريحاً.

يقول لهم لارس إن فيليكس سيصل على متن بارأوي الثانية قبل نهاية شهر تموز، وسيبحرون قرب نهاية العام مباشرة إلى لوفوتن في موسم الصيد الجديد.

تلتفت إنغريد نحو ماغنوس، الذي صعد إلى الرصيف أيضاً، وتسمح له بإلقاء نظرة على طفلتها، وهكذا يمكن أن يرى أن لا حاجة لقول المزيد عن هذا الأمر.

يتحدّث بلطف ومرح، ويعلّق ببضع كلمات، لإغاظتها، تحمرّ لها خجلاً. تلتفت إنغريد إلى المرأة الأخرى، التي تقول إن اسمها سلمى، زوجة لارس. إنها قصيرة مثل لارس، لكنها ناعمة ولطيفة، وشعرها أصفر ذهبيّ كثيف ومسبل. تمدّ سلمى يدها مصافحةً إنغريد، وتطلب من ولديها أن يصافحاها، هانس عمره تسع سنوات، ومارتن خمس سنوات. تقول إنغريد: «حسن، حسن، أخيراً لدينا هانس ومارتن في بارأوي مرة أخرى!». وتعضّ على أسنانها كي تمنع نفسها من البكاء.

لكن باربرو لم تتوقّف عن البكاء. لقد أوقفت صنع الخبز في اللحظة التي وصل هدير سالتهامّر إلى أذنيها حادّتي السمع، في المطبخ، وتسمّرت على الرصيف، والطحين على شعرها، ووجهها، وساعديها المتورّمين، منذ أن أُنزلت طاولة المكتب على الرصيف، محدّقةً إلى ابنها في الأسفل وهو يعمل على رفع الأثاث دون أن ينظر إليها؛ وهي تصيح باسمِه باكية. يجيبها بينما يؤرجح فوق رأسها كنبة حمراء صدئة ضخمة، ثم يُنزلها بهدوء مثل قطّة بجانب طاولة طعام: «ألا تخجلين، يا أمي؟!».

لم ترَ باربرو ابنها منذ تسع سنوات، وهي تنتظر الآن بهدوء حتى ينتهي من إفراغ السفينة، بضمن ذلك أشياء عديدة مهمّة مثل الطحين، السكّر، وثلاثة أكياس جزر، وسطلين من السجق، الذي لم تره إنغريد من قبل اندلاع الحرب، إضافةً إلى سطل فيه خنزير مُقطّع ومملّح.

أخيراً، يصعد لارس إلى الرصيف، فتستطيع باربرو أن تقف بقربه وتسمعه يتحدّث إلى إنغريد بانزعاج، ويقول لها شيئاً لم يكن يرغب فعلاً في قوله، ويقول إن الرسالة أبلغتهم أنهم سيجدون البيت جاهزاً بانتظارهم، غير أنه لا يرى في كارفيكا سوى هيكلٍ بسقفٍ، ونصف سقيفة!

تفهم إنغريد، من جديد، علاقتها الملتبسة مع ابن عمّتها، التهديد والأمان، لكنّها تضحك وتقول له إنها ليست من كتب الرسالة.

«ماذا؟».

«سوزانا، وأمّك».

«لم يقل لي فيليكس ذلك».

«وهو أيضاً في غاية الشوق إلى البيت».

يجلس لارس في الكنبة، فيختفي فيها، وعندما يشعر بصغر حجمه فيها، يقفز منها ثانية. يجلس ماغنوس مكانه، لكنه يملأ الكنبة، ويقول إنهم في هذه الحالة ينبغي أن ينقلوا الأثاث إلى السقيفة ريثما ينتهون من بناء البيوت؛ لقد قال ذلك ممازحاً. تتبادل سلمى وهانّا النظرات، وتسأل إحدى التوءمين أمّها أين سيعيشون. «ستعيشون معنا»، تقول إنغريد التي تلتفت إلى أرنه، وتطلب منه أن يجمع الفتية ويلحقوا بها.

في البيت، تُخرج من الفرن ثلاثة أرغفة خبز شبه محترقة، تكشط عنها القشرة المحترقة، وتضعها على طاولة الطعام، ثم تفتح النافذة، وتطلب من يورغن أن يحضر عربة النقل. يحملان الصندوقين إلى الخارج، ثم ينقلانهما على دفعتين إلى الرصيف في الأسفل. في الصندوق الأول يوجد ملابس، أدوات مطبخ وأوانٍ، وهذا تعطيه للإخوة سكارسفوغ، وتعطي الصندوق الثاني، لبنيامين ويورغن، ويحتوي على ملابس فقط. ويأخذ كلٌّ منهم فراشه، كما تعطيهم ثمانية جلود غنم، كانت تحتفظ بها في المخزن، بعض البطانيّات، شراشف سرير، والثياب التي يلبسونها، والأحذية الجديدة التي صُنعت نعالها من الإطارات المطاطية لعربات نقل المدافع الألمانية.

تنادي على أولي كي يعيد إرسال خطّاف الرافعة، مرة أخرى. يسأل ماغنوس، من الكنبة التي ما يزال جالساً فيها، ماذا تريد من ذلك؟ ويقول إنه توجد على الطاولة أمامهم زجاجة كحول وحولها أقداح صغيرة، والجميع جالسون حول الطاولة، كأنهم ينتظرون أن يُقدّم لهم شيءٌ ما. فتقول إنغريد إنه سيأخذ معه ستة مسافرين إلى الشمال، مرة أخرى.

«مَنْ؟»، يسأل ماغنوس، وينهض من الكنبة.

«أنت تعرفهم»، تقول إنغريد.

يتفحّصهم ماغنوس بنظرة متشكّكة. يبتسم عندما يقابل عيني يورغن، ويصافحه، بينما يُحيّي بنيامين والإخوة الثلاثة بهزّة من رأسه.

«لكنني مسافر إلى الجنوب!».

«يمكنك أن تُنزلهم على اليابسة، إذاً» -تقول إنغريد- «لأنهم ذاهبون إلى الشمال».

يتخصَّرُ ماغنوس، ينظر إلى البحر وهو يعضّ شفته السفلى، ثم ينظر إلى السفينة، حيث يقف أولي وهو ينظر إليه متسائلاً. وحالما يعطي ماغنوس موافقته بهزّة من رأسه، يقفز أولي إلى مقصورة الرافعة ويحرّك ذراعها إلى فوق الرصيف.

«لقد نعتّني بالقحبة، عندما كنا معاً آخرة مرة. أليس كذلك؟»، تقول إنغريد وهما يشاهدان صندوق جدّ بارأوي الأكبر يُنزَل إلى عنبر السفينة.

«نعم، وكنت أعني ما أقول!»، يردّ ماغنوس.

يبتسمان.

يشعل لارس وولداه ناراً على الرصيف، بين الأحجار التي يوضع عليها حوض الغسيل، وكان الطقس مناسباً، ثم يتناول المطرقة، التي يستعملها

أرنه في براميل الرنجة، ويفتح بها غطاء أحد سطلي السجق ويضعه فوق النار؛ فتتذكّر إنغريد كيف أنه في طفولته اعتاد أن يشعل النار في المكان نفسه، لأنه كان يعتقد أنه لا يمكن العمل خارجاً في الطقس البارد دون نار، ولم يستطع الإقلاع عن عادته هذه. والآن يدفع ولديه أمام باربرو ويطلب منهما أن يقدّما التحيّة لجدّتهما، ثم يستدير بسرعة، يتناول زجاجة الكحول عن الطاولة، يفتحها، يملأ أحد الأقداح ويناوله لإنغريد.

تأخذ إنغريد القدح وتشرب، ثم تقول «نعم» لسؤاله غير المنطوق، ما إن كان هو الآن صاحب القرار في بارأوي. فيملأ قدحاً آخر ويعطيه لأمه، التي تأخذه بيدها المرتجفة، فينسكب بعضٌ منه، وبدلاً من أن تشربه، تضعه على الطاولة، وتضع يديها على رأسي حفيديها، وتسأل لارس: «لمن هذه الكنبة الحمراء الفظيعة؟!».

«هذه لك، يا أمي!»، يقول لارس وهو منهمك في ملء مزيد من الكؤوس.

تصعد إنغريد، برفقة الامرأتين الجديدتين على بارأوي، إلى البيت وتريهما أين ستنام كلٌّ منهما. هانّا ووليدها والبنتان سينامون في الصالة الجنوبية، وستنام سلمى في غرفة الجدّ، وينام لارس والولدان في السقيفة السويدية، التي أصبحت فارغة الآن، وستنتقل سوزانا للنوم مع فريدريك في غرفة طفولة إنغريد القديمة.

يتقاسمون الأرغفة الستة التي خبزتها باربرو، ويأكلونها مع المؤن الجديدة: الزبد، والمربّى، والجبنة الحلوة في صناديقها الخشبية. وتسأل سلمى من تكون هذه العجوز النائمة في الكرسيّ الهزّاز.

«هذه جادفيجا»، تقول إنغريد.

يحلّ المساء، وينهمر المطر بغزارة. تُفتح أبواب السقيفة الجديدة، وألسنة لهب النار تضيء على المجموعة التي أدخلت الأثاث إلى السقيفة وتجلس الآن حول طاولتين بمفرشين، مثل طاولات المطاعم، يأكلون ويشربون ويتحدّثون، كما لو أنهم في صالة أفراح بأربع غرف نوم، وغرفتي جلوس مدمجتين، ومطبخين. تجلس باربرو على رأس إحدى الطاولتين، وحفيداها عن جانبيها؛ ولأنها تحار ماذا تقول لهما، تملأ صحنيهما بالسجق، الذي يأكلانه بأصابعهما، كما تضع لهما الزبد على شرائح الخبز، وتتردّد أيضاً في أن تسألهما ما إن كانا يحبّان الجبن الحلو.

يجلس ماغنوس ولارس بجانب أولي ورفيقه، على الطرف الثاني من الطاولة، ويتحدّثان عن صيد الحيتان. يفكّر لارس فيما إن كان بوسعه فعل ذلك أيضاً: صيد حيتان المنك في شمس منتصف الليل في فيستفيورد وفي بحر البارينتس، وبذلك لا يضطرّ أن يقضي الصيف بلا عمل. يقول له ماغنوس إن لديه أرضاً يعمل فيها، فيجيبه لارس إن هذا عمل تقوم به نساء بارأوي، وهذا ما يفعلنه دوماً.

على الجانب الطويل من الطاولة، يجلس الفنلنديّون الثلاثة، وقد وضعوا أمتعتهم على أسرّة مختلفة في سالتهامرّ، ويتساءلون ما إن كانوا مضطرّين للالتحاق بالجيش عندما يصلون إلى الشمال، وهذه ليست المرّة الأولى التي يناقشون فيها هذا الأمر، والمسافة بين مينهام وسكارسفوغ ليست طويلة، لكن يورغن وبنيامين لديهما عائلة تنتظرهما، كما أنهما سيتعقّبان أثر أولاد جادفيجا المفقودين، غير أن المحادثة تنهار ويخيّم صمتٌ يصعب عليهما الخروج منه.

قبالتهم على الجانب الآخر، وفي منتصف الطاولة، تجلس سوزانا مع

ابنتي شقيقها، تحدّثهما، تقدّم لهما الطعام، وتسألهما عن أبيهما. وعلى كلا جانبيهما تجلس سلمى وهانّا، وتأكلان بالشوكة والسكّين وتشربان الحليب - وسلمى تشرب الكحول. وحده فريدريك لا يجلس إلى الطاولة، بل يتنقّل حولها ويقف وراء الكراسي ويستمع إلى ما يُقال، قبل أن ينتقل إلى وراء كرسي آخر ويستمع إلى حديث آخر، ويجفل عندما يصيح لارس فجأة: «ما هذا؟!».

شيءٌ ما ينقّط في كأسه. «هل يرشح من السقف؟!».

يتطلّع الجميع إلى الأعلى. ينحني أرنه إلى الأمام، ويقول عبر الطاولة إنه قد أصلح السطح، لكن الأحجار الإردوازية نفدت، ينقصه حجر واحد.

يتطلّع الجميع إلى نعل حذاء أسود في السقف، وقطرات الماء التي تسقط منه. ينهض لارس، ويشير بيديه، فينهض الجميع ويحرّكون الطاولتين متراً باتجاه الشمال، ثم يجلسون مرة أخرى، بينما يُحضر لارس سطل السجق الفارغ ويضعه على الأرض تحت منطقة الدلف، ويسمعون ارتطام قطرات الماء بأرضية السطل المعدنية، ثم بالماء، إلى أن تصبح دون صوت، ويسأل فريدريك بلغته الجديدة: «أين هي إنغريد؟».

إنغريد هي الغائب الوحيد. إنها مستلقية في الصالة الشمالية، حيث تُرضع كايا. وبعد أن تنام كايا، تنقلها إنغريد إلى الجهة الأخرى من السرير، حيث يمكن للضوء الضئيل، الذي يخترق زجاج النافذة المبلّل، أن يضيء وجهها، ويمكن أن يتوقّف الزمن، وأن يتجمّد كل شيء، ويمكن لإنغريد أن تحاول نسيان نيلفي.

- 16 -

لقد خبزت إنغريد وهانّا لليوم الذي سيغادر فيه الفنلنديّون. وأجرت سالتهامّر رحلتين إلى المركز التجاري، أوصلت براميل الرنجة، وعادت بمواد البناء التي دفع لارس ثمنها نقداً من المال الذي حصل عليه من بيع المنزلين في راينه، كما اشترى حِمْلَ فحمٍ، لأن إنغريد لم تستطع أن تقطع التورف في الصيف.

باستثناء إنغريد المشغولة بأمورها الخاصة، فقد تعرّف ماغنوس مانفيك على بارأوي جيّداً وخصوصاً أعمال البناء التي تجري في كارفيكا وامتدحها كثيراً.

لحظة الرحيل، صافحته إنغريد وشكرته على أشياء مختلفة. بدا أنه قد فكّر في أن ينعتها بالقحبة مرة أخرى، مرفقةً بابتسامة مناسبة، لكنه لم يجد ذلك لائقاً.

صافحت إنغريد أرنه، وضمّت سفَرّي، وقالت لهيلمر الذي لم يرغب في أن تضمّه إنها ستفتقده. ونقلوا جادفيجا بالرافعة إلى السفينة في الكنبة الضخمة، التي لم ترغب باربرو أن تحتفظ بها.

أنزل ماغنوس زجاج مقطورة القيادة، أخرج رأسه منها وقال: «حسنٌ، إن الطقس يتحسّن الآن». ثم شغّل المحرّك، وأبحرت السفينة مبتعدة.

لا المسافرون لوّحوا بأيديهم، ولا الواقفون على الرصيف. وحدها جادفيجا رفعت يدها. وبكى فريدريك، فضحك منه هانس بارأوي الجديد، الذي وبخّته سلمى وسوزانا، فتطلّع إلى أبيه متوسّلاً دعمه. قال لارس إن عليه أن يقيم صداقة مع فريدريك، فوراً، لأنهما سيذهبان إلى المدرسة معاً، إضافةً إلى أنهما سيعملان في بناء المنزل معاً.

يضحك الابن ساخراً، ويقول شيئاً تمنّى الكبار لو أنهم لم يسمعوه، فينال عليه قرصة أذن ويبدأ بالبكاء، فيضحك فريدريك من بين دموعه.

يصعد الجميع إلى البيت.

قال لارس، الذي يسير بالقرب من إنغريد، إن أمورهم لن تسير على ما يرام.

فقالت إنغريد إنهما سرعان ما يتصادقان.

قال لارس إنه لم يكن يقصد فريدريك، بل الإخوة الفنلنديّين.

فكّرت إنغريد في الأمر، وعاودها الإحساس القديم بأنه قد فاتها شيء لاحظه لارس. فسألته عن رأيه في العمل الذي عملوه في الحدائق، لأنّه لم يُبدِ رأيه بعد. قال لارس إنه عمل رائع، وإن عليهم أن يقتنوا بقرة في العام القادم. سألته إنغريد أليس من الأفضل أن يشتروا بقرتين؟ فأجابها إنهم سيفكّرون في الأمر.

مع عودة لارس إلى بارأوي، عادت سفينة الألبان إلى رحلاتها المنتظمة إلى الجزيرة، رغم أنه لا يوجد لديهم حليب. كانت السفينة

تنقل المواد، وتأخذ براميل الرنجة المليئة وتعود بها فارغة، وقد أصبحت براميل كاملة، لا أنصاف براميل، وكانت غلّة الصيد ممتازة طيلة الشهر. كما جلبت السفينة برقيات من فيليكس، وذات يوم من الأسبوع الأخير من شهر تشرين الثاني جلبت لإنغريد ثلاث رسائل. كان الطقس سيّئاً يومئذٍ، وكايا معها. وقد تبلّلت الرسائل قبل أن تصل إلى البيت وتدخل إلى غرفة المعيشة.

كتبت إيفا صوفيا تقول إنها خُطِبَت لسائق يعمل في المستشفى، ولا بدّ أن إنغريد تتذكّره، سائق العربة التي نقلتها من الباخرة وإليها. وقالت إنها تعيش ظروفاً سعيدة، وسرعان ما ستصبح لديها عائلة، ربما في الربيع، وقد رتّب السائق منزلها بشكل رائع. لكنها لم تثق بهذا السلام، على أيّ حال، لأنها غالباً ما تفكّر في إنغريد، وهذا يقلقها دوماً...

حاولت إنغريد أن تبتسم، وعلّقت الرسالة فوق الموقد كي تجفّ.

كان إريك فالك يفكّر في إنغريد أيضاً، رغم أن الجزء الأعظم من رسالته عبارة عن تقرير عن أوضاع المستشفى في العهد الجديد. لكنه وصفها بابنته الطبيعية، مرّتين، كما كتب إنه حزين لأنه لم يستطع أن يروّضها، كلمات مراوغة وغامضة جعلت إنغريد تشعر بالإحراج رغم أنها قرأتها وحدها. قرأت الرسالة مرّة ثانية، وانتابها الضيق ذاته، فرمتها في نار الموقد.

لكنها بقيت واقفة تتأمل الصورة المرفقة مع الرسالة. إنغريد وإريك يقفان كلٌّ على جانب كرسي الروكوكو في بستان التفّاح المُزهر، وقد ثبّتت بصرها على نقطة غير مرئية فوق حاجبيها. لم يكن من الصعب معرفة الشخصين في الصورة على الرغم من أن كليهما لا يشبهان الصورة.

ذهبت إنغريد إلى المطبخ وأرت الصورة للآخرين. جفّفت سوزانا الماء عنها بظاهر يدها، وتأملتها ثم قالت إن الرجل وسيم، وسألت من يكون. قالت سلمى إن إنغريد تبدو أصغر في الصورة. وقالت هانّا إنها تبدو خائفة.

وسألت باربرو من هي السيّدة التي في الصورة، ولم تعرف الرجل أيضاً.

علّقت إنغريد الصورة كي تجفّ، أيضاً، وفكّرت أنها ذات يوم ستأخذ كايا إلى المدينة وتتصوّران معاً، صورة للأم وابنتها، ومن الممكن أن ترسل نسخة منها إلى شخص، لكنها ليست في عجلة من أمرها، بما أن الطفلة تزداد جمالاً كل يوم. لكنها سألت هانّا ما إن كانت تعلم كم تكلّف صورة كهذه.

قالت هانّا إنها تكلّف كثيراً.

كانت الرسالة الثالثة من أرنه.

ذات مساء غريب، تقف إنغريد بباب الشرفة. الغريب في الأمر هو أن الوقت ليس مساءً، بل إنه منتصف النهار. ترى سفينة الألبان تتوقّف لتُنزل فريدريك وهانس العائدين من المدرسة، إنه يوم السبت. لكنها لا تنزل لاستقبالهم كما اعتادت أن تفعل، يكفي أن تراهما يتنافسان من يصل أولاً إلى البيت. كما ترى أيضاً شخصاً آخر، هناك في الأسفل، في سقيفة القارب، إنه لارس.

تسأل الولدين عن المدرسة، لكنها لا تتلقّى إجابة. فتنزل إلى السقيفة وترى أن لارس قد أدخل الأغنام إلى السقيفة. تسأله لماذا فعل ذلك؟

ينظر لارس إليها، ثم إلى الطفلة، ويربّت على خدّ الطفلة، كأنّ للأمر علاقةً بها.

تدسّ إنغريد يدها وراء ظهر الطفلة وتُخرج رسالة أرنه وتناولها إلى لارس. يقرأ لارس الرسالة ويقول: «أعطيتهم نقوداً؟!».

تقول إنغريد: «نعم». فقد وضعت محفظة نقود القسّ مالبيرغيت في الجيب الداخلي من صندوق هانس بارأوي 1831، الذي أخذوه معهم. وأرنه يشكرهم على ذلك بعبارات مفرطة التقدير، أكثر مما ينبغي.

يقول لارس: «ألم أقل لكِ؟».

تهزّ إنغريد كتفيها دون أن تقول شيئاً.

تقول الرسالة إن الإخوة وصلوا إلى مدينتهم، فوجدوا بيتهم مدمّراً، وفي ظلام دامس، كما هو متوقّع، عندئذٍ عاشوا في ثكنة في هونّينغفوغ، ثم انتقلوا إلى ثكنة جديدة في هامّرفيست، والآن يعيشون في ترومسو، في مأوى تديره الراهبات، والشكر موصول لقلوب الراهبات الطيّبة، ولنقود إنغريد، وهم لا يعرفون ماذا سيفعلون في انتظار الربيع والضوء.

يلوّح لارس بالرسالة، ويقول: «ماذا تقترحين؟».

تقول إنغريد: «أنت بحاجة إلى عمّال طعوم في الشتاء القادم».

يحدّق إليها لارس، ثم يقول: «لدينا الكثير منهم».

«يمكنك أن تستبدلهم».

«بذلك المراهق الكفيف؟».

تدرك إنغريد أنها لن تردّ على لارس. يقول: «هل يستطيعون وضع الطعوم؟».

«لقد صادوا في البحر هنا».

«نحن نصيد بعيداً عن الشاطئ».

«يستطيع أرنه أن يصيد هناك، والصغيران يعملان في وضع الطعوم».

يفكّر لارس في الأمر ويقول بصراحة إنها يمكن أن تكتب للإخوة أن يذهبوا إلى لوفوتن، ويقابلوا كونراد هارتفيغسن، صاحب مصنع تعليب الأسماك في راينه، ويقولوا له إنهم سيعيشون في سقيفة صيد لارس بارأوي خلال عيد الميلاد، ريثما يعود هو وفيليكس إلى الشمال في مطلع شهر كانون الثاني.

تنظر إنغريد إلى كايا التي ترمش برموشها السوداء الطويلة، ولا تحمل نفسها على قول شكراً.

تجول بنظرها في السقيفة مرة أخرى، وتسأله من جديد لماذا أدخل الأغنام إلى السقيفة.

يقول لارس: «هل أنت عمياء؟!».

يدير لها ظهره ويمشي خارجاً إلى عتمة النهار، ويتجه جنوباً في الدرب الجديد إلى كارفيكا، الدرب الذي يكاد يصبح طريقاً جديدة، هناك أعمال كثيرة في انتظاره.

تلحق به إنغريد، لكن يداً خفيّة توقفها. تتسمّر في مكانها، وتتلفّت حولها، الجزيرة كلّها في لقمة واحدة، ينفتح الباب في الحائط العريض، هناك في البيت، ويخرج منه الأولاد الثلاثة، وفي يد كلٍّ منهم شريحة خبز. يشاهدون لارس ويتسابقون صاعدين التلّة لاعتراض طريقه، والدخان يعلو متكاسلاً من مدخنة المطبخ، وتخرج باربرو من الباب وتتطلّع شمالاً

وجنوباً بنظرات متوجّسة، ثم تمشي إلى حبل الغسيل، وتجمع الملابس المعلّقة هناك سوداء في هذا الصمت الفسيح، ثم تنفتح نافذة المطبخ، وتطلّ هانّا بوجهها وفمها المفتوح، وتصيح بشيءٍ ما لباربرو، التي تلتفت وتردّ عليها، بما يبدو أنه سؤال، سؤالين، تفهم إنغريد ذلك كلّه، وهي نصف نائمة، إنّ عاصفة الشتاء الأولى في طريقها إليهم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

روي ياكوبسن

كاتب نرويجي من مواليد أوسلو 1954. أصدر مجموعته القصصية الأولى «حياة مصادرة» في 1982، ونال عليها جائزة تريا فيسوس (جائزة أفضل أول عمل أدبي، تمنحها جمعية الأدباء النرويجيين). تفرّغ للكتابة في عام 1990. ألّف ياكوبسن خمس مجموعات قصصية، وكتاباً للأطفال، وتسع عشرة رواية، ونال خمس عشرة جائزة أدبية مرموقة. ورُشِّحت روايته «اللامرئيّون» لجائزة مان بوكر الدولية في عام 2017، وكانت أول رواية نرويجية تُرشّح لهذه الجائزة.

يتميّز ياكوبسن بإنتاجه الأدبي المتنوّع من القصص القصيرة المشبعة بالمحتوى النفسي، وتقنيات السرد المتعددة، وباستخدامٍ انتقائيّ للصور واللغة، إضافةً إلى الروايات الأوسع نطاقاً التي تتميّز بثروة من المعرفة التاريخية والأدبية واللغوية والسياسية، من عصر ملحمة آيسلندا إلى تاريخ الحرب في القرن العشرين في القارة الأوروبية وفي روسيا وفنلندا. هذا النوع من الكتابة جعل الناقد النرويجي الكبير «تريغفي براتيلي» يصف روايات ياكوبسن بأنها سينما طبيعية. وقد تُرجمت أعماله إلى 41 لغة عالمية.

محمد حبيب

مترجم من سورية مقيم في النرويج. عضو في جمعية القلم النرويجية.

له العديد من الترجمات عن اللغتين الإنكليزية والنرويجية، من بينها: «اجتماع شمل العائلة» لـ ت. س. إليوت، «دور الصدفة والغباء في تغيير مجرى التاريخ» لإريك دورتشميد، «العمى» لجوزيه ساراماغو، وغيرها.

صدرت بترجمته لدى دارَي «سرد للنشر» و«ممدوح عدوان للنشر والتوزيع»: رواية «اللامرئيون» للكاتب النرويجيّ روي ياكوبسن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف نجاح طاهر

telegram @soramnqraa

وحيدةً في جزيرة "بارأوي"، تعيش إنغريد بعد أن رحل الجميع، تجوب الخرائب وتُصلح ما يمكن إصلاحه وتصيد السمك والأجساد التي تجرفها الأمواج إلى شواطئ الجزيرة. تجاهد الشابّة لإخفاء سرٍّ كبير قد يعرّضها للخطر، بينما تشهد البلاد الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الثانية.

في هذه الرواية يكمل "روي ياكوبسن" حكاية جزيرة "بارأوي" التي بدأت مع "اللامرئيون"، بسرده الرهيف، وصوره الطبيعية، وجمله المقتضبة التي تخفي وراءها أصدق المشاعر وأكثرها حرارة.

"بحر أبيض" روايةٌ عن البدايات الجديدة التي تشقّ طريقها من رماد حربٍ مدمِّرة، عن الصداقات والحب، ووجوه العابرين والموتى، وعن الأناس الذين يبقون مكانهم في مواجهة الحرب، يودّعون الراحلين ويستقبلون العائدين، ويرصدون مرور الأيام وتعاقب الفصول.

مكتبة

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سرد

ISBN 978-9933-641-96-2

9 789933 641962 >